راتب شعبو

كأجراسٍ بعيدةً...

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

كأجراسٍ بعيدة...

راتب شعبو

كأجراسٍ بعيدة...

روايـة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2022
ISBN: 978-6144-58-575-7

تدقيق لغوي: حسين إبراهيم
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

لا يُسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها، وكذلك تصوير و/أو تحميل و/أو توزيع الكتاب إلكترونيًا أو التسهيل لذلك من دون إذن خطّي من الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلّف.

القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون! لا تكن مجرمًا.

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 - 11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

إلى زويا وجمال

«الراضون بأن لا يكونوا أشخاصًا مميّزين هم الناس النبلاء.
لا تصارعوا، كونوا عاديين».

لين تشي
فيلسوف صيني

الأشخاص الذين صادف وجودهم في طفولتي كانوا مثل بذار متنوّع في أرض، يُخرج نباتات متنوّعة تبقى خضراء ومثمرة مع الزمن. بعضهم دخل ذاكرتي عبر مرويّات متناقلة من دون أن أعايشهم، ومنهم من عايشته فترة قبل أن يحرق آخر لحظات عمره، وهناك من ما يزال في مرجه الأخضر يقاوم الريح واليأس بابتسامة وديعة كالأقحوان. جميعهم كانوا، من دون أن يدري أحد منهم، مصدر طمأنينة لي، مثل أصدقاء ذهنيين يملأون حديقتي الداخلية بالجمال، مثل مساند نفسية أو أرواح تملؤني بالقوّة، من دون أن أعرف تفسيرًا لهذا.

ليس من السهل أن تعثر على إجابة عن أسئلة بسيطة مثل: كيف يكون شخص راحل لم تره يومًا ولم تعرفه إلّا من مرويّات المحيطين بك، سندًا نفسيًا لك؟ ما القوّة التي تستمدّها من استحضار مثل هؤلاء الأشخاص؟ ومن أين تأتي متعة الانشغال في وصفهم أو سرد قصصهم وتتبُّع أخبارهم؟

هل لأنّ الأشخاص معانٍ، والمعاني لا تموت، وأنت تعرض المعاني التي تصطفيها ذاكرتك كما يستعرض صيّادٌ تاريخ صيده في طرائد محنّطة؟ أم أنّ في التعلّق بهؤلاء الأشخاص نوعًا من استعادة الزمن الراحل، أو نوعًا من التعلّق بالطفولة الراحلة؟ هل لأنّ هؤلاء هم التربة التي احتضنت بذرتك ونشأتك وتركوا بصمتهم عليك وصاروا جزءًا لا يتجزأ من ذاتك؟

مهما يكن التفسير، فإنّ قوّة عميقة دفعتني لكتابة هذه السطور أو لقطف هذه الزهور الصغيرة التي بدت لي متدفّقة ولانهائية مثل نبعٍ لا ينضب، ولا يسمح بوضع نقطة النهاية. هذا القطاف ليس من النوع الذي ينتهي، ليس لوحة تكتمل ولا رواية بخاتمة، إنه سرد مستمر كما هي الحياة نفسها. كلّ نقطة يمكن أن تكون خاتمة أو أن تكون بداية. ولذلك كان لا بدّ من أن أكفّ في لحظة ما عن القطاف. وهكذا فعلت. في لحظة عشوائية، مثل عشوائية مياه نبع أو أزهار حقل، مثل عشوائية كلّ قطرة من النبع وكلّ زهرة من المرج، في لحظة عشوائية ولكنها تصلح أن تكون خاتمة كأيّ لحظة أخرى، توقّفتُ عن القطاف وأغلقتُ دفتري، وشعرتُ بالراحة كما لو أنني شجرة أراحها القطاف من حملها، كنتُ إذن أقطف زهوري، زهور مرجي الخاص، وأظنّ أنني أقطف زهورًا عامة في مرج.

الأحداث العامة أيضًا تسجّل في الذاكرة حضورها الخاص، تصبح أحداثي الخاصة. لا يتعرّف الطفل إلى الحدث العام بوصفه عامًا، بل بوصفه قوّة تؤثّر في المحيط الخاص به. الحدث العام في الذاكرة، هو مجموعة لا نهائية من الارتدادات الخاصة، انطباعات لا نهائية، والانطباعات هي خاصة دائمًا. أو هو صورة متشظّية يستحيل جمعها، تبقى موزّعة في قطعٍ يحمل كلّ منها جزءًا من الصورة، أو مجرّد انطباع عن جزء منها. في الذاكرة يختفي الحدث العام، يتوزّع إلى أحداث شخصية، يتحوّل إلى مجموعة هائلة من الأحداث الخاصة المتشابهة أو المختلفة أو حتى المتناقضة. الخاص هو سيد العام في الذاكرة. الحدث

العام الذي في ذاكرتك هو حدثك أنت، وما تكتبه هو ما يخصّك، ما اختارته ذاكرتك، والطريقة التي احتفظت به.

الذاكرة لا تحتفظ فقط بالشخصيات والأحداث، بل تحوّلها أيضًا. الذاكرة ليست متحفًا، إنها معمل بالأحرى، لا تخرج منه المادة الأوّلية (الشخصيات والأحداث والأماكن) من دون معالجة وتحويل، تخرج منه المادة الأوّلية مصنّعة وتحمل وسم الذاكرة التي صنعتها. على هذا تكون أحداث هذا الكتاب وشخوصه وأماكنه شأنًا خاصًا بي، إنها إذن أحداثي وشخوصي وأماكني التي سوف تصل القارئ مارةً بمراحل كثيرة من التصنيع الشخصي غير الإرادية.

لا يقتصر عمل الذاكرة على الحذف والإضافة، بل وتعمل على الصياغة والتبديل. إنها صناعة ذهنية خاصة، تعمل على صناعة الشكل وصناعة الانطباع، ففي الذاكرة مختبرات كبرى تعمل، من دون إرادة منّا، على المواد التي تصلنا من المحيط، بعد أن تبرد هذه المواد وتستقر بمرور الزمن.

مرج القطاف

اختارت كفرية (تُلفظ «كْفَرْيِيْ») أن تكون أقرب إلى النهر الصغير والوديان الضيّقة، إلى تلك الأماكن الدافئة والخجولة والأقرب إلى الروح، ابتعدتْ عن القمم التي تحتلّها مزارات ورجال حفروا لأنفسهم مكانًا على الطريق الواصل بين العباد وربهم. وابتعدتْ عن السهول التي تشبه بعضها وتبزغ شمسها من السماء كما تغيب في السماء فلا تبزغ متسلّقة من وراء جبل وتغيب منحدرة خلف جبل آخر، كما في كفرية.

لا تعرض كفرية نفسها للناظر من بعيد، لا يراها إلّا من يريد أن يراها. حين تلفّ منعطف الشحرور سوف تجد نفسك فجأة في مواجهة بيوت متناثرة كالنجوم وأراض ضيقة خضراء متدرّجة ووديان ومنحنيات مأهولة، سوف تجد نفسك أمام قرية كأنها لوحة قماشية كبيرة ملقية على سفح جبلين، ولكنها مع ذلك ملمومة إلى بعضها بعض كالوردة الجورية. إنها القرية التي لطالما اشتكى فتيانها من غياب مساحة منبسطة بما يكفي للعب كرة القدم، فمارسوا هذه الهواية الآسرة على الأرضية الصخرية لمقلع الأسفلت، أو اضطروا إلى تفريغ طاقاتهم في ألعاب أخرى لا تحتاج إلى مساحة منبسطة.

وكما تصنع الوردة عطرها في ثنايا وتجاويف خفية راضية بذاتها وتدلّ على وجودها بالعطر الذي تنتجه، كذلك صنعت كفرية أبناءها وقصصها وخيراتها.

جبلان متجاوران كما يتجاور النهدان، يتّجه انحدارهما من جهة شروق الشمس إلى غروبها. هناك تتناثر بيوت بسيطة مرتجلة، تتقارب حينًا وتتباعد حينًا وفق ضرورات تحكمها قرابة الدم أو تضاريس الأرض أو الأهواء الفردية لأبناء القرية. بين هذه البيوت تمر طريق معبّدة تشبه في مسارها إشارة الصح التي يضعها المعلّم على وظيفة التلميذ. وإذا كانت البيوت تحبّ في العادة مجاورة الطريق فإنّ الكثير من بيوت كفرية لم تأبه لإغراء الطريق العام فاتّخذت مواقع لها بعيدة عنه، كملمح غرور أو نفور أو تفرّد. ولكنّ الطفل الذي كنته كان دائمًا يتساءل من دون أن يطمئن إلى إجابة نهائية: أيّهما أقدم؟ الطريق أم البيوت؟ هل البيوت حدّدت مسار الطريق وموقعه أم العكس؟

قوّتان تتجاذبان ابن القرية، قوّة الانفراد التي تخاطب فيه نزوعه البدئي إلى نقاء الطبيعة وبراءتها، وقوّة التجمّع التي تخاطب فيه نزوعه إلى التواصل وحاجته إلى الآخر. تحت قوّة النزوع الأوّل هناك من بنى بيته بعيدًا، راضيًا بأن يتكلّف مشقّة نقل حاجياته وحاجيات أسرته لمسافة طويلة عن الطريق مقابل أن يهنأ بمحيط أكثر «طبيعية». غير أنّ النزوع الثاني كان غالبًا، فكانت كثافة البيوت على جانبي الطريق العام أعلى.

أما الطبيعة، فقد فصلت بين نهدي كفرية بساقية تشبه نهرًا صغيرًا تحفّها أشجار الحور وأدغال التوت البرّي واللبلاب على كامل مسارها، ويعرفها أهل القرية باسم «ساقية القرناص» التي تتصالب مع الطريق المعبّدة قريبًا من منتصفها، في حين تتمادى الانحناءة الجنوبية للنهد الجنوبي بساقية أخرى تعرف باسم ساقية «عين الجديدة». ولئن كانت هذه الساقية ضعيفة في الصيف وربما جافّة، فإنها في الشتاء لا تحسد أيّ نهر، حين تخطو فوق طبيعتها وتغادر مألوفها وتجاوز مجراها لتهدر بصوت مخيف، وتمارس سطوتها الشتوية على ما يجاورها من أراضٍ، فتجرف التربة وتعرّي جذور الأشجار، وتتعكّر ماؤها، عندئذ تبدو عدائية ومجافية، كأنها ليست هي الساقية التي نعرفها. كأنه لا علاقة بين هذا النهر المتمرّد وبين ذاك المجرى الهزيل أو حتى الجاف لولا مجموعة من البرك الصغيرة التي تحوم فوقها حشرات الصيف وترودها الحيوانات العطشى.

تنتهي الاستدارة البعيدة للنهد الشمالي بالنهر الصغير، هكذا هو اسمه. النهر الصغير الذي يشرب من نبع «عين الست» عند منبعه ويستزيد في مساره من نبع «النبوعة»، جنة طفولتنا ومراهقتنا ومستودع أسرارنا، قبل أن يودع أمانته إلى النهر الكبير الشمالي الذي يعرفه الأهالي باسم «النهر الكبير». وإذا كان الأهالي يسمّونه هكذا تمييزًا له عن النهر الصغير، فلا أدري لماذا تسمّيه كذلك أيضًا كتب الجغرافيا التي درسناها في المدرسة والتي تضيف إليه صفة «الشمالي»، لتميّزه عن نهر كبير آخر يقع في الجنوب ويحمل لذلك صفة «الجنوبي». كنت أقول في نفسي إنّ النهر الذي يرد اسمه في كتب الجغرافيا هو نهر

كبير بلا شك، وأتساءل لماذا يسمّونه النهر الكبير طالما أنّ هذه الكتب لا تعترف بـ«النهر الصغير» الذي يجاور قريتنا.

يسمّي الأهالي تضاريس قريتهم ومواقعها، كما يحلوا لهم، النهر الصغير والنهر الكبير وكفى، وكأنّ الكون يقتصر على هذه البقعة من الأرض. الفارق الكبير بين النهرين من حيث الغزارة والطول، مال بكثير من الأهالي إلى ظلم النهر الصغير فيختصرون اسم النهر الكبير إلى «النهر» فقط، من دون إضافة أي صفة للتعريف كما لو أنه لا يوجد نهر آخر. حين يقول أحدهم ذهبت إلى النهر يفهم الجميع أنّ المقصود هو النهر الكبير الذي طالما تباهينا بوجود اسمه «النهر الكبير الشمالي» في الكتب المدرسية وعلى الخارطة.

مع ذلك حفر النهر الصغير لنفسه اسمًا ليس بمقدور أحد أن يتجاوزه، صحيح أنه صغير ولكنه نهر، ولن يفهم عليك أحد إن أشرت إليه باسمٍ أقل.

الدولود

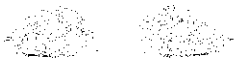

في موقع الحلمة من النهد الجنوبي لكفرية تقع الدولود. والدولود كالحلمة مغرية وخصبة وجميلة. وليس غريبًا إذن أن يكون في الدولود نبع كفرية العذب والدائم الجريان «نبع جبر». الدولود حلمة النهد ومخرج عصارته. الدولود ليست بيتًا أو بيوتًا فقط. وليست فقط مجموعة حواكير ومدرّجات وغابة صغيرة من الشجر. وليست فقط مجموعة عائلات تربطها قرابة الدم فضلًا عن روابط الجيرة والعمل والحياة. الدولود هي كلّ هذا، هي الكلّ الذي يفيض عن مجموع عناصره. هي بيوت وأكثر من بيوت، أراضٍ وأكثر من أراضٍ، عائلات وأكثر من عائلات، حارة وأكثر من حارة. إنها بكلمة واحدة: معنى.

ثمة ضوء عميق يعكس ذاته على كلّ جنبات الدولود. هناك معنى في أن يقع النبع الذي لا ينضب والذي يقصده كلّ أهالي كفرية في الدولود، وأن يحمل هذا النبع اسم أحد أبناء الدولود «نبع جبر». وهناك معنى في أن يكون أوّل طبيب في المنطقة من الدولود. ومعنى في أن يكون أوّل رجل يكرّس نفسه للسياسة والعمل النقابي والفدائي، تاركًا أرضه وعائلته وراءه، من الدولود. ومعنى في أن يكون رئيس مقالع

الأسفلت من الدولود. وفي أن يكون أوّل من أدخل المسرح إلى قريتنا والقرى المجاورة من الدولود. وفي أن تكون الدولود حاضنة أوّل فكر سياسي مختلف ومعارض في المنطقة. وأن يكون من الدولود أوّل من يفرّ من وجه الملاحقة الأمنية لأسباب سياسية وليس لأسباب جنائية وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره. الدولود نافورة بشر يسلكون من الدروب أصعبها، يغامرون، يجرّبون، يبحثون عن معنى يرضي طموحًا عصيًا لهم.

كانت الدولود غرفة طينية ممتدة يعيش فيها يوسف، الذي سيصبح جدًّا للعائلة، مع ابنته عزيزة، التي ستحمل أطيب قلب عرفته كفرية، بعد أن خطف الموت زوجته (أم عزيزة) باكرًا، وأجهض محاولته الأولى في بناء أسرة. لكنّ المصادفة التي يتّمت عزيزة وحرقت قلب يوسف على زوجته التي كان يحبّها، هي التي فتحت الطريق أمام المصادفة التالية التي «أهدت الوجود إلينا». كان يوسف قد مُنح وافر القوّة والوسامة وقلّة من الحظ. كان قويًا وشجاعًا إلى حدّ أن الآغا أعطاه، بعد وفاة زوجته الأولى، ابنته فاطمة (جدّتي) لكي يستأثر بقوّته في حماية أملاكه. لم تكن فاطمة امرأة بسيطة لا تطمح من الدنيا بشيء سوى السترة. كانت شديدة الاعتزاز بأصلها الآغوي وبذكائها وفطنتها، وقليلة الاستعداد لقبول حقوقها منقوصة. غير أنّ القَدَرَ منحها رجلًا لديه طفلة مقدودة من قلبه. فلم تسعد فاطمة يومًا باكتمال قمرها الذي ظلّ على الدوام مثلومًا بقدر الحصّة التي اقتطعتها لنفسها منه تلك الطفلة. وهكذا كُتب على يوسف أن يعيش ممزّقًا بين امرأتين، ابنته وزوجته الجديدة. وبقدر ما كانت فاطمة حريصة على تحصيل حقّها من زوجها،

كانت عزيزة متساهلة ومتسامحة لا بل مستسلمة، وهذا ما خفّف من ألم التوتر الذي يتعرّض له يوسف، غير أنّ هذا ولّد لديه في الوقت نفسه ألمًا بعيد الغور على ابنته التي تعيش، إلى جانب حرمانها من الأم، مع أب منقوص تنهبه امرأة غريبة. حتى بات ذكر الزوجة الأولى غير مستحبّ، صار على عزيزة أن تمحو اسم أمها عن لسانها وتحميه في قلبها.

في لحظات لا موعد لها، كانت تتكثّف الطفولة في قلب عزيزة فتلقي بنفسها على الفراش في حضن أبيها وتفصل بجسدها الصغير بين فاطمة، المرأة الغريبة، وبين يوسف، الأب المنقوص، باحثة في ثنايا جسمه عن أمان وحنان. حينها كانت يد فاطمة تمتدّ خلسة وتقرص جلد عزيزة حتى تبكي هذه من الألم وتهرب إلى حافة الفراش. ولم يكن هذا بخافٍ على يوسف الذي كان يكتفي بتوجيه لوم خفيف إلى فاطمة التي يحبّ، قائلًا: «حرام عليك... إنها طفلة!»

هكذا نمت على جذع يوسف وتغذّت امرأتان كلّ واحدة منهما تدرك أنّ زيادة حصّتها منه ستكون على حساب حصّة الأخرى. امرأة من صلبه، وأخرى فتح لها الحبّ مسارب إلى روحه ونسغه. عزيزة البنت التي كبرت على شحّ بالعاطفة وصار قلبها نبعًا لا ينضب منها حتى غدت أشبه بنسخة أنثوية عن مسيح بلا حواري ولا تعاليم. وفاطمة المرأة التي روت تربة أبنائها بذكائها ونشاطها وتسليمها بعد الوفاة الباكرة ليوسف، فغدت أبًا وأمًا لأربعة صبيان وابنتين كبروا وليس في وعيهم ذكرى عن حضور الأب في حياتهم، فصارت الحكايا والروايات مادة تحيك منها خيالاتهم صورة لأب جميل وشجاع وذي بال طويل.

وتفيد هذه المادة أنّ عمي علي كان الأكثر شبهًا بأبيه من بين أخوته. فما هي حكمة السماء في أن تخطف من بيننا باكرًا العمّ الأكثر شبهًا بالجدّ بعد أن خطفت باكرًا هذا وتركت مكان صورة الجدّ في وعينا فارغًا إلّا من التخيّلات والتصوّرات والتقريبات؟

في تلك الغرفة الممتدّة، عاش يوسف ونثر بذاره، هذا قبل أن تُقطّع إلى بضع غرف طينية متلاصقة لتتحوَّل لاحقًا، مع تطوّر الحياة وتزايد عدد الأولاد، إلى غرف إسمنتية وتضاف إليها غرف أخرى وعِلّية، ذات درج حجري ودرابزين حديدي ناعم، وقبل أن يتم الفصل النهائي بين المواشي وأصحابها. ولكن مع كلّ هذا التزايد في عدد الغرف وتحسين بنائها ظلّت الدولود بيتًا مغمورًا بالأشجار، بحيث لا يرى من ينظر إليها من بعيد سوى كتلة خضراء تبدو من خلالها زوايا وبقع من سطوح إسمنتية لغرف سكنية، وخيوط دخان يتصاعد من مدافئها وتنانيرها ومواقدها الحطبية.

كانت شجرة الحور الكبيرة تنتصب عالية أمام بيوت الدولود كمنارة لبحر ضاع ولبحّارة تاهوا إلى الأبد. شجرة الحور التي كانت ملاذًا مسائيًا لعصافير الدوري المتعبة من بحثها النهاري الدائم عن قوتها، ومن حذرها الدائم من عبث الصغار ووسائل صيد الكبار وعدوانيتهم، دخلت ذات ليل إلى منام أسمى لتمثّل على مسرح حلمها عرضًا وجيزًا دالًّا، وذلك قبل وقت طويل من موت تلك الشجرة والتحاقها بالعالم الذي ضاع فيه بحرها وتاه فيه ملّاحوه. تدخل شجرة الحور إلى المنام قوية باسقة شديدة الخضرة، ثمّ تبدأ بالاصفرار والميلان حتى تظهر جذورها وتوشك أن تسقط ومن ثمّ لا تلبث أن تستعيد توازنها وعافيتها وتعود

كسابق عهدها في العلوّ والخضرة. وسوف تكرّر حياة الحفيد الأكبر ليوسف، في الواقع، ما حدث لشجرة الحور في الحلم بالحذافير. لم تكن حورة الدولود، إذن، مجرّد شجرة عملاقة تدل على الدولود من أقصى الأماكن، بل كانت روحًا طيبة تشف عبر الزمن وتنقل إلى نفوس أبناء الدولود المعذّبة تطمينات ورسائل أمل وبشارات.

على أنّ بصمة الدولود المميّزة هي السنديانة الضخمة القديمة التي تربض على مسافة من البيت كأنها حارس أزلي. وقد كانت من التميّز والشهرة ما جعلها تُعرف في المنطقة بـ«السنديانة» من دون أي تعريف آخر. وإذا أراد أحد تعريفها قال «سنديانة الدولود». كانت جذورها تضرب في منطقة صخرية فاصلة بين أرضنا وأرض عمّي، في أرض مشاع لا يملكها أحد، وكانت على الرغم من الطبيعة الصخرية لمنبتها كبيرة وممتدّة فلا تضاهيها سنديانة أخرى في المنطقة من حيث الضخامة والقِدَم. حتى أشجار السنديان التي تتواجد على المقبرة أو حول المزارات لم تبلغ أي منها في حجمها حجم سنديانة الدولود التي تقف بكلّ هذه المواصفات وحيدة تحيطها أراضٍ زراعية خالية إلّا من شجيرات صغيرة مثمرة.

تبدو سنديانة الدولود للناظر كأنها ذكرى من غابة عظيمة غابرة، كأنها شاهد على زمن مضى أو حضارة دثرت. تمرّ السنون فيما السنديانة ثابتة كأنها خيط يشبك الحقب والعصور في عقد من الأزمنة المتنوّعة. تنتصب زاهدة بالزمن وعصية على الفهم وصامتة عن كلّ ما رأت وما قيل في ظلها. فهل هي حارس أم شاهد أم ذكرى؟

اللهو تحت السنديانة كان له جاذبية وسحر خاص لنا نحن أبناء الدولود، تمتدّ تحت ظلّها الكثيف صخرة منبسطة واسعة لا قدرة لأحد من مالكي الأرض المجاورة على إزالتها وتحويل مكانها إلى أرض زراعية. صخرة عريقة حملت بصمات أسلاف لا نعرفهم حفروا آثارهم فيها: صفان متوازيان من الحفر الصغيرة في كلّ صف سبع حفر للتسلّي بلعبة «المنقلة»، حفريات غير مفهومة كأنها عبارات من لغة قديمة، مقعد صغير على الحافّة الغربية من الصخرة يسمح لشخص بأن يجلس ويسند ظهره. هذه صخرة فرضت نفسها على الأراضي الزراعية المجاورة وباتت مكانًا عامًا خارج إطار الملكيات، مكانًا مغريًا للعب والاستراحة ويزيدها ظلّ السنديانة الكثيف إغراء. هذه صخرة البيدر الملاصقة لأرض البيدر، تلك الأرض المنبسطة على خلاف أراضي قريتنا المصنوعة على شكل مدرّجات للتغلّب على انحدار سفح الجبل.

على هذه الصخرة جبلنا الطين وشكّلناه على هيئة حيوانات وبشر أو على شكل دواليب سيّارات وأوانٍ مطبخية وفواكه وكلّ ما يخطر في بال طفل، ثمّ تركناها هنا لتجف، وليحبطنا تشقّقها. وهنا تقاسمنا غنائمنا من غلال الحقول وتشاجرنا وتصالحنا، وفرطنا الرمّان وكسرنا الجوز وكتبنا بقشره الأخضر أسماء من نحبّ مع قلوب وأسهم، ونثرنا أوراق الخسّ الخارجية القاسية والتالفة لنصطفي لأنفسنا اللب الغضّ. هنا تراشقنا بحبات الحصرم وثمار التفاح الحامض الذي قطفناه على عجل قبل أن نتحقّق من نضجه. وهنا كنا نتسلّى بتقليد معلّمينا في المدرسة الابتدائية: مشية الأستاذ علي الراقصة، وطريقة الأستاذ نظير في الشرح وهو يحرّك العصا على إيقاع صوته وكأنه يؤدّي نشيدًا،

وكيف يعصّب الأستاذ مصطفى فيرفع صوته ويفتح فمه بشكل زائد وهو مغمض العينين، وكيف ينظّف الأستاذ عادل أنفه بسبابته في أثناء الشرح ثمّ يفرك طويلًا ما خرج عليها بين السبابة والإبهام قبل أن يرمي المحصول في فمه. وهنا كان ينام الشيخ وَيْنِس وعلى رأسه طاقيّة الشرطة التي لا تفارقه، هذا الرجل الغريب الذي لم يكن شيخًا ولم يكن اسمه وَيْنِس، حتى اسمه كان منزاحًا عن حقيقته، كان رجلًا مصنوعًا من جنون وحكمة، شحّاد ولكنه عزيز النفس ويحمي كرامته ببثّ الخوف في نفوس الأطفال، لأنّ الأطفال هم الأداة المباشرة لإهانة الشحّادين وتحقيرهم. كان خرسه يزيد من غموضه، وقد قيل لنا إنه كان ذا صوت جميل وأنه كان يغنّي لدى مروره في إحدى السواقي فغارت منه الجنّيات لروعة صوته وأسكتته إلى الأبد. على الرغم من فقره وتشرّده وجنونه، كانت تحيط بالشيخ وَيْنِس رهبة دائمة، وحين كان ينام على الصخرة كنا لا نجرؤ على الاقتراب منه.

وعلى هذه الصخرة كانت تقام الأعراس ويجلس العريس إلى جوار العروس يتفرّجان على دبكة المحتفلين بعرسهما على أرض البيدر التي رقص عليها إبراهيم ووقف على يديه كالبهلوان وتساقطت قطع العملة النقدية من جيوبه وبقينا لشهور تالية نبحث في تراب البيدر عن خباياه النقدية. هنا جرت خصومات وعقدت عهود وتكاشفت قلوب. هنا استراح عمّال شركة الأسفلت في طريق عودتهم الوعرة من المقلع إلى بيوتهم. وعلى هذه الصخرة جلس أبي مع مجموعة صغيرة من الرجال يتلقّون درسًا من أحد ضبّاط «الحرس القومي» عن كيفية استخدام مدفع الهاون استعدادًا لمواجهة إسرائيل. وهنا كانت

تجلس المرأة الجميلة ذات الاسم الغريب والتي كنت في خلواتي الطفولية أكتب اسمها على ورقة بيضاء بأكثر ما أستطيع من التأنّي وأحيطه بزخرفة من خطوط منحنية تشبه الغيمة وأجلس طويلًا أتأمل الاسم كأني أتأمل حاملته. كانت تلك المرأة، الصنم الأنثوي المعبود لطفولتي، وأذكر أنها قالت ذات يوم بصوتها الموسيقي المؤلّف من طبقات متعددّة في هارموني خاص: «النسمة هنا تردّ الروح»، وعلى الرغم من بساطة العبارة وشيوعها، احتفظت بها ذاكرتي مقرونة بهالة الجمال الخاص بتلك المرأة، بجمال صنمي الأنثوي ذاك يزيد من جمال ذكرى هذه البقعة من الأرض.

هنا تحلّقنا حول جدتي أم سلمان مدهوشين حين قالت لنا إنها تعرف هذه السنديانة منذ كانت لا تصلح عصًا لراعي، وعلى الرغم من هول دهشتنا واستفظاع خيالنا لهذا القول، لم تشرح لنا جدتي آنئذ قولها بما يزيل دهشتنا. لم يكن متاحًا لخيالي أن يرد هذه الشجرة العملاقة إلى نبتة غضّة «لا تصلح عصًا لراعي»، لكن عمّي علي ضحك في ما بعد من دهشتنا وقال: يا مجانين، وهل تصلح هي الآن عصًا لراعي؟

هذه صخرة الدولود التي كنت إذا وجدت نفسي وحيدًا عليها تأخذني دوخة خفيفة تدفعني إلى المغادرة أو إلى مناداة أحد أترابي، منير أو معين أو نزار أو كمال، لكي يشاركني المكان ويكسر بحضوره معي الريح الزمنية الغريبة التي تعصف برأسي. حين أجد نفسي وحيدًا على الصخرة يضطرب حالي قليلًا وكأنني سقطت في هوّة من الزمن، كما كان يصيبني حين أحاول أن أتخيّل الكون قبل أن يكون ثمة أي

شيء، فيمتلئ خيالي بفراغ يتسع ويتسع حتى أشعر أن قلبي ضاق، وأن الجهات تقاربت، وأنني على وشك فقدان التوازن والسقوط.

سنديانة ضخمة تربض على مقربة من بيوت الدولود، وشجرة حور كبيرة عالية تنتصب أمامه، وأشجار متنوّعة تكتنفه من كلّ صوب: أشجار المشمش واللوز والتوت والرمّان والتفاح وعرائش العنب. بيد أنّ كلّ هذه الهالة الخضراء ما كان لها أن تحرم شجيرة الورد الجوري الشامية (هكذا كنا نسميها) التي كانت أمام البيت في الحاكورة من حضورها الخاص. بين شجرتَي رمان، اتّخذت هذه الشجيرة لنفسها مكانًا، وكانت تبثّ جمالها من بينهما بهدوء وثقة، حتى إذا شدّك جمالها ودنوت منها استقبلتك برائحة الورد الجوري البديعة والخالدة كجوهرة. وكأنّ براعمها تلتقط مشاعر فرح أهل الدولود وتكثّفها على شكل وردة وعطر. حين يُقال الورد الجوري فإنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهني تلك الشجيرة على أنها المعيار والوجود المثالي لشجيرات الورد الجوري «الشامية».

حدود للذاكرة

الرمّان هو ما حمى شعلتك من الانطفاء. لولاه لكنت الآن مجرّد ذكرى عن طفل مات بسبب حصر البول. مكتوب لك أن تحيا. كم أنت كريم يا رب!

قالت أمي هذا وهي تخيط الملحفة البيضاء النظيفة على اللحاف، هادئة وديعة كما هي دائمًا. كنت قد سمعت كلامًا مشتتًا بهذا المعنى من بعض أقاربي، لكنني في تلك اللحظة كنت على موعد مع معرفة مترابطة لتلك الحقيقة التي ستبقى سِمة من سمات تاريخي الشخصي. كأنّ خلايا دماغي كانت آنئذ قد نضجت لسماع قصّتي التي يعرفها الجميع إلّا أنا. ابتسمت أمي لاهتمامي، ورمت شغلها جانبًا لتضعني مكانه في حضنها. ضمّتني إلى صدرها وقبّلتني بقوّة كأنها تريد أن تشربني، وسألتني السؤال الذي تعوّدتُ أن أسمعه منها حين يرتطم اندفاع حبّها لي بحدود قدرتها على التعبير: هل تعرف مقدار حبّي لك؟ وتتابع: أرجو أن يحبّك اللّه كما أُحبّك.

كنت يومها في السادسة من عمري، وهذه تخوم ذاكرتي، فأنا لا أكاد أحمل في ذاكرتي عن الفترة السابقة لهذه السنّ سوى صور باهتة

ومتداخلة لأشخاص غائمين وأحداث مبعثرة ومبتورة. وطالما عجبت ممن يستعرض أحداثًا يحملها في ذاكرته وهو في عمر أقل.

رحتُ أستمع إلى أمي، كنت مستلقيًا في حضنها ومغمورًا برائحتها التي حضنت طفولتي، رحت أصغي إليها وأنا ألهو بين إبهامي وسبابتي بجلد رقبتها الطري وكأنني أرضع رقبتها بإصبعيّ، أرضع سكينة وسعادة لا توصف. إنها الحالة الأكثر أمانًا وطمأنينة لي مع أمي. سألتني وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، سألتني للمداعبة لأنها تعرف أنني لا أذكر:

ألا تذكر كم كنت تتعذّب وتعاني لكي تتبوّل؟

لا، قلت بغنج وشوق لسماع قصتي على لسان أمي.

يا اللّه كم كنت تصرخ وتتألّم حين تحاول أن تتبوّل ولا تستطيع. أخذناك إلى الطبيب. الطبيب أدخل أنبوبًا مطاطيًا رفيعًا في حمامتك حتى أخرج البول الذي كان يعذّبك. تألّمتَ كثيرًا حين أدخل الطبيب الأنبوب المطّاطي (القسطرة)، ولكن بعد أن خرج البول ارتحتَ ونمتَ كالقتيل.

وتابعت أمي وهي تمسّد بيدها رأسي، وكأنها تحكي لي قصة لكي أنام:

قال الطبيب إنّ حصوة تمنعك من التبوّل، وإنك لن تستطيع أن تتبوّل بدون هذا الأنبوب الرفيع. أعطانا الأنبوب وعلّم أباك كيف يستخدمه، وعدنا إلى الضيعة. ومن حسن الحظ أنّ أباك كان قد تدرّب من قبل على يد الدكتور وهيب الغانم ليصبح ممرّض شركة الأسفلت التي يعمل فيها، وصار له معرفة بهذه الأمور، وإلّا لما استطاع أن يتعلّم

بسرعة كيف يستخدم الأنبوب المطاطي ليريحك من البول الذي يتجمّع في بطنك. كانت أيامنا تلك سوداء كالزفت. كنت توقظنا بالليل على بكائك الذي لا يوقفه إلّا تفريغ البول بالأنبوب المطاطي ذاك، وكان ألمك يزداد مع إدخال الأنبوب ثمّ سرعان ما يهدأ بكاؤك حتى يتوقّف وتنام، ثمّ ننام نحن.

وما علاقة الرمّان؟

الرمّان هو الذي شفاك من مرضك. اللّه هو الشافي. بعد أن قرّر أبوك أن نسافر بك إلى الشام ونعرضك على الأطباء هناك. وفي الأيام التي كنا نستعد لذلك، استيقظت أختك سهام وقالت لي أن أطعمك من الرمّانات التي كنا نعلّقها بالسقف، كنا نعلّق الرمّان بالسقف لكي يجفّ ولا يفسد. لم ألتفت لكلامها. ولكنها ألحّت عليّ وقالت إنّ هذا الرمّان سوف يشفيك، وإنّ الشيخ هو من قال لها هذا. وحين سألتها: أي شيخ هذا؟ قالت إنه شيخ جاءها في المنام تلك الليلة وطلب منها أن تخبر أمها بأنّ الرمّان المعلّق في سقف البيت هو الدواء الشافي لأخيها. أي لك أنت. وأضافت أنّ هذا الشيخ جاءها ثلاث مرّات في المنام بلحية بيضاء ولباس أبيض، وفي كلّ مرّة كان يسألها إن نسيت ما أوصاها به، ويعيد الوصيّة عليها.

كنتُ سعيدًا بسماع هذه القصة التي بدا لي أنها تتعلّق بشخص آخر غيري. وكانت أمي تتكلّم باطمئنانٍ من يسترجع الحدث بعد تجاوز خطورته.

أخبرتُ أباك فما كان منه إلّا أن وضع الكرسي تحت عنقود الرمّان

المتدلّي من السقف، ثمّ صعد وقطف إحداها. ومن اللافت أنك أقبلتَ على الرمّان بشهية ولم ترفض تناوله. في ذلك اليوم أكلت من الرمّان الكثير، ونحمد اللّه أنّ نفسك لم تعافه مع ذلك. كان منه الحامض والحلو و«اللّفان». أطعمناك من الأنواع كلها. ومن غرائب الأحوال أنك تلك الليلة لم توقظنا ببكائك. وفي صباح ذلك اليوم رأيت ما دعوتُ اللّه طوال تلك الفترة أن يريني إياه. رأيتك غارقًا في النوم، بينما كان فراشك مبلّلًا. لم نحتج إلى الأنبوب المطاطي تلك الليلة. كان صباحًا لن أنساه طوال عمري. هكذا مدّ اللّه يده إليك لكي يريحك من العذاب ويريحنا من عذابنا لعذابك. كيف كان لنا أن نعلم، لولا منام أختك وذلك الشيخ، أنّ دواءك أمام أعيننا ونحن تائهون عنه ونبحث عن مُعين في أمكنة بعيدة؟

ضحكت أمي من ثمّ بصوت مسموع وأضافت:

كانت أختك جهينة تتبوّل عنك وعنها! في ذلك الوقت كانت جهينة تبلّل فراشها كلّ يوم، وكان لزامًا عليّ أن أشمّس فراشها يوميًا. كنت أقول في نفسي وأنا أنشر الفرشة على السطح: ما هذا الظلم يا اللّه؟ هنا فراش لا ينشف وهنا فراش لا يبتلّ، وكله لتعبي وغمّي!

تكلّمت أمي معي عنّي، ولكن مثلما كنت أصغي كما لو أن القصة تدور حول شخص آخر، كانت أمي تتكلّم وكأنها تحكي لشخص آخر أكبر منّي وأكثر وعيًا. غير أنّ كلماتها استقرّت في وعيي ونقلت تلك الحادثة من فترة ما قبل تاريخي الشخصي لتدخل في سجلّ ذاكرتي وكأنها امتداد صغير مضيء في عتمة تاريخي الشخصي السابق على ذاكرتي الواعية.

بشكل غامض، اخترقت تلك المصيبة العائلية حياتنا، وبشكل غامض زالت. وبالنسبة إليّ كان حلولها وزوالها يقعان خارج المجال المجدي لذاكرتي، غير أنّ ذاكرتي تحتفظ بالانعكاسات اللاحقة لهذا الكرب العائلي الذي سبّبه مرضي ذاك. أذكر مثلًا كيف استنفرت العائلة لحادث بسيط استنفارًا لا يفسّره سوى وجود سابقة ما. كانت أختي سهام تحمّمني في أحد صباحات الصيف في طشت أزرق في فناء البيت، وفي أثناء ذلك حاولت أن أتبوّل، كما يحبّ الصغار أن يفعلوا في أثناء الاستحمام، حينها شعرت كأنّ نارًا شبّت في حمامتي، فبكيت متألّمًا وصرخت:

لا أستطيع التبوّل!

نزلت صرختي على أهلي كالصاعقة. هذه هي الصرخة التي كان يمكن أن أصرخها في مرضي في طفولتي الباكرة لو كنت بعمرٍ يمكن لي فيه التعبير بغير البكاء. لاحظت كيف خارت عزيمة أختي وقالت باستفظاع:

يا ويلي!

ركضت أمي من المطبخ وسألت «شو فيه؟» وهي تستشعر المصيبة. وحين أخبرتْها سهام، وضعت يديها تحت فكّيها وكأنها تحاول أن تساعد رقبتها على حمل الرأس، ثمّ قالت لسهام بيأس:

نادي أباكِ!

كان أبي في طريقه إلى عمله، كان يبدو وهو يسير على «طريق الوطى» المقابلة للبيت بخطى بطيئة ورأسه مفعم بهموم الصراعات

التي لا تهدأ في شركة الأسفلت، مكان عمله. وحين صاحت له سهام واستفسر عن الأمر، كان كافيًا أن تقول له اسمي حتى يفهم أو يخمّن ويعود مسرعًا. وفي طريق عودته صاح لأخي بركات الذي كان يعمل شيئًا ما في الأرض المجاورة للبيت، لكي يستطلع أمري. جاء بركات الذي كان الأقرب إلى قلبي من بين أخوتي، والذي كان وجوده يشعرني بالقوّة. أخفى بركات لهفته ومازحني قائلًا: «شو يا أبو زبّورة؟»، كأنّ مزاحه أزاح القلق الذي تسلّل إلى نفسي من رؤيتي وجه أمي وأختي وخوفهما البادي. فتجرّأت أن أحاول التبوّل من جديد. خيط من النار عبر على طول مجرى البول ثمّ تلاشى، وراح البول يطفر من حمامتي كالنافورة. تنهّدت أمي وارتاح وجهها وحمدت اللّه، وصاح بركات لأبي وطمأنه أنني بخير، عاد أبي إلى عمله فيما تابعت أختي سكب الماء عليّ بارتياح وخصّت الحمامة بطاسة كاملة من الماء الدافئ.

رمّان السقف وشيخ المنام والفراش المبلّل وبكائي الليلي والأنبوب المطاطي، كلها عناصر دخلت إلى ذاكرتي منقولة على ألسنة أهلي، أما الطشت الأزرق واللهفة والخوف البادیان على وجه أمي وأختي حين صرختُ بأنني غير قادر على التبوّل وخيط النار الذي عبر مجرى البول عندي، فهذه عناصر من أصل ذاكرتي الواعية، وتشكّل مع صور غائمة أخرى حدودًا فاصلة بين تاريخي الواعي وما قبله.

بقي الأنبوب المطاطي في رفّ الخزانة العتيقة حتى اليوم الذي اضطر فيه أهلي إلى إخلاء بيتنا القديم (الدولود) ونقل كلّ ممتلكاتهم إلى بيت أخي الواقع فوق الطريق بعيدًا من تهديد مقلع الأسفلت الذي لم يكفّ يومًا عن قضم أراضينا وبيوتنا لتفجير طبقات الأرض العميقة

تحتها واستخراج صخور سوداء ذات رائحة نافذة تعوّدناها وأحببناها وصارت جزءًا من بيئتنا وذاكرتنا. مادة سوداء يسمّونها الأسفلت، أما أبي وأعمامي فقد كانوا يسمّونها «المعدن». لم نجد لهذه المادة من فائدة سوى تعبيد الطرق تعبيدًا سيئًا، أما المساوئ، فكانت تتوالد وتعظم يومًا وراء يوم حتى بلغت تهجير الناس من البيوت واستهداف حياتها بالأورام السرطانية. وبعد أن استقرّ أهلي مؤقتًا في بيت أخي ضاع الأنبوب المطاطي الأثري ولم أتمكّن من العثور عليه، وحين سألت أمي قالت لي متحسّرة:

ضاعت أشياء كثيرة في غمرة انتقالنا السريع، أجبرونا أن ننقل أغراضنا على عجل وكأنّ السقف سيهبط على رؤوسنا. لم نرَ يومًا أبيضَ في مجاورة هذا المقلع الأسود. في هذا الانتقال السريع، ضاعت طنجرة بيت أهلي النحاسية التي كانت هديّة أمي لي في عرسي، كم كانت قيمتها كبيرة في نفسي، لولاها لما وجدت ما أطبخ فيه في فترة زواجي الأولى. وضاعت القطع النقدية المعدنية التي تبقّت من المجموعة التي جمعها أبوك بهوس من كلّ البلدان التي زارها. وضاع كثير من الصور التي كنا نحتفظ بها في العلبة البنيّة المغلّفة بالحرير الأخضر من الداخل، ألا تذكرها؟ ضاعت صور لا تقدّر بثمن. حتى دزينة السكاكين الفضيّة التي أحضرها أبوك معه من موسكو لم أجد لها أثرًا بعد نقل الأغراض. ربما سُرقت أو سقطت في مكان ما، اللّه أعلم. كيف لا تضيع أشياء كثيرة من مقتنياتنا وقد اضطررنا أن ننقل في يوم واحد ما تراكم في بيتنا من أغراض ومتاع في خلال أكثر من نصف قرن؟ استملكت الدولة بيتنا وبيت عمّك والحواكير المجاورة لهما وعوّضتنا بقليلٍ من

المال. اللّه يلعن أبوهم وأبو إسفلتهم! وفوق كلّ هذا حرمونا من بيتنا الذي قضينا جلّ عمرنا فيه ولنا في كلّ زاوية فيه أثر وذكرى. كان يمكنني أن أتنقّل فيه غرفة غرفة وأن أصعد الدرجات الأربع المفضية إلى غرفة المونة وأن أملأ صحنًا بالزيتون المصمود وأسكب عليه الزيت، كلّ هذا وأنا مغمضة العينين. هل هناك أغلى من بيت العائلة الذي سترنا وحوى فقرنا وحزننا وفرحنا؟ ضاع الكثير وأنبوبك المطاطي من جملة ما ضاع، يالله، ينذكر ما ينعاد!

كما
شجر
بانتش
الشج
يعلم
تحني
قديم
كما
صعد
بها إ
من ع
حريت
تخلّى
أسكن
لم يت

قمر مثلوم

في أحيان كثيرة تتسلّل المأساة إلى حياتنا على حوامل من الجمال، كما دخلت إلى حياتنا مأساة عمّي علي محمولة على فروع وأغصان شجرة التوت تلك التي كانت تشرف على بيوت الدولود من فوق، واقفةً بانتشارها الواسع وخضارها اليانع على طريق النبع. كانت تبدو هذه الشجرة للناظر من بعيد كأنها تاج على رأس الدولود. لم يكن لأحد أن يعلم أنّ هذا التاج سوف يحمل لنا المأساة وسيُسبّب لعائلتنا نكسة تحني ظهورنا وتترك نُدَبَها على أرواحنا. ففي يوم من أيام أواخر صيفٍ قديم تسلّق عمّي علي، الشاب الوسيم ذو القامة الطويلة والمنتصبة كما يليق بقامة صيّاد شاب، إلى شجرة التوت هذه على غير عادته. صعد لكي يقطف أوراق التوت التي بدأت تميل إلى الاصفرار ويلقي بها إلى بقراته التي كانت تأكل بنهمٍ ما يرمي إليها من ورق. لم يكن من عادة عمّي أن يرعى بقراته ولا حتى أن يحرث أرضه، كان رجلًا يحبّ حريته ولا يستطيب العمل ويستمتع بقضاء أوقاته في الصيد. وهو لذلك تخلّى عن ربع غلال أرضه لعائلة «أبو كاملة» المؤلّفة من زوج وزوجة أسكنهما في غرفة له في الدولود لكي يهتمّا بشؤون أرضه وحيواناته. لم يتسلّق عمّي شجرة التوت تلك بفعل الواجب بل بفعل الحرّية، لم

يتسلّقها مضطرًا أو معدوم الخيارات، بل صعد بدافع رغبته التامة في إطعام بقرته. وليته لم يرغب، وليت نفسه أبت عليه ولم تطاوعه. غير أنّ القدر يحقّق مراده بأشدّ الطرق عاديّةً وبساطةً وهو لذلك لا يمكّن المرء من الهروب أو التفلّت منه. صعد عمّي شجرة التوت وراح يقطف أوراقها ويتركها تتساقط لتأكلها البقرة، وفجأة انكسر الغصن الذي يستند إليه وسقط من على الشجرة، وانكسر عموده الفقري وتوفي بعد ذلك بأيام.

سمح لنا مدير المدرسة بالعودة إلى البيت قبل انتهاء الدوام للمشاركة في تشييعه. بدت الطريق إلى الدولود أطول بكثير من المعتاد تحت عبء الخبر والنحيب المخنوق لابن عمّي البكر على طول الطريق. التقينا رجلًا من قرية مجاورة يومئذ وسألنا عن الأمر، فقال، بعد أن أخبرناه وتأكّد من هوية المتوفّي: «حقًّا، إنّ اللّه لا يأخذ باكرًا إلّا خيرة أبنائه».

بعد سنوات طويلة وبعد أن حوّل الزمن ذكرى عمّي من ذكرى كاوية بالفقدان إلى ذكرى دافئة باستحضار شخصه، سقط ابنه الأوسط نزار من شجرة توت أخرى في الدولود وعن ارتفاع شاهق ولكنه لم يصب بأذى، وكأنّ سقوط عمّي ذاك ووفاته كانت فداء استباقيًا لابنه.

في صباح خريفي، وبعد أكثر من عام بقليل على وفاة عمّي، رأيت أرملته، بينما كنت أقرأ متمشّيًا على طريق النبع كعادة طلاب الريف في تلك الأيام، تتوجّه إلى شجرة التوت تلك وفي يدها تنكة. كانت تسير باتجاه الشجرة بهدوء وكأنها ماضية إلى غاية معتادة. سكبتْ

محتوى التنكة على جذع الشجرة وابتعدت قليلًا ووضعت التنكة من يدها، عادت من ثمَّ بهدوء إلى جوار جذع الشجرة وكأنها تقوم بعمل تكرّره كلّ يوم. وبعد لحظات رأيت النار تشبّ بشجرة التوت. ركضتُ لأخبر الكبار بما رأيت لكي يتصرّفوا. هرع الجميع بالماء لإخماد حريق الشجرة، فيما كانت زوجة عمّي واقفة تنظر ببرود إلى ما يفعلون وتقول: «سوف أحرقها كما حرقتْ قلبي. لا أطيق رؤيتها. أنتم تطفئونها بالماء ولكن أيّ ماء يمكن أن يُطفئ النار التي تأكل قلبي كلّ يوم؟». بعد ذلك قُطعتْ شجرة التوت ولحقتْ بعمّي. وهكذا خسرت الدولود تاجها الأخضر وخسرت عائلتنا أحد أركانها الأربعة.

لم يكن عمّي هو الشاب الأوّل الذي تفقده العائلة، قبله توفّيت كوثر، ابنة عمّي الشابة التي كانت قد تزوّجت حديثًا وسافرت مع زوجها إلى دمشق حيث كان يخدم متطوّعًا في الجيش، وهناك سرقتْ سيّارةٌ مسرعة سنوات عمرها الباقية وتركتها بعمرها الشاب ذاك إلى الأبد. سرق بعد ذلك مرضٌ خبيث عمرَ أختي جهينة ابنة الأربعة عشر عامًا بعد أكثر من عامين من العذاب الصرف لها ولأمي. لكن وفاة عمّي أخلّت في توازن العائلة. فعمّي كان ربّ إحدى الأسر الأربع التي تشكّل عائلتنا الكبيرة التي تقطن الدولود وتعمّرها.

بوفاة عمّي خسرنا نكهة لا تعوّض. الرجل الذي يتعامل بجدية تامة مع ما يبدو لغيره من الكبار تفاهات وصغائر. في العيد مثلًا كان لقاء عمّي هو أجمل ما ننتظر. عمّي علي هو الوحيد في العائلة الذي يعطي للعيد لونه ويميّزه عن أيام العطل الأخرى. كنا نتقدّم منه ونسارع إلى القول: كلّ عام وأنت بخير، فيوزّع علينا قطعًا نقدية متساوية كان قد

أعدّها سلفًا لهذا الأمر. معايدة عمّي علي تعني دائمًا وبالتأكيد الحصول على قطعة نقدية، أما باقي المعايدات، فإنها يمكن أن تثمر قبلة على الخدّ أو ضحكة أو أحيانًا لا شيء، وربما حصلنا على قطعة نقدية من هذا «الكبير» أو ذاك، لكن هذا غير ثابت، المعايدة الثابتة هي معايدة عمّي علي الذي فارقنا باكرًا وقلّل بذلك بهجة عيدنا.

أكمل عمّي علي حياته معنا كذكرى حيّة، لو كان عمّي علي بهذا الموقف لفعل كذا، ماذا كان سيتصرف عمّي علي لو كان حيًا الآن؟ هل كان عمّي علي سيرضى بمثل هذا السلوك؟... إلى آخره. حين أفرد ذاكرتي، يتراءى لي عمّي علي في ذلك الصباح الشتوي حين حرق الحليب ذراعي وأنا في الثالثة عشرة من عمري. في الصباح وقبل أن أذهب إلى المدرسة البعيدة لتقديم امتحان الفصل الأوّل في اللغة الإنجليزية، طلبت أمي مني أن أوصل سطلًا من الحليب لخالتي الفقيرة. ولمزيد من التعاطف مع خالتي، أرسلت أمي الحليب مغليًا. كان السطل نحاسيًا ثقيلًا، وكنت أنفر دائمًا من الذهاب إلى بيت خالتي وحيدًا لأنّ في حارتهم كلبًا أخافه. غير أنني قبلت يومها وأخذت السطل برضى ومضيت إلى قدري. عوى الكلب واتّجه نحوي فتظاهرت بالشجاعة لكنه اقترب أكثر ممّا تحتمل شجاعتي الكاذبة، فرجعت إلى خلف لكنّ خطوتي لم تكتمل واصطدمت رجلي بجذع الدالية التي كانت أمام بيت خالتي فسقطتُ على الأرض جالسًا ورفعت يدي التي تحمل السطل محاولًا الاحتفاظ بالحليب، غير أنّ هذه الحركة مع سقوطي التام إلى خلف بدت كما لو أنني أسكب الحليب المغلي على نفسي. ومن حسن حظي أنّ الحليب اندلق على ذراعي ولم يصل إلى وجهي.

دائمًا هناك قضاء أهون من قضاء. يومها ركضت خالتي وانتزعت عنّي كنزة الصوف المشبّعة بالحليب الحار ومزّقت كمّ قميصي لكي تكشف مكان الحرق. شتمتْ خالتي الحليب وساعته وبكت على حالي وعلى أنها السبب في ما حصل لي وقالت إنّ تلك الحادثة تشير إلى أنها لا تستحق المعروف. كان جميع الرجال قد ذهبوا إلى أعمالهم سوى عمّي علي. يدٌ خفية رتّبت كلّ شيء بحيث تبقى صورة عمّي تلك في بالي لكي أكتبها الآن. كم كان سيكون الأمر ثقيلًا يومها عليّ وعلى أمي لولا عمّي الذي ببرود أعصابه وسخريته الخفيفة من استفظاع أمي للأمر أطفأ كثيرًا من نار قلبها وهدّأ كثيرًا من مخاوفي. قالت أمي وهي تغالب تشنّج حنجرتها: «دائمًا كان يرفض أن يأخذ شيئًا لخالته، لكنه اليوم، يا قلبي، قَبِل بلا تذمّر». فقال عمّي: «يا مجنونة، لماذا تبكين؟ هل خربت مالطا؟». شدّ عمّي من عزيمتي وهدّأ ألمي بمعجون أسنان فَرَشَه على منطقة الحرق وربط كمّ قميصي الذي مزّقته خالتي فوق كتفي، وسار معي إلى المفرق الذي يفصل طريقينا، هو إلى عمله وأنا إلى مدرستي. وقبل أن يتركني قال: «كن رجلًا، وقدّم امتحانًا جيدًا ولا تتذرّع بحرق لا يخيف عصفورًا»، ضحك من ثمّ وتابع سيره.

يومها قدّمتُ امتحاني وخرجت لأجد أمي تنتظر أمام المدرسة. لم يكن خروج أمي من القرية فعلًا متكررًا، فهي من الملامح الثابتة للدولود مثل السنديانة والحورة الكبيرة وشجيرة الورد الجوري سوى أنّ لها مجال حركة أوسع، مجال مركزه البيت ويمتد ليشمل النبع والأراضي القليلة التي تزرعها وتجنيها والحرش الذي تقطع منه الحطب وتأتي للبقرات منه بما تقتات عليه. كان وجود أمي أمام المدرسة حرقًا

نفسيًا أشدّ علي من حرق الحليب على ذراعي. تملكني حرجٌ شديد من وجودها بجانب المدرسة، بدا لي ذلك وجودًا غريبًا ومحرجًا، وخالط الحرجَ شيءٌ من التعاطف معها في لهفتها عليّ. وربما خدش وجودُها كبريائي، فأنا طفل مدلّل في البيت، ولكن أحبّ أن أبدو خارجه شابًا، فلا أحبّ أن تكشف أمي طفولتي في المكان الذي أريد أن أبدو فيه بالغًا يستطيع تحمّل مسؤولية حرق بسيط كالذي في ذراعي.

أربعة رجال وامرأتان

أثمر رحم فاطمة أربعة رجال:

سليمان مستودع للحكمة والشعر. وقع في حبّ شابة من القرية المجاورة. في البداية صارت الحقول مسرحًا لإعلانات الحبّ المبتادل غير المباشرة، كان الأبرز فيها صوت غناء الشابة الذي كان يتغلغل في دم سليمان ويسيطر على قلبه. في ما بعد صار البيت الذي ضمّهما كزوجين وكعائلة مسرحًا لأجمل علاقة تجمع زوجين. تتلهّف لعودته من عمله في رئاسة المقالع، كما كان يتلهّف هو للعودة لكي يغمر نفسه في المجال الساحر الذي يحيط بحضورها. وحين أراد أن يمازحها ذات يوم بأن أمسك بارودة الصيد المعلّقة على الحائط وتأكّد من خلوّها من الخرطوش ووجه فوّهتها إلى صدر أسمى قائلًا بصوت مسرحي: «سأقتلك اليوم!» انتفضت أسمى على نحو غير متوقّع، وقالت بجديّة: «أبعدها عن وجهي اللّه يرضى عليك!»، ضحك وقال: «لقد تأكّدت من خلوّها من الخرطوش يا جبانة!»، لكنها أصرّت على أن يبعد البارودة عنها مع ذلك: «اللّه يرحم أباك لا توجّهها نحوي!». ضحك سليمان ثانية، واحترم خوفها ذاك، ووجه البارودة إلى السماء ثمّ ضغط على الزناد،

فدوّى صوت طلقة أرعبت سليمان بقدر ما أرعبت أسمى التي جمدت وراحت تتجمّع الدموع في عينيها وقالت بصوت مرتجف: «هل كنت تريد قتلي حقًا يا سليمان؟»، وبالرغم من التاريخ المشترك لروحيهما، احتاج الأمر إلى زمن من الحبّ الخالص، حتى تعافى قلب أسمى وعاد إلى مداره ليعيد سليمان إلى جنّته.

جبر، مستودع للرجولة والنضال. كان أخوه البكر سليمان عزيزًا جدًا على قلبه، وكان جاهزًا لحمايته من أي شرّ قد يأتيه جرّاء موقعه كرئيس للمقالع. ولم يكن سليمان بأقلّ محبة لأخيه الممتلئ قوّة واندفاعًا. في نهارٍ صيفي عاد سليمان من عمله ليجد أسمى تبكي، وحين استفسر قالت له إنها اختلفت مع «أخيه المحبوب» وإنه أساء إليها بالكلام. كانت تنتظر أن ينتقم لها سليمان بشكل ما، ولكنه فاجأها حين قال لها: «إنني أنا من وجّه لك الإساءة وليس هو، فمي هو من نطق الإساءة وليس فمه». وبعد أيام، بعد أن هدأت نفس أسمى وفكّت الحصار الذي فرضته على حبّها لسليمان، قالت له: «هل تدري أنني أحببتك أكثر بعد تلك الحادثة». أما جبر، فقد انطلق يومًا يهدر كالرعد لينتقم لأخيه من عامل أهانه وأوشك أن يضربه أمام العمال. وحين رآه ذلك العامل قادمًا بذلك الاندفاع وهو يهدّد، ما كان منه إلّا أن مشى باتجاهه وهو يقول: «لا تندفع هكذا يا جبر، ألا يمكن أن أكون مظلومًا؟» غير أنه ما من كلام كان يمكن أن يوقف جبر عن الانتقام لأخيه. حين ضاقت المسافة بين الرجلين، توقّف العامل وأسبل يديه وقال لجبر: «ها أنا أمامك اضربني كما تشاء حتى تشفي غليلك!». كانت يد جبر قد سبقت عقله، لكنه حين انتبه بعد لحظة، احتضن العامل وراح يمسح عن جبينه الدم الذي

سبّبته اللكمة، وهو يقول له: «إنك حطمتني بهذا السلوك يا أبا غدير. أرجوك سامحني».

علي، مستودع للتقوى والحب. اختار أن يبني بيته في مكان عالٍ من السفح اسمه «الشمبوطة»، قد يكون مردّ الاسم إلى شجيرة الشمبوط ذات الزهر الأصفر الفاقع الجميل، التي تكثر في المنطقة. في المساء، بعد انتهاء رحلة العمل والصيد، يرتدي علي جلابية بيضاء ويجلس في دار بيته المطلّ على مدى واسع من جبال الصنوبر، يشرب القهوة مع زوجته التي كانت نهرًا لا ينضب من القصص الطريفة. لم يدخّن قط في حياته، ولا يحبّ الخمر ولا شاربيه. تجده مستمتعًا في وقته، راضيًا بقسمته، يحبّ الخير للجميع ولا يحسد أحدًا على شيء. غير أنّ الصداع النصفي الذي كان يداهمه من حين لآخر كان يسمّم هناء عيشه. في كلّ مرّة بعد أن تتلاشى نوبة الألم، كان يعيد بناء طمأنينته من جديد ويقول إنّ هذا الصداع استفقاد من اللّه، عليّ أن أتحمّله برضى، ولكن حين كان يهاجمه الألم كان يحيل بناء طمأنينته ذاك إلى حطام من جديد. أنواع الأدوية والأدعية ومحاولات زوجته في تمسيد جانبي الرأس أو عصب الرأس وقفله بالمفتاح الطويل.. إلى آخره كلّ ذلك لم يكن يجدي. وفي إحدى المرّات، ربما زاد الألم عن أيّ حدٍّ محتمل، أو ربما جاءت النوبة في أسوأ لحظة ممكنة، لا أحد يدري لماذا تحوّل علي حينها إلى شخص آخر، راح يضرب رأسه بقبضتيه، ومن ثمّ اندفع إلى داخل البيت وأخرج مسدّسه من مخبأ له في الغرفة، وحين لحقت به زوجته خوفًا من أن يؤذي نفسه، أغلق الباب وقفله من الداخل. لم ينفع الخبط على الباب ولا البكاء ولا صرخات الذعر والرجاء في منع

علي من تجهيز المسدّس لإطلاق النار على رأسه المختنق بالألم. الكلمة التي جعلته يرمي المسدس على الأرض ويحتضن رأسه بين يديه ويهوي على السرير القريب منكمشًا على نفسه من الألم، قالتها زوجته بصوت وصل إلى المدى الأقصى من اليأس: «أولادك يا علي!».

وأحمد مستودع للظرافة والفطنة. كان يحبّ أن يقرأ لكنه لم يكن يملك الصبر على القراءة، كان يقول حين يجبر نفسه على القراءة «إنّ حراثة الأرض البور أسهل»، ويضيف: «لا أدري أين تجدون المتعة في قراءة هذه الصفحات، إنني ما إن أقلب صفحة حتى أنسى ما قرأته في الصفحة السابقة». متعته كانت في شيئين، التدخين والصيد. عندما تعب صدره وطلب منه الطبيب أن يكفّ عن التدخين، صفن قليلًا ثمّ قال للطبيب: «أنا مستعدّ للتوقّف عن التدخين، ولكن قل لي فقط ماذا يمكن للمرء أن يفعل بعد الطعام إن لم يدخّن؟».

إلى جانب نفوره من القراءة، كان يحبّ الأفكار الكبيرة التي يسمعها في السهرات من أبنائه وأبناء أخوته. مال فترة من الزمن إلى التيّار الناصري، ثمّ استهواه الكلام الشيوعي الذي تحاربه الحكومة ويحاربها، حتى أنه حين أصبح قياديًا نقابيًا وجلس يفاوض مدير الشركة في حقوق العمّال، كان عنيدًا في مطالبه ودافع عن حقوق عمّال شركة الأسفلت بحماس، فأراد المدير أن يخيفه قليلًا بالقول: «انتبه يا أحمد، إنك تتكلّم الآن كما يتكلّم الشيوعيون». لكنّ هذا لم ينفع المدير بشيء. عندما روى أحمد ما جرى في لقائه ذاك مع المدير، قال: «كلّما قال لي المدير إنني أتكلّم مثل الشيوعيين، ازددتُ افتخارًا بنفسي وتابعت على المنوال نفسه، لأنّ هذا كان يعني بالنسبة إليّ، إنني على الطريق الصحيحة».

كما أثمر رحم فاطمة امرأتين: جميلة ونجيبة.

جميلة، المجبولة على الثقة والاقتدار والذكاء. حين تبتسم جميلة تشرق في وجهها شمس تملأ قلب جليسها بالرضى. جميلة هي فاطمة الصغيرة، بذكائها وسخريتها ووفائها وابتسامتها، وجميلة هي المرأة المناظرة لأمي في الزواج، لأنّ زوجها هو خالي الذي كان يجد سعادته معها، والذي كانت تحبّ ممازحته أحيانًا فتقول بحضوره لأبي: «لم تعجبني هذه المبادلة يا أخي، أعد له أخته لكي أعود إلى بيت أهلي».

حين توجّهت جميلة إلى اللاذقية ذات يوم لتزور ابنها في بيته الجديد الكائن في الضاحية، ضاعت في متاهة البيوت المتشابهة على الرغم من أنه سبق لها زيارة البيت لمرّة واحدة، وكانت تعتقد أنها تستطيع تمييز البيت من دون مساعدة من أحد. ربما بالغت في تقدير قدراتها، أو أنّ العمر سلبها شيئًا من هذه القدرات. لم تستطع جميلة تعرّف بيت ابنها، ولم ترضَ لنفسها أن تسأل أحدًا علّه يعرف ابنها بحكم السكن في المنطقة نفسها، ولم ترضَ لنفسها أن تطرق على بيت ليست واثقة بأنه بيت ابنها. قضت وقتًا تسير بين تلك البيوت الترابية اللون وتستحضر المعالم وتحاول تذكّر موقع البيت بلا جدوى ولكن بلا يأس أيضًا. وفي سعيها العصامي العنيد ذاك سمعت صوتًا طفوليًا ينادي بفرح «تاتا... تاتا». التفتت إلى جهة الصوت، كان حفيدها الصغير يناديها من نافذة البيت الذي تبحث عنه.

حكت جميلة كثيرًا عن تلك الحادثة، عن العناية الإلهية التي تجسّدت في صوت حفيدها. «في تلك اللحظة كانت تنازعني نفسي أن أسأل

أحدًا ما، أن أطرق الأبواب إلى أن أعثر على بيت ابني، وكان سيكون في هذا انكسار لنفسي أمام نفسي، أن أطرق بابًا وأرتدّ عنه خائبة كغريبة، أن أكرّر السؤال على الناس بلا جدوى، أن أبدو ضعيفة ينشغل الناس في إعانتي وإقالتي من ضعفي. في تلك اللحظة جاءني صوت حبيبي زيدون الذي لن تفارقني صورته من النافذة وهو متلهّف لكي ألتفت إليه فيما كنت أنا، الضائعة، أكثر لهفة لصوت يدلّني على البيت، فكيف إذا كان هذا الصوت صوت حبيبي. لكلّ كلمة يقولها طعم العسل في قلبي، فكيف إذا كانت كلمته هي الخشبة التي تنقذني من بحر ضياعي! شوقه لي أنقذني من ضياعي وانكساري، انتشلني منهما وهو يشعر أنني عيده وبهجته. ناداني تلهُّفًا إلى حضن جدّته وطمأنينتها، حين كانت طمأنينتي توشك على النفاد. هل يتخيّل إنسان معنى هذا الشيء، حين تكون ضعيفًا ومجهولًا ومغفّلًا في وسط لا تعرفه، وتظهر من ثمّ وسط محيط اللاقيمة الذي أنت فيه، عيون لا ترى قيمة إلّا لك، ويكون وجهك مصدر سعادته من بين الجميع؟ عينا حبيبي زيدون لم تنقذاني فقط بل ومنحتاني متعة الشعور بقيمة أن تبدو كلّ شيء في عينَي شخص يرى فيك قيمة لا حدود لها».

ونجيبة، المكوَّنة من دفء وحيوية وجمال. كلّ قسوة الحياة التي عاشتها لم تنل شيئًا من جمالها وضحكها ومرحها. أنجبت نجيبة ثلاثة عشر «بطنًا»، وكان أبي يقول لها: «أغنيت معنى اسمك، أضفتِ إلى مصدره الذي يعني النبل والكرم، صفة أخرى هي كثرة الإنجاب». لكنها على الرغم من ذلك بقيت بقامتها البهية الواثقة ووجهها النضر وفرحها الدائم.

كلنا، نحن أبناء أخوتها، كنا نطمع في حبّها، وفي سماع كلماتها

العذبة، وكانت تمتلك تلك القدرة التي تجعل كلًّا منا يعتقد في قرارة نفسه أنها تحبّه أكثر من البقية.

قبل نجيبة وصالح (زوجها) كان الحور يُزرع على تخوم الأراضي وفي جوار ممرّات الماء، وحيث لا يصلح المكان لزراعة شجرة مثمرة. مع نجيبة وصالح، صار شجر الحور يُزرع في خطوط متوازية في أرض مخصّصة له. وبين صفوف أشجار الحور المجاورة للنبع، كانت نجيبة تزرع البقدونس. قبل ذلك كان البقدونس يُزرع مع النعنع، بجانب البيت لتلبية حاجة العائلة فقط. مع نجيبة أصبح البقدونس مصدرًا للرزق. صالح، الذي رفض العمل في شركة الأسفلت، يمهّد التربة السمراء بين صفوف شجر الحور، ونجيبة تبذر البقدونس وتكبس من ثمّ التربة بقطعة مسطّحة من الخشب الأملس وتسقيه بالرشّاشة لكي يبزغ بعد أسابيع قليلة كأنه أشعة من خيطان خضر فاتحة، سرعان ما تتحوّل إلى مرج أخضر غامق.

ربما لو سئلتِ الطبيعة أن تتكّلم عن نجيبة وصالح، الذي بقي بعد عقود من زواجه من نجيبة ينظر إليها كأنه يراها الأولى للمرة، لاتخذتْ شكل صفوف متوازية من شجيرات الحور بورقها الغضّ اللامع، بينها مساكب من البقدونس النضر.

البطن بستان، ولكنّ ثمار بستان فاطمة، على تنوّع طعومها وألوانها، اجتمعت على وفاء انتمائها إلى الأصل، الأب الذي رحل مبكّرًا تاركًا العبء للأم الشابة التي بقيتْ وأخذتْ على عاتقها أن تنضج ثمارها على غصنها الغضّ.

أم سميع

إلى الشمال قليلًا من سنديانة الدولود يوجد مقلع صغير، هو المقلع الذي أعطى حجارته لتبنى بها الدولود. حين كانت ترتفع الدولود كان ينخفض المقلع، وتحوّل مع الوقت إلى مكان مهجور ومكبّ للمهملات. لم يعد من حاجة إلى استخراج الحجارة منه بعد ظهور الخفان، وهو ليس مكانًا صالحًا للزراعة أيضًا. وكما أنّ في كفرية نهرًا صغيرًا ونهرًا كبير، فيها أيضًا مقلع صغير ومقلع كبير. الفارق بين النهرين والمقلعين هو أنّ النهر الكبير يحتضن النهر الصغير ويكبر به. أما المقلع الكبير الذي تُستخرج منه حجارة الأسفلت، فإنه يقضم بلا توقف، ما بناه المقلع الصغير من بيوتٍ لأهالي الدولود.

في هذا المقلع الصغير، هذا المكان المخفي الذي لا يلفت النظر، نصبت أم سميع كلكتها، وأحالت هذا المكان إلى ركن مبطّن بالإثارة، وإلى كنز من الدهشة.

كانت أم سميع امرأة خمسينية قليلة العناية بنظافتها ولباسها إلى حدّ أنه يمكن للنَفْس أن لا تقبل أكل شيء من يدها، وهناك من كان يرفض أن يأكل حتى من بيض دجاجاتها. إنها من نوع النساء اللواتي

خلقهنّ اللّه للعمل وليس لأي شيء آخر. وتبدو بذقنها الطويلة وأنفها المعقوف شبيهة بصور الساحرات في قصص الأطفال. تضع على رأسها إيشارب ثمّ تشدّ رأسها من فوقه بقمطة تميّزها عن باقي نساء القرية اللواتي يكتفين بوضع الإيشارب. والحقيقة أنّ هذه المرأة ليست من القرية نفسها، فقد جاءت مع زوجها من قرية أخرى طلبًا للرزق، يعملون في الأرض عند من يملكون الأرض مقابل أجر عيني. ويُحكى أنه حين ضاق زوجها بهذه الحياة الضيّقة، قصد أبا أحمد كامل (الشيخ الرزين صاحب النبوءات) حاملًا بيده سلّة من البيض واستشاره:

- هل سأبقى طيلة حياتي هكذا بلا أرض ولا مال؟

- لا يا بني، سيكون لك أراضٍ ومال.

- وأضاف حين رأى الرضى في عيني الرجل.

- اسمع يا بني، حين يمنّ اللّه عليك لا تردّ من يأتيك طالبًا المعونة!

وبالفعل صار لدى إبراهيم أراضٍ ومال وصار مقصدًا لكلّ من يحتاج عونًا ماليًا، ولم يكن يردّ طالبًا. يسجّل ما يعطيه للشخص على دفتر صغير، ويشطب دينه حين يسدّده. على أنه لم يلحّ أبدًا في طلب دينه من أحد.

غير أنّ تلك النبوءة ما كانت لتحقّق لولا الجهد المتواصل والتقتير من أبي سميع وزوجته. وكان تقطير العرق أو سَحْبه جزءًا من إسهام أم سميع في هذا الجهد.

مجموعة من البراميل المصفوفة بجوار بعضها. أحد البراميل موضوع

على موقد نار حجري ومغطّى بلَكَن ألومنيوم كانوا يستعملونه في غسيل الملابس، ومثبّتة حوافه على حواف البرميل بالطين، ومن منتصف اللَكَن يخرج بوري يشبه بوري الصوبيا ولكن بقطر لا يجاوز نصف قطر بوري الصوبيا، يتّجه إلى أعلى بمقدار لا يزيد عن ربع متر ثمّ يسير أفقيًا مسافة متر ونصف تقريبًا قبل أن ينكس في برميل آخر من الماء ويصل إلى قعره ثمّ يخرج من هذا البرميل على شكل قسطل بطول حوالى عشرين سنتمترًا. هذه هي كلكة أم سميع. تضع الخلطة في البرميل وتشعل تحته النار ثمّ يتكثّف البخار ويخرج من القسطل في البرميل الثاني على شكل سائل رائق كالماء. بآلية بسيطة يتحوّل هذا الخليط المتخمّر من التين والعنب وحب الآس إلى هذا السائل الشفّاف الذي يسمّونه العرق.

تبدأ أم سميع العمل مساءً ليكون الليل ستارًا لها، فما تقوم به مخالف لقوانين تعتبر أنّ مثل عملها يحتاج إلى رخصة من الدولة وإلى تسديد ضرائب وما إلى ذلك. الكلكة أحالت المقلع الصغير من مكان بليد مهمل إلى مكان حيوي مثير تملؤه رائحة اليانسون وتزيده النار وأصوات هسهسة احتراق الحطب تحت البرميل، سحرًا. عمل ممنوع لا يتم إلّا في الليل يُنتج مادة ممنوعة على الأطفال وهناك من يقول إنها محرّمة حتى على الكبار، كلّ ذلك يحرّض الفضول.

كنا جالسين على ركام الحجارة التي خلّفها المقلع من أيام نشاطه القديم، وكانت أم سميع تجلس إلى جوار الكلكة تتأمّل سير عملها. أثار انتباهي أنّ لا شيء يخرج من القسطل الذي يخرج من البرميل المملوء بالماء (برميل التكثيف)، على الرغم من أنّ النار مشتعلة، فقلت لها:

- الأنبوب معطّل. إنه لا يعمل!

- بكّير!

قالتها بعد أن نظرت إليّ طويلًا وعلى وجهها ابتسامة مطمئنة إلى أنّ كلّ شيء يسير حسنًا. ثمّ أردفت:

- على بالك تشرب يا صوص؟

لم أَرُدّ. خفت أن أقول «لا» فتصدَّق قولي، وخجلت أن أقول نعم. انشغلنا بعدها بمراقبتها وهي تخلط التين المخمّر في أحد البراميل الجانبية بوساطة مجرفة معدنية استعدادًا لطبخة جديدة، ثمّ رأيناها كيف رمت المجرفة من يدها واتجهت إلى الكلكة بعجلة واضحة، أمكست قطرميزًا زجاجيًا كبيرًا ووضعته تحت القسطل. لحظات وبدأت تخرج من القسطل قطرات، ما لبثت أن تحوّلت إلى مزراب رفيع من العرق. كان العرق ينزل إلى القطرميز فيما البخار، لدهشتي، يتصاعد منه. كنت تعوّدتُ أن أرى العرق سائلًا راكدًا في زجاجات، ولم أتخيّل يومًا أنه يخرج بهذا الشكل من القسطل ساخنًا يصاحبه البخار. هكذا شهدت عيناي لأوّل مرّة ولادة العرق. وبينما كنت أتأمّل مزراب العرق الحار، مدّت أم سميع يدها إليّ بكأس زجاجي صغير يشبه الكاسات التي نشرب بها الشاي، وقالت لي بالابتسامة المطمئنّة نفسها والتي تحمل في ثناياها شيئًا من الاستخفاف بمعرفة المخاطَب وانتظارًا لدهشته:

- اشرب لنرَا!

بدا لي هذا اعترافًا صريحًا بي وبوجودي وبوصولي إلى عمر يمكن لي فيه، بحسب تقدير أم سميع، أن أرشف شيئًا من العرق. كلّ هذا

أسعدني. فتناولت الكأس ورشفت منها سائلًا كوى فمي وبلعومي وأحسست بارتطامه الحار بجدار معدتي. أحسست أنّ بلعومي التمّ على نفسه وبتّ في حاجة إلى أن أتنحنح لكي أفتح مجراه مجدّدًا. لكنني كابرتُ ولم يظهر عليّ سوى العلامات التي لا أستطيع السيطرة عليها، مثل احتقان العينين وإدماعهما. لاحظتْ أم سميع ذلك وقالت بلهجة المتحدّي (هكذا بدت لي لهجتها):

- اشرب أيضًا!

وابتسمتْ. كان بوسعها أن تضحك عاليًا لكنها لم تفعل.

لم أجبها بشيء، لأنني لم أكن قادرًا على الكلام حينها، ومددت يدي بالكأس إليها. فضحكتْ بصوت عالٍ وأخذت الكأس من يدي وقالت:

- لا بدّ من أن يقطع الإنسان مسافة كافية عن حليب أمه قبل أن يضع كأس العرق على شفتيه.

ثمّ انشغلت عني.

فشلتُ في اختبار العرق. ولم يكن من حسن حظي أن يكون اختباري الأوّل مع العرق بعيّنة مأخوذة من عرق أم سميع المعروف بأنه حاد وثقيل حتى على «أصحاب الكأس».

ثلاثةُ سطورٍ من ماء

على رابيةٍ تقع جنوبي كفرية تسمّى «كروم الوطى» وتشرف على ساقية عين الجديدة (في حالات كثيرة لا تلتزم اللغة العامية قواعد اللغة العربية من حيث مطابقة الصفة للموصوف فيقول الناس عندنا «عين الجديدة» بدلًا من «العين الجديدة» ويسمّون أحد أقسى الأكواع على طريق كفرية «كوع الصعب» وليس «الكوع الصعب»، وفي هذا جمالية ما تشبه جمالية ما يسمّونه «مَيْلة الحسن» للدلالة على الحَوَل الخفيف في عيون الصبايا، انزياح جميل عن التناسق أو النظام). يوجد بيت حجري قديم اسمه «بيت كروم الوطى» أتت عليه السنون وتركت فيه غرفة وحيدة صالحة لسكن عائلة من أب أخرس وأم فقيرة العقل وابن شبيه بأمه. غرفة تحيط بها أطلال بيت سابق، حجارة بناء قديم متراكمة هنا ومبعثرة هناك، ومنها حجارة ما تزال مرصوفة فوق بعضها لارتفاع قليل تدلّ على جدار بيت تداعى. بين هذه الحجارة والجدران الناقصة تنمو الأعشاب والشجيرات التي تغزو الأماكن المهجورة في العادة، إنها النباتات نفسها التي غزت بعد سنوات طويلة، الدولود التي هجرناها لكي تتوسّع فوّهة المقلع الأسود أكثر. ويقال إنّ مصير الدولود كان سيكون شبيهًا بمصير بيت كروم الوطى لولا الجدّ يوسف الذي

استطاع بقوّته وبالرهبة التي ألقاها في قلوب اللصوص أن يجعل من الدولود مكانًا صالحًا لنشوء أسرة ممتدة. لكنّ ما عجز عنه اللصوص تمكّن منه، ولو بعد زمن طويل، المقلع الأسود. غير أنّ هذا الزمن الذي حماه يوسف بقوّته وشجاعته ثمّ بسطوة روحه بعد أن مات تحت فعل مرض سبّبه له غدر من كانوا يخشونه، حيث أسقطوا عليه من مكان مرتفع حجرًا كبيرًا بينما كان غافلًا يعمل في أرضه، كان كافيًا لنمو شجرة عائلته وامتدادها، فلم يعد أحد قادرًا على اقتلاعها أو حجب ثمارها وجمالها.

المفارقة أنّ كروم الوطى هي رابية، ولا أدري لماذا تسمّى «الوطى»، الكلمة التي تدلّ على مكان منخفض ومنبسط. لكنّ للتسميات في القرى منطقًا عجيبًا غير مفهوم. كان لذلك البيت رهبة مستمَدّة من الروح التي نادرًا ما تفارقه. روح رجل أخرس متروك بلا عناية، شارباه طويلان وشعر ذقنه يصل حتى حدود عينيه اللتين يعلوهما حاجبان كثّان بشعر نافر كالحراب، ولكنّ أكثر ما يلفت النظر فيه كان لعابه الذي يبقى سائلًا من فمه. كلّما فتح فمه، يتدلى خيطٌ لزج من اللعاب، فيبادر إلى مسحه بمحرمة أو بيده حتى يضيع بين شعر شاربيه وذقنه. كان هذا يضيف إلى حضوره المخيف عنصرًا مقززًا. كنا نترك بقراتنا ترعى في الأرض المجاورة لبيت كروم الوطى ونأتي لكي نبدّد وقتنا بالاقتراب من تخوم نصر الأخرس التي كانت في نظرنا تخومًا للخطر، لم يكن خطيرًا إلى تلك الدرجة، لكنّه كان كافيًا لكي يُجفل القلب ويعرقل جريان الدم.

غالبًا ما كنّا نراه جالسًا على كومة حجارة أمام الغرفة، متّكئًا بكلتا

يديه على عصاه الغليظة ومُسندًا رأسه إلى يديه، وبين حين وآخر كان يرشف اللعاب الذي لا يكفّ عن التسرّب من فمه. كان في هذه الوضعية يثير الشفقة. مقزّز وخطير ومثير للشفقة في الوقت نفسه. هكذا تتضارب المفاهيم في عقل طفل تجاه نصر الأخرس. لا أحد يعرف كيف انتهت السبل بهذا الرجل إلى هذه الغرفة البائسة. هل كان أخرس طوال حياته؟ أم أنه فقد قدرته على الكلام في حادث ما أو مرض ما؟ ولماذا كان يبدو لي استسلامه للحضيض الذي هو فيه، استسلام القوي وليس استسلام الضعيف، فيبدو كما لو أنه كان له عزّ سابق.

حين يشعر بوجودنا، كانت تبدو على وجهه ملامح فرح. هو أيضًا كان وقته ثقيلًا، مثل وقتنا نحن الرعاة، ويحتاج إلى أن يرفعه قليلًا عن صدره بشيء من اللهو. فينظر إلينا بابتسامة ويفتح فمه من دون أن يحاول الكلام، فقط يصدر صوتًا يشبه حرف المدّ (آآ)، فقد يئس مع الزمن من محاولات الكلام الفاشلة واستسلم لحالته وصار يكتفي بإصدار هذا الصوت الممدود، وبهذا الصوت كان يعبّر عن مشاعره. يكون صوتًا وديعًا ممطوطًا حين ينظر إلينا ويُسرّ بنا، ويكون صوتًا راعدًا مبتورًا حين يغضب من أمر ما (آم)، وأحيانًا كان يبدو صوتًا مكسورًا حزينًا حين كنا نتجاسر ونسأله عن حياته السابقة على هذه الحال البائسة. في هذه الحال كان ينظر بعيدًا وتعلو وجهه علامات حزن، لكنه سرعان ما يتملّص من ذاكرته ويعود إلى اللحظة المباشرة، إلينا نحن المشغولين بمراقبته. كنّا نسأله لا لكي يجيب، فنحن نعلم أنه لا يستطيع الإجابة، بل لكي نثير ردود أفعاله فنتسلّى بها.

كان نصر الأخرس ينتظر منّا أن نتصرّف معه كما يتصرّف الأطفال

مع الكبار. غير أننا كنّا نخشاه، ونحبّ أن نراه ونراقبه عن بعد فقط. مراقبته عن بعد تبدو مسلّية وممتعة لكنّ الاقتراب منه كان يبدو لنا خطيرًا، مثل النار التي يجب أن تحفظ مسافة كافية عنها لكي تنال دفأها وتأمن من حرقها.

يتجرّأ أحيانًا أحدنا ويقترب منه فيضيء وجهه ويمدّ يده لكي يصافحه، وأحيانًا يسند عصاه إلى الحائط ويمدّ يديه الاثنتين لكي يحتضنه، ولكننا كنا نخذله ونبتعد. وذات يوم اقترب منه كمال، أكثرنا جرأة، وصافحه فداعبه الأخرس بأن شدّ على يده بقوّة جعلته يصرخ، فيما راح الأخرس يضحك بطريقته الغريبة. يفتح فمه بأكبر اتّساع له ويغمض عينيه ثمّ يرفع وجهه إلى أعلى ربما تفاديًا لسيلان اللعاب. هكذا كان يضحك بلا صوت. بيد أنّ ما كان ربما مزاحًا ودعابة منه، عزّز مخاوفنا وحرصنا على حفظ مسافة عنه.

هذا اللعب مع الخطر كان يسلّينا ولكنه كان يؤذيه، كان يشعره بمزيد من العزلة والوحدة، ربما كان لاقترابنا منه واطمئناننا له أن يخفف شيئًا من حصار روحه، لكننا لم نكن نفعل. وحين كان يتملّكه شعور العزلة من جراء ذلك، كان يستند بيديه إلى عكّازه ويسند رأسه إلى يديه، وكنت أخمّن حينها أنه يبكي بلا صوت.

هذا الرجل الذي لفظته الحياة وهو ما يزال حيًا، يضحك بلا صوت ويبكي بلا صوت ولا أحد يستطيع أن يلج إلى قلبه ويستطلع ما فيه من خيبات وألم، أو ما فيه من كبرياء وصفاء نية. الدروب إلى قلبه مقطوعة، هو لا يستطيع التعبير بعد أن خسر القدرة على الكلام، ونحن لا نملك

الجرأة الكافية لاستكشاف طينته وشمائله بالاقتراب منه والاطمئنان إليه والإصغاء إلى لغاته الأخرى. صرنا نرسم له في مخيلتنا طبائع نلصقها به ونصنع منه إنسانًا غير ما هو. بعضنا يتخيّله نبيلًا وبعضنا يخاله شرّيرًا، لكن لا أحد كان يمتلك من الجرأة ما يكفي لكي يستطلع حقيقته. هكذا كنا نحبسه في حدود تصوّراتنا الطفولية ونفرض عليه تخيّلاتنا.

في الأيام الربيعية المشمسة كانت زوجته (مدينة) تمسك به من يده وتمشي به على طرقات كفرية. هنا امرأة تخبز على التنور، تتوقّف مدينة وتترك زوجها على جانب الطريق لتساعد المرأة برقّ العجين لبعض الوقت، ثمّ تأخذ معها بعد ذلك بعض أرغفة الخبز.

«خذ! انشاللّه ما تشبع!»، تقول لزوجها وهي تمدّ له رغيف الخبز، بلهجة تهدف إلى تأكيد تفوّقها عليه.

يتناول الرغيف من دون احتجاج، فقد تعوّد طريقتها الجلفة في الكلام والسلوك، وتعوّد أن يكون مكسور الجناح لها، فهي الخيط الأخير الذي أبقاه له الزمن، يتمسّك به ويستعين به على تمرير أيامه. من عالمي التقييمي الطفولي الخاص والذي كنت أحرص على خصوصيته وعلى أن لا أشارك به أحدًا حتى صار باستطاعتي أن أسميه «قوقعتي»، كنت أرى أنّ هذا الرجل هو عزيز ذل. كنت أشعر أنّ في سكوته على هوانه، استسلام ذوي الكبرياء. ألا يقولون إنّ النسر إذا أُسر استكان؟ وكنت أشعر أنّ مظهر المسكنة والاستجداء الذي فرضه ظرفه القاهر عليه، لا يليق به. كان يزعجني سلوك زوجته الفجّ تجاهه، أتعاطف معه وأخشى الاقتراب منه. وقد شهدتُ مرّات غير قليلة كيف يتمرّد

طبعه على تطبّعه، حين لا يتمكّن من تحمّل استخفاف زوجته به، أو حين يشعر بإهانة لا يستطيع بلعها، من أحد ما، فتخرج من فمه زمجرة عميقة، ويُظلم وجهه بعبوس مخيف ويمسك عصاه بطريقة تزرع الرهبة في النفس.

في لحظات يتحوّل من مسكين خانع ينتظر أن تتكرّم عليه زوجته بما يتكرّم الناس عليها، إلى متمرّد حانق يريد أن يرفع عن صدره ثقل هذه الصورة المستكينة التي تكرّست في أذهان الناس عنه. غير أنّ عزلته المزمنة وضعفه سرعان ما يسحبان فتيل تمرّده فيطغى تطبّعه على طبعه ويختصر ثورته وتعود عصاه إلى سابق عهدها كعكّازة، وينطفئ شرر عينيه ويستكين مثل نار القش. لكنّ أكثر ما كان يثير حزني عليه حين كان ينهي نوبة تمرّده المخيف بضحكة صامتة. كأنه كان يستعيد في لحظة خاطفة، وعيه بحدود إمكاناته وما يمكن أن يترتب على تمرّده من تبعات، فيُبتسر تمرّده ويحاول أن يُظهره على أنه مزحة، ليوصل رسالته القائلة: إنّ ما فعلته ليس من طبيعتي، إنه ليس إلّا مزاحًا، إنني مسكين وأستحقّ عطفكم ومعونتكم.

كانت قشرة قوقعتي تزداد مع الأيام قساوة ويزداد محتواها غنى. نادرًا ما كانت تتعرّض قوقعتي لأيّ ضغط من الخارج، إذ لا أحد يطلب مني رأيًا أو انطباعًا عن شيء ما، فما القيمة التي يمكن أن يحملها رأي طفل حتى يُسأل؟ وفي الوقت نفسه لم تكن تتعرّض قوقعتي لأيّ ضغط من الداخل، ذلك أنني لم أكن من النوع الذي يميل إلى إبداء رأيه وإظهار ما تحتويه قوقعتي من تقييمات والدفاع عنها. وعلى هذا أتيح لقوقعتي أن تبني جدارًا قاسيًا. وفي داخل القوقعة رحت أنمّي

تقييماتي ومواقفي إزاء كلّ شيء. وكان في هذا متعة خاصة. أترك نفسي تقيّم الأشخاص والحوادث متحرّرة من أيّ عائق خارجي أو اعتبار من أيّ نوع. تتطابق تقييماتي أحيانًا مع انطباعات غيري وأحيانًا يكون تقييمي معاكسًا تمامًا. كنت دائمًا أدخل إلى قوقعتي الخاصة أعيد فيها رسم انطباعي عن شخص من جرّاء سلوك مستجد، وأصحّح صورة هنا، وتقييمًا أو موقفًا هناك، وأضع على لائحة المفضّلين أسماء جديدة، وأضيف أسماء إلى لائحتي السوداء أو أسقط منها أسماء بناءً على متغيّرات جديدة، وهكذا.

لم يكن نصر الأخرس على لائحة المفضّلين في قوقعتي، ما كان على لائحة المفضّلين عندي صورته التي تخيّلتها عنه قبل أن يزري به الدهر ويجعله على ما هو عليه اليوم، رجلًا ضعيفًا مستسلمًا تقوده امرأة عليلة العقل. الوجه ذو الملامح الصارمة، والساعدان المنهكان اللذان يشيان بقوّة غابرة، وثورات الغضب الوجيزة التي تخترق بين حين وحين صفحة خنوعه، وبكاؤه الصامت حين تعصر العزلة قلبه المهجور، كلها دروب توصل الخيال إلى صورة لهذا الرجل غير التي نراه عليها. تُرى أَلَمْ يكن له قوقعته الخاصة مثلي وله تقييماته ولوائحه، ولكن ما قيمة هذه التقييمات واللوائح التي لا تجد لسانًا يفصح عنها ولا قوّة تترجمها إلى أفعال؟

وكان علي، ابنه، ولدًا مكتومًا لا وجود له في دوائر النفوس ولا يدخل في تعداد السكان ولا تعترف به المدارس ولا المخاتير. عاش علي متحرّرًا من قيود أبيه، لأنّ هذا لا قدرة له يمارسها على ابنه، ومتحرّرًا من قيود أمه التي تراخت قيودها بتأثير عاطفتها من جهة

وبتأثير ضعف قدراتها العقلية وتفكّكها من جهة أخرى. لكنّ علي عاش تحت قيودٍ أشدّ وأقسى. قيود منبته العاري. لم تكن مشكلته في الفقر فقط، ولا في كونه مقطوعًا من شجرة بلا صلة رحم، بل كانت مشكلته في شعوره بخجل انتمائه إلى أم خفيفة العقل وأب عاجز مستسلم لقدر ظالم. كانت مشكلته في انتمائه إلى أسرة مزدراة، ومحطّ شفقة من الجميع. تحت ثقل هذا المنبت الذي حمله هذا الطفل منذ بدأ يعي ويدرك، تقيّدت حريته. لم تلده أمه حرًا. كانت قيوده الولادية أقسى من قيود العبودية. للعبد قيمة في عبوديته، ولكن علي كان بلا قيمة. للعبد سيّد يحميه ويطعمه لكي يستخدم قوّته، ولكن علي كان بلا حماية. نشأ علي وهو يدرك أنه أدنى مرتبة من الآخرين. استقر هذا الوعي في تصوّره لنفسه وصار متكيّفًا مع هذا الوعي كما تتكيّف النبتة الغضة مع شكل المحيط الصلب الذي تنمو وسطه. لم يكن مكسور الجناح، فلم يكن له يومًا جناح لينكسر، بل كان بلا جناح أو بجناح مشلول بالولادة. يقضي وقته في الطبيعة بعيدًا من الناس، ففي عين الطبيعة يتساوى الجميع. وربما فضّلته الطبيعة على غيره في أنها وهبته، كما قالت امرأة صادفته يومًا لدى عودتها من تقطيع الحطب وهو يلهو بما وهبته الطبيعة من ذكورة، ذَكَرًا يتمنّاه كثيرون.

في لحظات معينة، كانت فتوّة علي تفور وتطفو فوق القيود التي ولدت معه، فتراه ينسى قيوده ويترك ذاته لقوّة صباه ونزواته، تلتمع عيناه ويصرخ مستهترًا بكلّ شيء وتبدر منه الحركات الصبيانية المنفلتة التي تشبه حركات الصبي العادي الذي في عمره، حينها كنا نفاجأ به وتضطرب نظرتنا له، نقلق ونبحث لها عن استقرار جديد.

غير أنه وبفعلٍ ذاتي، وربما بتحريض من نظراتنا المدهوشة مما يبدر منه من سلوك طبيعي لو جاء من غيره، لا تلبث أن تبهت عيناه إذ تقرصه قيوده، فيهدأ ويلبس من جديد قميص الدونية ويدخل في قالبه المعتاد، وتعود نظرتنا إليه لتستقرّ على ما كانت عليه: علي أدنى منّا مرتبة ويجب أن نطمئن إلى حضور هذه الحقيقة في ذهنه دائمًا بأن يعبّر عنها بكل الأشكال حسب الحالة. أن يكسر عينيه حين نحدق به، أن نسخر منه فلا يرد، أن نهمله فلا يحتجّ، أن نأمره فيفعل... إلى آخره. انكساره هذا صورة عن انكسار أبيه حين تنتابه نوبة التمرّد فيقمعها ويستسلم مجدّدًا بابتسامة مكسورة. وهكذا فإنّ نوعًا من النمل الشرس يبدأ الدبيب في شراييننا إذا أخلّ علي مرة وأظهر ما يجب أن لا يظهره، أو أخفى ما يجب أن يظهره.

مات نصر الأخرس حين كان علي من القوّة بما يكفيه ليحفر لأبيه قبرًا بيدْيه من دون مساعدة أحد. ودُفن الأخرس في المقبرة التي لم تشهد بعد دفنه أن قام أحد بزيارتها من أجله مرّة ثانية. عاد من دفنوه من المقبرة ووُضع الأخرس على قائمة النسيان مع آخر حبة تراب أُهيلت على قبره. لا عزاء ولا ذكرى أسبوع ولا شيء مما يقوم به الأحياء إكرامًا للموتى. لم يكن هذا مؤلمًا لأحد، بمن فيهم زوجته، رجل عاجز وعجوز ارتاح وأراح.

غير أنّ علي لم يكن عاجزًا ولا كبيرًا حين مات. كان شابًا تمامًا. كان في حوالى الثلاثين من عمره. لا أحد يتكلّم حين تسأل كيف مات علي. هل كان موته غامضًا فلا أحد يعرف حقًا كيف مات؟ أم أنّ طريقة وفاته كانت مؤلمة فلا رغبة لأحد في الحديث عنها؟ أم أنّ هذا السكوت ليس

إلّا تواطؤًا بين الناس العاديين ضدّ «المكتومين» أو من هم دون مستوى العادية؟ وفي كلّ الأحوال لا أحد يهمّه أن يعرف، فعلي مكتوم ولا حق له على الدولة التي لن تضطرّ بوفاته أن تشطب اسمًا عن جداولها أو أن تحصر إرثًا أو تبحث عن وفاء ذمم ما. غير أنّ الظاهر من القصة أنّ علي توفي في عمر الشباب في منطقة بعيدة عن القرية وقريبة من النهر الصغير. وهناك كلام عن أنه مات مقتولًا. ويقال إنه شوهدت كدمات على جسمه. هل فارت قوى الشباب لديه في تلك اللحظة وخرج عن الحدود المرسومة عفويًا له والمكرّسة في وعيه كما هي مكرّسة في وعي أبناء القرية، وقاده كبرياء الشباب (هل كان قد بقي فيه شيء من الكبرياء؟) إلى التمرّد على القالب الذي تعوّد أهل القرية أن يروه فيه، فاصطدم بأقرانه ودفع حياته ثمنًا؟ أم هل استسهل أحد ما أن يمارس نزوعه الشرّير على شخص لا ظهر له، فقتله؟ ما من إجابة.

لا أدري هل سُمح لأمّه أن تراه قبل دفنه، وكيف استقبل عقلها العليل هذا الخبر، كيف بكت، ماذا قالت، كيف تصرّف الناس معها، وهل عادت مرة أخرى إلى المكان الذي شهد آخر لحظات وجود ابنها فوق سطح الأرض؟ لا إجابات ترسم مشهد رحيل شاب سَلَبَ منه مجتمعه كلّ قيمة، فقضى عمره التعيس يخدم مقابل طعامه وطعام أمه في فرن القرية. يخدم، هذا هو الفعل الذي ترتاح له آذان الناس العاديين حين يتحدّثون عن عمل الناس المكتومين والمُعدَمين والواقعين دون مستوى العادية. وأخال أنّ علي كان سعيدًا بعمله المضني في الفرن لمجرد أنه كان يعطيه بعض الاعتراف ممن حوله ويعطيه وسطًا يعيش فيه. وكان ينحاز علي إلى هذا الوسط الضعيف الثقافة والقِيَم ضد

أمه، فكان يشاركهم السخرية منها حين تأتي إلى الفرن للاطمئنان إليه ولأخذ الخبز. وكان يجد في هذا الوسط، على الرغم من أنه كان يحتقره ويعامله كخادم، مصدر تفوّق على أمه إضافة إلى مصدر التفوّق الآخر الذي يتفوّق فيه صغار السنّ على كبارهم عمومًا، وهو رصيد العمر. وأم علي كانت تجد في كونها معروفة الأب والأم وأنّ لها أخًا من أبيها يعمل معلّمًا للصفوف الابتدائية في القرية المجاورة، مصدر تفوّق على زوجها. بيد أنها مصادر تفوّق لا ترقى بأصحابها إلى مستوى العادية الذي يتمتّع به أهل القرية. ويُقال إنه لم يطل الزمن الفاصل بين وفاة علي ووفاة أمه التي خسرت قبل أن تخسر حياتها الرجلين اللذين كانا كلّ شيء في حياتها البائسة.

هكذا مرّ ثلاثة أشخاص على كفرية، كما تمرّ في سمائها غيمة بيضاء، تسحب ظلّها على الأرض وتتلاشى من دون أن تترك أثرًا. ثلاثة أشخاص يشكّلون أسرة، سكنوا بيتًا يُقال إنهم اشتروه من مالك كبير، ويقال إنّ هذا المالك سمح لهم بالإقامة في هذا البيت المهجور كنوع من الصدقة وبغرض حماية أراضيه الواسعة الواقعة حول البيت. أيًا تكن الحال، عاش هؤلاء الثلاثة في كفرية، أكلوا من خيرها وتنفّسوا هواءها وكانوا عناصر حيادية تجاه صراعات أهاليها، فاجتمع في بيتهم خبزٌ منّت به عليهم عائلات متخاصمة إلى حدّ القتال، غير أنّ أرغفة الخبز كانت ترقد في بيت هذه العائلة إلى جوار بعضها بسلام لا يشوبه خصام ولا ضغينة، وكذا حال البرغل والزيتون والتين اليابس وغيرها من مواد المونة.

لا تلومهم عائلة على دخولهم بيت عائلة أخرى مخاصمة لها. إنهم

ببساطة كالهواء الذي لا يميّز بين الناس. على أنني كنت أشعر أنهم أقرب إلى أهل الدولود بالنظر إلى قرب بيتهم من الدولود، وكنت أشعر أنّ وجودهم في الحارة الفوقانية أو في حارة الوسط غريب نوعًا ما. ربما ما تزال دروب كفرية تذكر خطواتهم، وربما تذكر أشجار كروم الوطى أصواتهم التي غالبًا ما تكون عالية وعصبية، وربما ما تزال عين خفية ما تحفظ صورهم البائسة، غير أنهم غابوا من دون أن يخلّفوا أيّ أثر. كانوا خفافًا حتى على ذاكرة أهل القرية. كما لو أنّ ذكراهم كانت ماء ضحلًا تحت شمس حارقة اسمها الزمن.

أبو كاملة

شبيهًا بنصر الأخرس وعائلته، كان «أبو كاملة» وعائلته. وجه الشبه هو أنهما عائلتان غريبتان عن القرية، وأنهما عائلتان لا تملكان شيئًا. وسوى ذلك لا يوجد أوجه شبه أخرى. أبو كاملة لم يكن أخرس، بل على العكس كان كثير الكلام وغالبًا ما كان كلامه تمهيدًا لمشكلة، مثل الفتيل الذي ينتهي إلى متفجّرة. بعد كلّ كلام لأبي كاملة كان أحد أولاد الدولود على موعد مع عقوبة ما من وليّ أمره، تراوح بين البهدلة والشتم وبين «القتل» بعصا من الرمّان. وأم كاملة لم تكن فقيرة العقل بل كانت امرأة ساخرة قليلة الكلام وتحاول أن تحدّ من متفجّرات زوجها، بيد أنها غالبًا ما تفشل أمام إصراره واستلابه التام لرغبته في أن يرى طفلًا يُعاقب.

عائلة أبي كاملة هي العائلة التي استعملها عمّي علي لكي تعتني بأراضيه وحيواناته وأسكنها في غرفة له في الدولود. كانت هذه الغرفة طينية بائسة لا تدخلها الشمس في أيّ وقت من النهار، وسوى الباب الخشبي العتيق لا توجد فيها فتحة أخرى ما خلا فتحة المدخنة فوق الموقد الكائن في الزاوية البعيدة عن الباب. وفوق هذا كانت هذه

الغرفة تحت مستوى دار بيتنا، فعليك أن تنزل أكثر من عشر درجات حجرية غير متّسقة وغير متساوية حتى تصل إلى بابها. ولكنّ أسوأ ما في الأمر أنها كانت تقع تمامًا قبالة الإسطبل الذي كنا نحوي فيه بقراتنا. أقل من ثلاثة أمتار كانت تفصل بين بابين خشبيين متشابهين قادرين فقط على مقاومة العين، غير أنهما يمتنعان عن مقاومة يد طفل إذا حاولت دفعهما، وذلك قبل أن يجتهد أبو كاملة ويزوّد بابه بقفل له مفتاح طويل.

يعيش وراء كلٍّ من هذين البابين نوع مختلف من الكائنات الحيّة، بقر وبشر. وكانت هاتان الغرفتان مصدرًا لنوعين من الأصوات: من الباب الجنوبي خوار بقرات جائعة وأصوات دجاجٍ مختلفة، ومن الباب الشمالي صراخ ألم أبي كاملة حين كانت القرحة تفتك بأحشائه ولا تجد زوجته من علاج له سوى تدفئة صفائح قمر الدين على نار موقد الحطب ولصقها على ظهره.

ربما كان سيبدو أكثر طبيعية تجاورُ البشر مع البقر لو كان هؤلاء البشر مالكين للبقرات. سيكون في ذلك تكرار «طبيعي» لتجاور الماشية مع مالكيها في بيت واحد. أما حين لا يكون الأمر كذلك، أي حين لا يكون للبشر المجاورين سلطة ملكية على الحيوانات المجاورة لهم، فإنّ العلاقة مع الحيوانات لا تكون علاقة ملكية بل علاقة جيرة تنزل بقيمة البشر نزولًا عموديًا إلى مستوى متدنّ. وكان هذا التجاور يثير في النفس ألمًا أخلاقيًا لا يخفّف منه سوى مقدار النفور الذي يولّده في النَفْس طبع أبي كاملة وسلوكه.

مع ذلك، ما تزال أصوات ألم أبي كاملة التي تتخلّلها صرخات زوجته الاحتجاجية: «ما الداعي إلى كلّ هذا الأنين والاستغاثات؟ ماذا بوسعي أن أفعل لك؟ واللّه، قصّرت عمري!» حاضرة في ذهني وتثير خجلي. لقد كان التجاور المكاني مع البقرات يخلق تجاورًا في المكانة أيضًا.

الشمس لا تعرف بيت أبي كاملة، فهي ترسم قوسها السماوي من دون أن تعثر على فتحة تطلّ منها إلى داخله، وباكرًا يختفي عنه ضوؤها ويتركه لعتمة دامسة يجاهد الفانوس لكي يخفّف منها. وللمساء ثقل على النَفْس ولاسيّما في الشتاء، فيصعد أبو كاملة وتلحقه زوجته للسهر في بيتنا. طيبة أهلي تغريهما فيما تصدّهما قسوة الآخرين واستخفافهم. يتوانى أبو كاملة عن فتح الباب، فتدفع أم كاملة الباب وتدخل ترافقها رائحة مميّزة تجمع رائحة احتراق الحطب إلى رائحة روث الحيوانات ورائحة جسد بشري كثير التعرّق وقليل الاستحمام، تلقي تحية المساء وهي تخلع الحذاء من رجلها، وقبل أن تسمع ردّ التحية تسرع إلى تحت بوري الصوبيا وتحشر نفسها هناك، ثمّ تسند ظهرها إلى الحائط، إنه المكان الأفضل للحصول على الدفء. وهو المكان الذي كنّا نتسابق إليه ويكون نصيب المحظوظ منا. غير أنّ أم كاملة تحتلّ المكان إن وجدته خاليًا أو تطلب ممن سبقها إليه أن يبتعد قائلة: «أوم... أوم... من محلّي» (فهي تقلب القاف همزة ثقيلة لعِلّة دائمة في نطقها) لكي تجلس مكانه، من دون أدنى شعور بالحرج. وحين كان يتهيّأ لأحدنا الدفاع عن حقّه في المكان كان يتلقّى التوبيخ من أبي ونظرات الرجاء من أمي. فتجلس أم كاملة في المكان وتلتمّ على نفسها كقطة عجوز. وإذا صادف أن كانت أمي في مكان أم كاملة المفضّل ذاك، فإنها سوف

تنهض من تلقاء نفسها لتدعوها إلى الجلوس محلّها. حينها سوف تتمنّع أم كاملة قليلًا قبل أن تستقرّ في المكان الدافئ.

نادرًا ما تشارك أم كاملة في أحاديث السهرة، وإن شاركت فبكلمات مقتضبة ولكنها مشاكسة أو ناقدة أو ساخرة. حين كنت أخلع البنطلون لكي ألبس البيجاما كنت أبتعد عنها وأعطيها ظهري فتقول مستخفّة: «بفكرك ما شايفين غيرو؟»، ويكون أبو كاملة أوّل الضاحكين.

أما أبو كاملة فكان يدخل بهدوء ويلقى التحيّة بثقة: «كيفكم بيت أبو نديم؟»، ويردف سؤاله هذا بسؤال دائم آخر يطرحه وهو يخلع حذاءه: «نمتوا؟»، لا يمنعه عن هذا السؤال رؤية كلّ العائلة مستيقظة أمامه. ثمّ يتفقّد الوجوه بابتسامة من يظنّ أنه محبوب ومرحّب به. ويبادر بمخاطبة زوجته كنوع من النقد الذاتي العائلي: «فورًا بتاخدي أحسن محلّ، كأنو محلّل ومطوّب ع إسمك»، منهيًا كلامه بضحكة المطمئنّ إلى رحابة صدر أهل البيت وإلى أنه سيسعد بقضاء سهرة محمية بأعراف الجيرة والضيافة. وبعد أسئلة وإجابات يومية مكرورة وبلا معنى عن الأحوال، ينتهي الكلام ويجلس من ثمّ أبو كاملة نصف مستلقٍ مسندًا ظهره إلى الحائط، ويضع رجلًا فوق رجل عارضًا للجميع أسفل قدمه، ثمّ يستأثر بجهاز الراديو فيضعه على محطّة البي بي سي التي غالبًا ما يكون المؤشّر موضوع عليها سلفًا، ويسترخي، ولا يلبث أن يغفو مصدرًا صوت شخير خفيف، مما يلفت انتباه أم كاملة التي تصيح به: «محمد! هل جئت هنا للنوم أم للسهر؟ إذا كنت تريد النوم ففراشك أولى بك». تقول ذلك وهي مقتنعة في ما يبدو أنّ تكوّرها الصامت تحت بوري الصوبيا هو التجسيد الأمثل لمعنى السهر. يفيق

محمد على كلام زوجته بوعي كامل ويقول من خلال ضحكته المعهودة التي تنمّ عن ثقة دائمة بإعجاب الآخرين به: «ألا تستطيعين السكوت؟ هل تظنّين أنني نائم؟»، ويكمل ضحكته بطريقة المنتصر ويستطلع وجوه الحاضرين بسعادة، ثمّ يعود إلى ما كان عليه.

غالبًا ما يكون مشهد السهرة على النحو التالي: أم كاملة متكوّرة على نفسها تحت بوري الصوبيا، أبو كاملة نصف مضجع إلى جانبه جهاز الراديو، أمي مشغولة برفوِ ثوبٍ ما، أبي يدخّن وهو مشغول بأوراق لا تنتهي تتصل بنضالاته النقابية والسياسية العقيمة، فيما ننشغل نحن الأولاد بكتابة الوظائف الدراسية وتغطية هذا المشهد الصامت بأصواتنا. بعد قليل تنهض أمي لإعداد الشاي، وحين تعود به تسمع التعليق نفسه من أم كاملة: «لماذا أتعبت نفسك، لم نأتِ لكي نشرب الشاي». تأخذ أم كاملة كوب الشاي ثمّ تتجه أمي صوب أبي كاملة الذي يتنحنح ويعدّل وضعيته ويتناول الكأس من دون أن يشعر، لمرة واحدة، بالحاجة إلى أن يقول «شكرًا». وقبل أن تنهي أمي توزيع الشاي تكون أم كاملة قد أتت على كوبها وطلبت من أمي أن تعود إليها لكي تضع الكوب الفارغة في الصينية قائلة وهي تجيب عن سؤال مفترض ولكنه واقعي جدًا: «أنا حلقي من جلاتين لا يتأثّر بالحرارة».

وسوف أعترف هنا بأنني حين كنت أشقى في إعداد وظائفي وحفظ دروسي ولاسيّما دروس الاجتماعيات ورسم الخرائط، كنت أنظر بعين الحسد لهؤلاء الناس الذين لا ينتظرهم في الغد معلّم يصحّح الوظائف ويمتحن المعلومات. وكثيرًا ما كان يشطح بي الخيال إلى مرحلة مقبلة من حياتي لا وظائف فيها ولا تسميع، فأرى أنّ أبا كاملة

وزوجته قد بلغا هذه المرحلة التي أتطلّع إليها. غير أنّ عقلي كان يردّني إلى حقيقة بؤسهما فتنعكس آليتي النفسية بالكامل وتتحوّل إلى الاستعداد لمزيد من العمل هربًا من مصيرٍ كمصيرهما.

لكنّ أسوأ المشاعر كانت تستعمرني حين تضع أمي طعام العشاء بوجود عائلة أبي كاملة. الآن سوف تدعوهم أمي للعشاء وسوف يمتنعان بالإجابة المعتادة «سبقناكم»، فتصرّ عليهما وينضم أبي إلى أمي مشدّدًا على الدعوة، وشيئًا فشيئًا تلين ممانعة أبي كاملة وأشعر أن النكبة آتية لا محالة. وأبو كاملة كعادته يغطّي خجله أو حرجه بكلام هجومي فيقول مثلًا: «ألا ترون أنّ الأبو حنّ (هكذا كان يلقّبني) لا يريدنا أن نأكل؟»، فتتجه الأنظار إليّ وتفشل لسوء الحظ في معرفة حقيقة ما بداخلي، ويضحكون لما يعتبرونه تشكيكًا في ما لا شك فيه. لكن أمي تعرف الحقيقة، لأنني كثيرًا ما هدّدتُها بالامتناع عن العشاء إن هي أصرّت على دعوتهما ولكن من دون جدوى. سوف يوافق أبو كاملة على الانضمام إلينا على العشاء وسيقنع زوجته بالانضمام: «تعالي، إذا أكلت لقمة فلن يصيبك ضرر». توافق أم كاملة هي الأخرى ويحتلّ الاثنان مكانهما حول الطبق بطريقة من يجلس لإرضائنا لا أكثر. أجلس، يدفعني الجوع من جهة والخوف من التأنيب من جهة أخرى. تستنفر كلّ حواسي وأصبح كتلة من الرجاء بأن لا يسعل أحدهما فوق الطبق، أما الرذاذ الصادر عن الكلام، فيمكنني إهماله تحت ضغط الجوع. نبدأ الطعام ويبدأ بداخلي رقيب صارم يضع إشارة حمراء لا مرئية على كلّ صحن امتدّت إليه يد أحدهما. فأنسحب أنا إلى الصحون الأخرى. وقت قصير وتغطّي الإشارة الحمراء كلّ الصحون. فأتوقّف عن الأكل وكأنني شبعت.

في النهارات الصيفية الطويلة، كان ثقل الوقت والضجر يدفع أم كاملة في مرّات كثيرة، للصعود إلى بيتنا طلبًا للإيناس وطرد الوحشة. وحين كانت تجد أنّ ثقل الظهيرة قد أغرى أهل البيت بالقيلولة النهارية وناموا، فإنها تدخل الغرفة بلا صوت، وتبحث لها عن مكان مناسب تستلقي فيه، وتنام هي الأخرى.

على أنّ هذا الثنائي كان رفيقًا مسلّيًا لنا في صيفنا السليب حين كنا نُكلَّف برعي البقرات بدلًا من التمتع بالحرّية الصيفية عقب إغلاق المدارس. أن يشاركك وقتك في الرعي، الذي هو في العادة صنعة الأولاد، رجل كبير أو امرأة كبيرة يعني أن يصبح الوقت أقلّ ثقلًا ولزوجة. كما يعني أن تكتسب مهارات وتطلّع على جوانب جديدة، أن تتعلّم في مدرسة لا بناء لها ولا نظام ولا مناهج. الرعي، هذه المهمّة التي كانت تكبّلنا بأغلال لا مرئية، وتسكب حمضها على حلاوة أعمارنا الغضّة، كانت مجالًا للنمو. كانت أيدٍ عدّة تضع لمساتها العشوائية على صلصال شخصياتنا الطري. يعهدون إليك أن تهتم بما تملكه العائلة من بقرات (بين بقرة وثلاث بقرات)، أن تسرّحها وتحرسها بينما هي تأكل من أعشاب الأرض وهشيمه وأن تمنعها من أن تقضم الشجيرات المثمرة، أو أن تدوس الأرض المزروعة، أو أن «تضرب» في أرض لشخص لا يسمح بأن ترعى أبقار غيره في أرضه، حتى ولو كانت خالية من الزرع والشجر. الرعي مسؤولية وليس فقط تقييد حرية، والخلل في المسؤولية يمكن أن يعود على الراعي بعقوبات. «كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته!».

البقرة يجب أن ترعى جيدًا وتشبع وأن لا تتسبّب بأضرار في الأرزاق، هذان هما حدّا المسؤولية. البطن الضامر للبقرة يمكن أن

يعرّضك لمسؤولية. «هل كنت ترعاها على الصخر؟»، كما أن شكوى أحد المزارعين يمكن أن تعرّضك لمسؤولية. «أين كنت حين «ضربتْ» البقرة في رزق فلان؟»، ولكن مع الوقت تنمو في داخلك بذرة العناية بالبقرة، تنمو هذه البذرة وتسبق في تطوّرها عمرك. يتسلّل إليك بفعل المرافقة والمراقبة الإلزاميتين تذوّق جمالية البقرة على صغر سنّك. كائن جميل ويزداد جماله بتأثير رزانته وهدوئه. عينان واسعتان تكتسبان سحرًا خاصًا حين يغلب عليهما التأمّل في أثناء الاجترار، حتى أنك تلاحظ في بعض الأحيان كيف تتدحرج الدموع من عيني البقرة وكأنها تبكي بصمت على خاطر ما أو على حياة سابقة كما يعتقد الأهالي في الريف.

يُحكى مثلًا أنّ أبي اشترى ذات يوم بقرة، وبعد أيام من شرائه لها جاءت عمّتي عزيزة إليه ورجته أن يعتني جيدًا بهذه البقرة وأن يطعمها كفايتها، كان هذا الطلب غريبًا، فلماذا تهتم عمّتي بهذه البقرة دون سواها؟ وما معنى أن تطلب من صاحب بقرة أن يطعمها كفايتها طالما أنّ من مصلحته أن يطعمها ما يستطيع ليجني منها أكثر ما يمكن من الحليب؟ غير أنّ حيرة أبي بلغت الذروة حين طلبت عمّتي منه، أيضًا، أن يشعل لهذه البقرة فانوسًا تستضيء به خلال الليل. وقد تبيّن أنّ وراء الأمر حلمًا حلمت به عمّتي، حيث جاءتها هذه البقرة في المنام، كما قالت عمّتي، ورجتها أن تطلب من أخيها ما طلبته. وعمّتي هذه التي جُبلت من خيرٍ صاف لا يخالطه شرّ، وكانت مثالًا لا يُضاهى للطيبة والأثرة، أبلغت الرسالة إلى أخيها وقامت بدورها بجلب ما يتوافر لها من طعام (بقايا غداء الشغّيلة في مقلع الأسفلت حيث كانت تعمل)

إلى تلك البقرة. ومن جهته، احترم أبي، الذي لا يقلّ طيبة وخيرًا عن أخته، رغبات البقرة الناطقة في منام العمّة وراح يشعل لها كلّ يوم فانوسًا صغيرًا في الإسطبل لأنها غير متعوّدة على النوم في العتم كما أفصحت لعمّتي. وبهذا أُلغي أحد الفوارق القليلة بين بيت أبي كاملة وبيت البقرات المقابل.

وقد ردّت البقرة المدلّلة الجميل. في إحدى ليالي الخريف خدم فانوس البقرة المدلّلة غرضًا آخر سوى كونه أنيسها ومبدّد عتمة لياليها. في تلك الليلة بدا الفانوس وكأنه هبة من اللّه للحرامي الذي جاء يسرق البقرة، فقد هداه الفانوس إلى الوتد بسهولة واستطاع على ضوئه فكّ الحبل بيسر. لكنّ الحرامي لم يكن ينتظر بعد كلّ هذا اليسر أن يفشل في سرقة البقرة التي بدت له، كأنها لقمة سهلة. فما أن سار بها مسافة عن الإسطبل حتى حرنت البقرة وكأنها أدركت فجأة أنّ في سيرها مع هذا الرجل خيانة لصاحبها الذي أنار لياليها. وصارعت طويلًا لكي تعود إلى بيتها، صارعت بقوّة أجبرت الحرامي على أن يتركها خوفًا من الفضيحة. عادت البقرة إلى بيتها واستراحت فيه كما كانت قبل دخول الحرامي. وما كان أبي ليعرف أنّ البقرة تعرّضت للسرقة لولا أن رأى في الصباح أنّ الحبل محلول بالكامل عن الوتد. وحين تابع أبي الأثر الذي تركه الحبل على الأرض في طريق عودة البقرة المدلّلة إلى بيتها، وصل إلى المنطقة التي يحمل ترابها آثار صراع البقرة مع اللصّ لكي تعود إلى بيتها المضاء. وهكذا ردّت تلك البقرة الجميل لأبي، وأنقذت عائلتنا من خسارة فادحة، لا تقارن معها خسارة قليل من الوقود للفانوس كلّ ليلة.

تحزن، حين تمرض بقرتك وتكفّ عن الأكل والاجترار. وبالمقابل،

تفرح حين تجدها معافاة تلتهم العشب بشهية، تجد جمالًا في طريقة التهامها الحشائش. تبحث عن أماكن غنية بالعشب لكي تطعمها، تراقبها وتعرف أي الأعشاب تحبّ وأيّها تكره، وتستمتع بانغماسها في قضم حشائش المرج وهي تهش الذباب عن جسمها مطمئنّة بهزّ الجلد أو بتحريك الذيل الطويل. تنمو مشاعرك وأنت طفل لتحتضن حاجيات كائن آخر ولتشعر بجماله، وهو ليس حيوانًا منزليًا للتسلية، بل حيوان منتج، يأسر حرّيتك ويحمّلك مسؤوليات، ولكنك تحبّه مع ذلك. حتى اليوم، حين أمرّ بمرج من الحشائش أفرز بعقلي بعفوية الأعشاب التي لا تحبّها البقرة عن تلك التي تحبّها، وأتمنّى أن أرى بقرة تستمتع بالتهامها.

إلى هذا يدرّبك الرعي على الصبر في وقت مبكر من عمرك. فأنت تضطرّ أحيانًا إلى أن تكون وحيدًا مع «رعاياك». عندها لا مجال أمامك إلّا الصبر وابتكار آليات للتغلّب على الوقت. ووقت الرعي ليس وقتًا صرفًا، بل وقت متوتّر ومثقَل بمسؤولية المبدأ الخالد للرعي: أن تطعم حيواناتك من دون أن تتسبّب بضرر في أرزاق الناس. وفي وقت لاحق سيكون سلاح الصبر درعي الأهم في مقاومة بحر الزمن المتلاطم الذي رماني فيه السجن.

نهارات الرعي بحضور أبي كاملة كانت أخفّ على النفس من غيرها. الكبير يسيطر على الوقت، الحياة في داخله مستقرّة على خلافها عند الولد الذي تفور الحياة بداخله ولا تستقرّ على حال فتراه لا يهدأ. يجلس أبو كاملة في ظلّ شجرة ويشرع بصناعة مروحة من أغصان العيصلان الجافة الخفيفة مستخدمًا سكّينه الحادة ونجلس نحن نراقب عمله بفضول وترقّب. وفي أحيان أخرى يصنع مدفعًا من أغصان الدفلى

أو زمامير من القصب أو من سيقان الحنطة الخضراء. دائمًا يكمن السرّ في السكّين الحادة وفي الصبر.

كان حمل سكّين الجيب أمرًا شائعًا. سكّينٌ يُطوى نصلها على قبضتها. تكون القبضة من خشب عادة ولكن حين تكون من عظم فهذا يعني أن السكّين مميّزة. هكذا يكون أبو كاملة عونًا لنا على قتل الوقت. لكنّ الإثارة الأكبر كانت في التدخين. أبو كاملة يدخّن التبغ العربي الذي يسمّيه «التتن»، يلفّ سيجارته بالهدوء نفسه الذي يصنع فيه مراوح العيصلان وغيرها من الاختراعات. وحين كان يمضي بنا الطموح بعيدًا ونطلب منه أن يعطينا كيس تبغه لكي نجرّب التدخين مثله، كان أبو كاملة يدخل في مسار تحوّله المعهود إلى رجل شرّير. يبدأ التحوّل بتذكيرنا بموقف الأهل من التدخين، ثمّ بتأنيبنا وتهديدنا بنقل الخبر إلى الأهل. وتكون هذه هي الخطوة الأولى من التحوّل الشرّير له. وبعد قليل يُبدي لنا تفهّمه لرغبتنا واستعداده للمساعدة. يطلب منا أن نحضر له العنب بينما هو يلفّ لنا السجائر. وحين نعود من غزوتنا العنبية يكون قد جهّز لكلّ منا سيجارة ولكن من روث الحمير الجاف. وتكتمل حلقة تحوّله الشرّير هذا في المساء حين ينقل لأهالينا ما قمنا به من تدخين وسرقة العنب وإهمال البقرات... إلى آخره، لكي يرضي ميله الغالب لرؤية أطفال يُعاقبون ويُبهدَلون.

ولأنه لا يمكن أن تفصل الجانب العادي لهذا الرجل عن جانبه الشرّير، فقد انتقم هؤلاء الأطفال منه ككلّ، بطريقتهم الفظيعة. ففي يوم صيفي دخلوا إلى بيته بينما كان مع زوجته خارج البيت، ونهبوا ما كان يخزّنه من لوز وجوز، بعد أن عطّروا البيت بمنتجات أحشائهم السائلة

واللينة. منهم من فَرَشَ إنتاجه على أكبر مساحة ممكنة من أرض البيت، ومنهم من اختار أن يفرش منتَجه على الجدران، ومنهم من احترم الشكل الذي جاء عليه منتَجه فأبقاه كما جاء. وبعد خروجهم من البيت عاد جمال وكسر البيضات التي كانت في صحن القش (الجمام)، لكي يضيف لونًا جديدًا إلى كوكتيل الروائح الذي سبق لهم إعداده. في المساء كان أبو كاملة يغلي أمام الأهالي بشكواه الكئيبة إلى حدٍّ يدفع إلى الضحك. راح يتكلّم بطريقته المميّزة في تقطيع الكلمات كما لو أنّ حنجرته آلة بمسنّنات، وهو يشفّ عن شعور عارم بالهزيمة على الرغم من نبرة الغضب والانفعال.

أما حين كانت ترافقنا أم كاملة في الرعي، فإنّ حدود التسلية تضيق كثيرًا وتكاد تقتصر على تأثير برودتها وهدوئها التام علينا. يمكن لأم كاملة أن تقضي كلّ وقت الرعي وهي تلهو بقشة قمح. وطالما أثار ذلك عجبي، فتراها تودع جوف قشة القمح بعضًا من لعابها ثمّ تنفخ فيها حتى يظهر لعابها على الطرف الآخر من القشة على شكل فقاعات، أو تضع قشة قمح بين راحتي كفّيها وتفركها جيئة وذهابًا بطريقة من يفرك راحتيه من البرد ولكن ببطء. تفعل ذلك إلى ما لا نهاية وهي تنظر إلى حيواناتها التي ترعى أمام عينيها.

«الضجر يشكّل أساس الحياة، الضجر هو الذي اخترع الألعاب والتسالي والروايات والحبّ»، هكذا يقول فيلسوف إسباني اسمه ميغيل دو أونامونو. كان ضجرنا يبتكر الألعاب. في أيام الصيف الطويلة كنا نتسلّى بألعاب ورثناها من الجيل السابق. هناك ألعاب تستهلك فوران الطاقة فينا، كلعبة «الصنم» مثلًا. تقع القرعة على

أحدنا ويصبح عليه أن يلمس أحدًا منّا لكي يتحرّر مما أوقعته فيه القرعة. إذا لمس أحدًا منّا فإنه يتحوّل إلى لاعب عادي ويصبح على الملموس أن يركض وراء الجميع لكي يلمس أحدًا ويتحرّر من مهمّته المتعبة، وهكذا. يركض أحدنا هربًا من اللمس، وحين يوشك أن يذهب ضحية اللمس، يحق له أن يتوقف ويصيح «صنم»، عندها سوف يتحوّل إلى صنم لا يسقطه اللمس. ولكنه لا يستطيع بعد ذلك أن يتحرّر من حالته الصنميّة ما لم يلمسه لاعب حرّ آخر، وقد يقع هذا اللاعب المحرِّر ضحية اللمس في محاولته تحرير صديقه، وتنتقل المهمة إليه في أن يركض وراء الجميع للمس أحدهم. وهناك ألعاب نقلّد فيها الحروب فننقسم إلى فريقين بأسلحة متخيَّلة، ونحاول اقتحام مناطق بعضنا، ويسقط قتيلًا منّا من يراه العدو قبل تجاوزه خط الجبهة، ويؤكّد له رؤيته بعلامات ثابتة. ولكنّ أم كاملة أرشدتنا مرّة، وهي المرّة الأولى والأخيرة التي ترشدنا فيها، إلى لعبة لا تستهلك الطاقة الجسدية بل تستوجب كثيرًا من الانتباه والدقّة. علينا أن نحضر كمية جيدة من التراب الناعم والنظيف، ونجعله على شكل تلّة مخروطية، ونحضر من ثمّ عددًا من بعرات خروف ناشفة (كرات سود صغيرة بحجم حبّة الحمّص) ونخفيها داخل التلّة المخروطية. اللعب يكون بأن يحاول الشخص استخراج أكبر عدد من البعرات بالتنقيب عنها بعود صغير على أن يكشفها واحدة واحدة، وإذا ظهرت أكثر من بعرة في الوقت نفسه، فإنّ اللاعب يخسر ويتيح لغيره المحاولة محتفظًا بما استخرج من بعرات. الفائز هو من يجمع أكبر عدد. لا أدري من أين أتت أم كاملة بهذه اللعبة الهادئة التي

تبدو مثل تدريب للتنقيب عن الآثار. لكنها كانت مشوّقة لنا وتسلّينا وتقتل «الضجر» الذي دفع إلى ابتكارها.

لا تتكلّم أم كاملة إذا لم تكلّمها. وإذا تكلّمت فباختصار وتهكّم. ولا تبحث عن ظلٍ تلتجئ إليه من شمس الصيف الحارقة، فهي تجلس طوال الوقت في عين الشمس وتقول «أنا لا أهرب من الشمس، أنا ابنة الشمس». لقد كانت أكثر طيبة من زوجها وأكثر شعورًا بالآخرين، ما خلا موضوع الجلوس تحت بوري الصوبيا في الليالي الباردة، هنا تنتهي حرية الآخرين! عبثًا نطلب منها أن تحكي لنا حكاية كما يحكي الكبار للصغار. وعبثًا نأمل منها أن تشاركنا بلعبة. أما إذا طلب منها أحدنا أن تتحمّل مسؤولية بقراته لأنه جائع ويريد أن يذهب إلى البيت ليأكل فإنها كانت تستجيب على غير اقتناع بالسبب، في ما يبدو. كانت أم كاملة متشكّكة وغير معجبة بجيلنا الذي يميل إلى اللهو. غير أنّ كمال كان محرومًا من هذا الامتياز لأنه «أزعر» كما كانت تقول وتكرّر.

امرأة نحيلة بوجنتين بارزتين ومحجرين واسعين وأنف دقيق وذقن متقدّمة وشفتين رقيقتين تحدّدان فمًا واسعًا وتكشفان حين تتباعدان عن أسنان قليلة طويلة كانت تجهد لإخفائها بوضع يدها أمام فمها حين تضحك أو تتكلّم. وكانت بشعرها الرمادي البادي من تحت إيشارب عتيق ومتّسخ دائمًا، تشبه الصورة النموذجية للعجوز في خيالي.

وإذا كان أبو كاملة يعتبر أنّ واقعه الذليل البائس يمكن أن يختفي ما إن يتغاضى عنه، ويتصرّف بالتالي بما لا ينسجم مع مكانته البائسة،

فإنّ أم كاملة كانت تدرك الذل الذي تحياه وتعرف أنه قَدَر لا تملك سُبُل الفكاك منه.

أكل أبو كاملة عمره ومات، وسبقته زوجته إلى هذا المصير المحتوم، لكنّ ابنتهما ذات الشعر الأحمر الأجعد والتي كانت متزوّجة حين وفد والداها إلى قريتنا، فقد ماتت كمدًا وحزنًا على ابنها الأصغر الذي كان في خدمته الإلزامية في الجيش حين دخلت البلاد في دوامة عنف أعمى، وكلّ ما عاد منه إليها بعد ذلك، مثل كثير من الأمهات غيرها، اسم تسبقه كلمة «شهيد».

القراءة السرّية

في مساءٍ صيفي، قبل أن تترك الشمس قريتنا لظلام الليل، كنت قد انتهيت من حفر جورة صغيرة في أرضنا بين أشجار التفاح، حفرة كافية لاحتواء كيس من النايلون يحتوي على بضعة كتب صغيرة أو بضعة كرّاسات، كنت قد حصلت عليها بعد أن واظبت على طلبها من ابن عمي الذي أحضرها لي بسرّية تامة مشدّدًا على خطورة افتضاح أمرها. إنها الكرّاسات السرّية للتنظيم السياسي المحظور (رابطة العمل الشيوعي في سوريا) الذي عرفت أنّ أخي المفضّل وابن عمّي المتحمّس هذا وابن عمّتي الشاعر والرسّام وصديقهم جهاد الشديد الثقة بما يقول وآخرون غيرهم، يكرّسون ذاتهم له.

كان شيئًا مؤثّرًا وجذابًا أن تجد مجموعة من الشباب المتميّزين يعملون لغاية عامة، ويكرّسون حياتهم ويغامرون بأنفسهم ليس لأغراض شخصية أو خاصة، بل لأهداف تشمل البلاد كلها، وتُعنى بأمر الناس أجمعين. شدّني الأمر للغاية ودفعني لمعرفة هذا الهدف وتلك الغاية بكل ما أستطيع من فهم.

واريتُ الكيسَ الخطيرَ الثرى، وعدت إلى البيت وأنا أشعر بنشوة

مَنْ حصل على سرّ عظيم، ورحت أنتظر الغد لكي أبدأ في مسيرة معرفة السرّ. وفي ظهيرة اليوم التالي، حين يشتدّ الحرّ ويأوي القرويون إلى بيوتهم وتهمد الحركة وتغدو قريتنا في ما يشبه ليلًا مضيئًا، كنت أمضي إلى كنزي وأخرج أحد كرّاسات ثمّ ألجأ إلى كوخ صغير في البستان وأنغمس في القراءة. كنت أقرأ ما كنت أحسبه «الحقيقة» من دون زيادة أو نقصان، تمامًا كما يقرأ مؤمن القرآن. خلال فترة وجيزة كنت قد قرأت كلّ ما في الكيس من كرّاسات ومنشورات، وأعدتُها إلى مصدرها بسرّية تامة.

كانت مجموعة من الكتب من القَطْع الصغير، ذات أغلفة حمراء، مع اثنين أو ثلاثة من المنشورات البدائية في الطباعة والإخراج. كانت تتناول موضوعات لم أطّلع من قبل على أيّ رأي فيها، اللّهم سوى الآراء المتداولة والتي هي غالبًا الآراء الرسمية التي نسمعها في الإعلام أو في المدرسة.

هنا أناس يربطون القول بالفعل. أناس يتحمّلون تبعات أقوالهم فلا يتركون مجالًا للشك في صدقهم. منهم من هو في السجن ومنهم من هو ملاحق من أجهزة الأمن ومنهم من يحمي نفسه بالسرّية. كلامهم لا يعبأ بخوفٍ ولا بمجاملة. ليس ثمّة ما يجعلهم يقولون ما لا يقتنعون به بالفعل طالما أنهم يتحمّلون هذه التبعات. وتحمّلهم لهذه التبعات القاسية يعطي لقناعاتهم وزنًا أكبر من وزنها الواقعي ويُكسبها سحرًا خاصًا. وأنا أخذني هذا السحر وامتلك فؤادي.

انتهيت من قراءة هذه الكرّاسات التي زوّدتني بتحليلات لوقائع

لا أعرفها من أيّ مصدر آخر، كما زوّدتني بنقد لأفكار لا أعرفها سوى منها، وعرّفتني على أسماء لم أعرفها من قبل، فمَنْ مدحتْه أحببته ومن هاجمتْه كرهته. وكنت شديد الاقتناع بما تذهب إليه وشديد الرفض لما ترفضه. كانت تسحرني التعابير والتشبيهات واللغة القاطعة والسخرية المبثوثة في غير مكانٍ من هذه الكرّاسات. كنت أقرأ هذه الكرّاسات لكي أُفتن بها.

كنت مثل عجينة طرية تعبث بي هذه الكرّاسات، تترك عليّ بصماتها وآثار أصابعها، حتى إذا جفّت العجينة باتت هذه الآثار والبصمات عصيّة على التغيير. كنت عجينة تتوق ليدٍ تصوغها وتعطيها شكلًا. كنت عجينة طيّعة لليد المتمرّدة، غير أنني كنت ضعيف الاستجابة لليد الصاغرة المطيعة. مطيع للتمرّد ومتمرّد على الطاعة، هكذا كنت. أنفر مما ينساق إليه عموم الناس وانجذب إلى القلّة المفارقة. كانت تلك طبيعة لا يد لي فيها.

أذكر جيدًا أنني في الصف الأول الابتدائي، حين كنا نجتمع صباحًا أمام مدرستنا قبل الدخول إلى الصفوف، كان يقف مدير المدرسة في أعلى الدرج ويردّد الشعار البعثي الشهير: «أمة عربية واحدة»، وكان على التلاميذ أن يردّدوا وراءه: «ذات رسالة خالدة» ثمّ يصيح المدير: «أهدافنا»، فيجيب التلاميذ: «وحدة حرّية اشتراكية»، كنت أستهجن ذلك وأستهجن أكثر تكرار شعار «أهدافنا» ثلاث مرّات. لم يطاوعني لساني مرّة واحدة على المشاركة في جوقة الأصوات الطفولية وهي تردّد هذا الشعار. ذلك هو الطبع الذي رسم مسيرة حياتي اللاحقة.

تفوّقي في المدرسة عزّز شعوري بصواب نفوري من هذا الميل القطيعي. كان لدي ميل قوي للإصغاء إلى المعلّم وكنت أستوعب كلامه بسرعة قياسًا إلى باقي الصفّ، ويجلب لي هذا المديح والثناء، الأمر الذي كان يعطيني شعورًا بالتميّز وهذا بدوره جعل ثقتي بسلوكي تجاه «ترديد الشعار» أقوى. لم يكن حينها قد نما لدى السلطة البعثية الميل إلى تأطير الأطفال في «منظّمة طلائع البعث» وإحاطة الطفل بجو يجعله على قناعة أنّ الحياة معلّبة في صندوقة بعثية عليهم أن يعيشوا فيها أو أن يختنقوا خارجها.

الأصابع الرسمية في المدرسة لم يكن لها أيّ نصيب في ترك بصماتها على عجينتي التي كانت على موعد مع أصابع متمرّدة وَسَمَتْ تاريخي اللاحق بالنفور من كلّ ما هو رسمي. لم يكن السرّ في الأصابع المتمرّدة بل في عجينتي الخاصة. لم يكن السرّ في أنّ الأصابع المتمرّدة أكثر مهارة بل في أنّ عجينتي أكثر عشقًا للتمرّد العام. فقد كنت أعجب ممن لا يُعجب بنشاط وكتابات الجماعة المتمرّدة، تلك التي فُتنت بها. مثلًا، كان أحد أخوتي شديد البرود تجاه التمرّد السياسي، ويميل إلى كسب ودّ المسيطرين وتحقيق مكاسب وتأمين شروط حياة مريحة له. لم تسحره الكلمات المتمرّدة ولا المواقف الجريئة. كان يبدو له التمرّد السياسي غباء و«مناطحة صخر». بعد حين طويل من الزمن سألت أخي هذا: «ما قولك لو استطاعت هذه الجماعة الوصول إلى السلطة؟». قال لي: «حين تصل إلى السلطة سوف تلقى منّي كلّ التقدير».

بعد فترة غير طويلة من قصة الكرّاسات الحمر الخطيرة، حدث الشيء الذي دفعني أكثر باتجاه تلك الجماعة وزاد من جاذبيتها. فقد

حضرتْ دورية من الأمن السياسي إلى بيتنا في فجر أحد الأيام وسألت عن أخي بإلحاح. لم يكن أخي في البيت، كان في المدينة حيث يدرس. عادت الدورية خائبة بعد أن فتّش أفرادها البيت بعدوانية. وقبل أن تغادر الدورية أخرج رئيسها ورقة، وطلب إلى أبي أن يوقّع له على تعهّد بأن يسلّم أخي إلى الأمن إذا ما جاء إلى البيت.

كان وقع الحدث ثقيلًا للغاية على الجميع. الكآبة استولت على أمي وأبي وزوجة أخي. شعرتُ كما لو أنّ هذه الدورية، بزيارتها الفجرية اللئيمة هذه، قد اغتالت أخي غيابيًا. لم يعد بمقدور أخي أن يأتي إلى بيتنا إذن، أنا الذي كنت أنتظر قدومه كلّ أسبوع كأنه عيد. هو من كان يهتم بميلي للقراءة، فيُحضر لي مجلة «أسامة» ويحضر لي قصصًا للأطفال واليافعين، ويعلّمنا ألعابًا جديدة. والأهمّ أنه كان يصغي إليّ وأنا أسرد عليه مجريات الأسبوع المنصرم، أحدّثه عن كلّ ما جرى معي وما شاهدته في المدرسة وعلى طريق المدرسة وفي البيت وعن انطباعاتي عمّا أرى وطريقتي في فهم ما يجري. كان بي رغبة كبيرة لأن أحكي له كلّ شيء، وكان يصغي ويشعرني بأهميتي. اليوم صار أخي محرومًا من القدوم إلى بيتنا. اليوم صار أخي «مطاردًا» أو «متخفيًا» أو «ملاحقًا» أو «مطلوبًا»... صفات تترك في النَفْس طعمًا مرًّا وثقيلًا.

كان شعوري بالخسارة فادحًا، وبالحزن. ومع ذلك صار لأخي صورة مضخّمة في نفسي. ها هي الدولة بذاتها تخشاه وترسل الدوريات لاعتقاله. ليس لأنه يسرق أو يقتل أو يعتدي على الناس، فقد كان لطيفًا وصادقًا حتى صار يلقّبه الأقرباء باسم «أشرف». يريدون اعتقاله إذن لأنه يشكل تهديدًا للدولة. كيف يهدّد أخي الدولة وهو لا يحمل

سلاحًا ولا يملك مالًا؟ إنه إذن يهدّد الدولة بفكره، إنّ له رأسًا يحمل من الأفكار ما يهدّد الدولة. والدولة التي تخشى الأفكار وتسعى إلى تحاشيها بالاعتقال هي دولة سيئة وتستحق التغيير. هكذا كنت أفكّر وأنا في لجّة حزني وصدمتي.

مرّت بضعة شهور من دون أن نعلم شيئًا عن أخي. لم يكن لنا سابق عهد بمثل هذه التجربة. كانت الملاحقة السياسية شيئًا جديدًا على بيئتنا. كنا نعلم أنّ الشرطة تلاحق من يعتدي على أملاك الغير أو حياتهم وحقوقهم، أما أن تلاحق شخصًا لسبب سياسي، فقد كان أمرًا جديدًا علينا.

في إحدى الليالي الصيفية سقطت حصاة على السطح الذي كنا نقضي عليه سهراتنا. كان الليل يغمر القرية ولم نعرف ما هو مصدر الحصاة. اعتقدنا أنها حصاة طائشة. ولكن بعد قليل سقطت حصاة ثانية. فخرج أبي يبحث عن أمر هذه الحصى، وتأخّر في عودته قليلًا. كنت في الخامسة عشرة من عمري وكنت أخاف الليل فلم أجرؤ على اللحاق بأبي لأعرف سرّ تأخّره. بعد حين جاء أبي ولاحظت عليه بعض الارتباك. قال إنه لم يرَ شيئًا، وجلس في مكانه وحاول أن يكون طبيعيًا. شعرت أنه يخفي شيئًا ما. أبي ضعيف في الإخفاء ولا يجيد التكتّم عمومًا، يكاد يقول «إنني أخفي شيئًا». بعد قليل انحنى صوب أمي وهمس شيئًا في أذنها. أضاء وجه أمي ولمعت عيناها ووضعت قطعة القماش التي كانت تخيطها من يدها بجانبها ونهضت من دون أن تقول أي كلمة، ثمّ راحت باتجاه الغرفة الطرفانية التي نستقبل فيها الضيوف في العادة. عادت بعد قليل واصطحبت زوجة أخي إلى الغرفة نفسها.

كان أخي هو من رمى الحصى علينا وكان أبي قد أخفى أنه رآه حين خرج يستطلع مصدر تلك الحصى.

بعد أن تسرّب الخبر بطريقة الارتشاح البطيء إلى كلّ أفراد الأسرة، انقسمنا إلى مجموعتين واحدة تطفئ شوقها لأخي وتهتم به وأخرى تنشغل في التمويه بمواصلة السهر على السطح كأنّ شيئًا لم يحدث.

نام أخي ليلته تلك في البيت، ولكنّ الذي لم ينم هو أبي. فقد قضى الليل يقوم بأعمال الدورية حول المنزل خوفًا من مجيء دورية الأمن ومداهمتها البيت.

بعد ذلك، كرّر أخي زياراته إلى البيت. الزيارات التي كان يدفع أبي ضريبتها دائمًا بالقلق والسهر والحراسة والترقّب، ولكنها كانت زيارات حارّة ومليئة بالإثارة بالنسبة إليّ. يجلس أخي في الغرفة ولا يجرؤ على الخروج مخافة أن يراه أحد ويُبلغ عنه. هذا الشيء المخيف واللامرئي الذي يمنع أخي من العيش معنا، ويجعله يزورنا خلسة ويحرمه من الخروج خارج الغرفة، ويجعل أبي في حالة قلق دائم طالما هو في البيت، هذا الشيء ارتبط في ذهني بالدولة، وزاد في نفوري مما يرتبط بالدولة، وفي انجذابي إلى التمرّد عليها.

كنت أطيل النظر إلى أخي «المتخفّي» الذي دخل في صورة التخفّي وتأقلم معها خلال الشهور الماضية. يجلس في الغرفة ساعات كما لو أنه استأصل من داخله تلك الرغبة التي تدفع المرء للخروج من المكان المغلق حين يضيق المكان به، أو الأصحّ كأنه وطّد نفسه على المكوث الدائم في الغرفة من دون أن تضيق روحه بذلك. أنظر إليه

وتتوالد الأسئلة في ذهني. كيف يعيش حين يكون بعيدًا من البيت؟ أين ينام؟ وأين يعيش؟ ومع من؟ كيف يأكل؟ وكيف يتفادى الاعتقال؟ ثمّ ما الخطر الذي يشكّله على الدولة حتى تبحث عنه بهذا الإلحاح؟ كنت مقتنعًا أنّ أخي يحمل السلاح على الرغم من أنني لم أرَ معه أي سلاح، ولكن لا بدّ من أنّ لديه سلاحًا ما، فهل يمكن أن تخاف الدولة ممن لا يحمل السلاح؟ كانت أسئلة تتوالد وتزيد من هيبة الموضوع وإثارته.

بات أخي ورفاقه أسطورة صغيرة في رأسي. وبتّ أنتظر أن يتراكم مزيد من السنين على سجلّ عمري لكي أدخل في عداد البالغين، وأنضمّ إلى هؤلاء الشباب الذين يطمحون إلى تغيير العالم.

التغيُّر الكبير الذي طرأ بعد ذلك هو انتقالي لمتابعة الدراسة في اللاذقية. وهناك تذوّقت طعمًا مدينيًا أحببته للعمل السرّي. وتذوّقت، فوق ذلك، الطعم الذي كنت أتوق إليه وهو أن أشعر باهتمام من الجماعة التي كنت ممتلئًا بها إعجابًا. في مساء كلّ يوم كنت أنتظر أخي بجانب الملعب البلدي، فأراه آتيًا على دراجة هوائية وحين يصل، ينزل عن دراجته ويجرّها بيده لكي نستطيع المشي معًا. يسألني عن أخبار العائلة وأنا أطمئنّ عنه أيضًا. نمشي مسافة قصيرة ثمّ يودّعني ويمضي على دراجته.

كما كنت أستقبله بنظري ما إن يظهر على دراجته، كذلك كنت أشيّعه بنظري حتى يغيب. كان يبدو لي مختلفًا عن كلّ من حوله من الناس المنهمكين في شؤونهم اليومية الخاصة، فيما يعمل أخي لشأن

عام ويضحّي من أجله. بعد بضعة لقاءات صار وقت اللقاء أطول، وصار أخي يدخل معي إلى حديقة الملعب البلدي ونمضي معًا وقتًا يزيد عن الوقت اللازم للاطمئنان. حتى أنه في إحدى المرّات أحضر معه مضارب وطابة تنس ولعبنا معًا في الحديقة. بعد ذلك اقترح عليّ أن أتعلّم قيادة الدراجة الهوائية. وراح يساعدني على ركوبها والتوازن عليها في أرجاء الحديقة. كانت سعادتي كبيرة، ها أنا أسرق أخي من فم الدولة التي تريد ابتلاعه. ذلك يعطي للوقت طعمًا آخر، ويجعله محسوسًا كشيء ثمين. كأنّ الدولة سلبت حقّي بأخي وها أنا أستردّ خلسة شيئًا منه. ويزداد حقي المستردّ هذا كلّما زادت فترة استحواذي على أخي.

ذات يوم جاء أخي وكان في عجلة من أمره، دخل معي إلى الحديقة وترك معي الدراجة وذهب. قضيت الوقت وأنا أتدرب على التوازن فوق مقعد الدراجة تلك. نجحت في حفظ توازني على الدراجة وقتلت وقت انتظاره أجول عليها في أرجاء الحديقة. كانت تجربة ممتعة. كان وقتًا من الطيران والتغلب على عطالة الجسد. عجلتان تحملانك وتنقلانك بخفّة في أرجاء المكان كأنك فراشة. لم أشعر أن الوقت قد تأخّر، إلّا حين انتبهت إلى أنّ الحديقة باتت شبه خاليه من الناس. بدأ القلق يخالط سعادتي ويغلبها.

هل نسيَ أنني أنتظره؟ هل نسيَ دراجته؟ أم هل حدث له مكروه؟ هل اعتُقل مثلًا؟ غير أنّ إطلالته من بعيد أطفأت حالًا نيران أسئلتي. جاء أخي أخيرًا بخطى متعبة، وأخبرته بفرح أنني تعلّمت قيادة الدراجة. ودّعني باقتضاب وغاب.

كان ذلك اللقاء الأخير لي به قبل أن أسمع أنه اعتُقل. في اليوم الذي ترك لي دراجته وتأخّر كان قد تقرّر أن ينتقل إلى محافظة أخرى. كان يردّد حين نلتقي مقطعًا من أغنية لفيروز تقول: «أنا كلّ ما بشوفك كأني بشوفك لأوّل مرة، أنا كلّ ما تودّعنا كأنو تودّعنا لآخر مرة». وبالفعل حين يصبح الشخص مطلوبًا للأمن السياسي فإنّ وجوده يصبح مؤقتًا وطارئًا.

بقيت حديقة الملعب البلدي وبقيتُ أنا، فيما غاب العنصر الثالث الذي كان يجعل هذه الحديقة جنّة لي. غاب أخي بركات وترك لي متعة الطيران على الدراجة الهوائية تعويضًا عن خسارته.

سوف يصبح لاسم المزّة في نفسي طعمًا مرًا لأنّ المكان الذي اعتقل بركات فيه كان اسمه سجن المزّة. وسوف تتدنّى قيمة دمشق في قوقعتي النفسية، من كونها مركزًا يحوي عجائب الأمور ويشدّ نفسي إليه، إلى مكان ظالم يحرم الناس من أحبّتهم. لكنّ غياب أخي لم يدم أكثر من سنة، ودمشق سوف تستعيد مكانتها لاحقًا حين سأنتقل للدراسة فيها.

جهينة

قبل سنوات قليلة من خسارتي أخي بسبب مرض عام اسمه «الأمن السياسي» أو اسمه غياب القانون، أو الديكتاتورية، كنت قد خسرت أختي جهينة (أو «جوها» كما كانت تدلّعها أمي) بسبب مرض خطير آخر اسمه «السرطان».

كانت أختي أكبر مني بسنتين، وكانت تحبّ الحياة واللعب وتكره المدرسة. ومن سوء حظها أنني كنت أنا أحبّ المدرسة وكنت متفوّقًا فيها وأحصل على ثناءات دائمة مما جعلني جملة مقارنة جاهزة دائمًا لإظهار تقصيرها وتفارقها عن «الصواب». لم تتمكّن طوال حياتها القصيرة من أن تتماشى مع الطريقة التي توافق عليها الناس في تثقيف أبنائهم. كرهتْ الرياضيات بصورة خاصة، كانت بالنسبة إليها نوعًا من التعذيب الذهني. حين تضع أمامها كتاب الرياضيات تصبح جاهزة للقيام بأيّ عمل في البيت. فقط حين تضع كتاب الرياضيات أمامها كانت تتذكّر أنّ البيت بحاجة إلى الماء، فتنهض بنشاط وتحمل البيدون وتذهب إلى النبع لإحضار الماء، أو أنّ غرفة المونة بحاجة إلى ترتيب أو أنّ الدار بحاجة إلى تنظيف أو أيّ مهمة أخرى تبعد عنها ذاك الكتاب

الشاق. الوقت الذهبي لأن تطلب منها أيّ خدمة هو حين تضع كتاب الرياضيات أمامها، حينها تصبح جاهزة لإعداد إبريق الشاي أو لكوي قميص أو بنطلون أو لإطعام البقرة حتى... وبشكل عام، كانت أختي تحبّ الضيوف وتستمتع بالجلوس بينهم وسماع أحاديث «الكبار»، لكنها كانت تحبّهم بشكل مضاعف حين تكون على وشك الجلوس إلى كتاب الرياضيات.

في الواقع، لم تكن الرياضيات هي مشكلتها الوحيدة، وإن كانت هي المشكلة الأصعب. كانت أختي تكره الجغرافيا أيضًا ولم تفهم طوال حياتها القصيرة معنى أن تعرف أين تقع الصين وما هي مساحتها وما هي الدول التي تجاورها، وكان رسم الخرائط مما لا تستطيع فهم المغزى منه أو الحاجة إليه. وينسحب الكره على كلّ المواد مثل التاريخ والعلوم، فلا تجد مادة واحدة محبّبة لها، حتى أنها كانت تكره مواد كالرسم والموسيقا والرياضة أيضًا بسبب تجاورها مع المواد الأخرى. كنت أشعر أنّ أختي لم تولد بدماغٍ مناسب للمدرسة، كأنّ دماغها لا يملك مساحة كافية أو خانات مخصّصة لهذه العلوم.

باختصار كانت تكره المدرسة، وكانت تكره العمل أيضًا، ولاسيّما حين كان يعيقها عن اللعب وهو الشيء الوحيد الذي كانت تهواه وتندفع إليه بكلّ ما فيها. كما لو أنها كانت تستشعر قرب نهايتها، وتريد أن تنال نصيبها من اللهو.

في يوم من خريفها الثاني عشر شكت جهينة من ألمٍ في رجلها. أحيلت شكواها في عقول العائلة إلى ملفّ الشكايات العابرة التي يمحوها قليل من الزمن ولا تحمل بالتالي أي قيمة تثير القلق. غير أنّ

الزمن لم يمح شكواها بل زادها، حتى أنّ جهينة باتت تخشى أن تدوس بقدمها على الأرض بقوّة فحاولت أن تساعد رجلها وتخفّف الضغط عنها بأن حملت بيدها عكّازًا تستند إليه في أثناء المشي. مع ذلك لم تتحرّك لدى «الكبار» غريزة القلق، بل تحوّلت شكوى جهينة في عقولهم من خانة الشكايات العابرة إلى خانة التمارض للتهرّب من العمل والمدرسة، مستندين في ذلك إلى أنها لا تحبّ المدرسة ولا العمل.

تبارى أفراد العائلة في مراقبة جهينة خلسة لكشف تمارضها. وكثيرًا ما سمعت أحد الكبار يقول بلهجة المكتشف: «رأيتها وهي تمشي بشكل طبيعي وتضع رجلها على الأرض بقوّة، لأنها تظنّ أنّ لا أحد يراها». وما أزال أذكر كيف غضب أبي حين رأى أختي تحمل العكّاز وتستند إليه في مشيتها كالعجائز. أخذ العصا من يدها وكسرها وحذّرها من حملها مرّة ثانية وقال لها بغضب: العكّاز للعجائز!

«الوهم»، كان هذا هو الخانة الثالثة التي انتقلت إليها شكوى أختي في عقول الكبار. وهي خانة لا تتوافر إلّا في عقول المثقّفين. فقد شخّص أحد «مثقّفي» العائلة بأنّ حالة جهينة هي مرض ولكنّ المرض ليس في رجلها بل في رأسها، وأنّ هذا النوع من المرض «الرأسي» يمكن أن يظهر في أيّ عضو من أعضاء الجسم، حينها يظنّ الشخص أنّ هذا العضو أو ذاك، هو المريض لكنّ المرض في الواقع يكون في الرأس. وأضاف أنّ هذا هو نوع من التمارض غير المقصود. المريض في هذه الحالة يشكو فعلًا من ألم، أي أنه لا يكذب في شكواه، ولكنه في الواقع غير مريض. هذا ما أطلق عليه ذلك المثقّف اسم «الوهم».

هذا التحليل الذي اقتنعت به العائلة أطال في عمر غفوة القلق

لدينا. جهينة إذن غير مريضة في الواقع ولكنها موهومة. والوهم يحتاج إلى وقت ومداراة لكي يزول. لا بأس إذن، فنحن لدينا الكثير من الوقت والقليل من المداراة. لكنّ «الوهم» لم يكن في طريقه إلى الزوال كما بيّنت الأيام. لم يكن أحد من أفراد العائلة الممتدة يريد أن يقلق، الجميع كان يهرب من الشعور بالخطر. وحدها أمي كانت تكظم قلقها. كانت تخشى أن تعبّر عن خوفها، فقد يسهم الإعلان عنه في تحقّقه، فضلًا عن خشيتها من إثارة غضب أبي. اكتفت أمي خلال فترة تحوّل حالة أختي في عقل العائلة من خانة إلى خانة، بأن اقترحت على أبي عرضها على طبيب «لكي تطمئنّ قلوبنا».

لم يطفئ الزمن شكوى جهينة ولم يخفّف من «وهمها»، وزاد إلحاح أمي، فقرّر أبي أن يعرض أختي على الطبيب في اللاذقية. ارتدت جهينة أفضل ما لديها من ملابس وبدت على وجهها علامات فرح الأطفال الموعودين بزيارة المدينة. كانت إذن على موعد مع رؤية كثير من السيّارات والأشياء الغريبة المعروضة على واجهات المحلّات التجارية وكثير من الوجوه الجديدة والشوارع، كانت على موعد مع مفاجآت المدينة التي لا تنتهي. وقد يكون من نصيبها أيضًا أن تأكل الكباب أو الكنافة أو البوظة، وربما فكّر أبي بأن يستغلّ وجودها في المدينة ويمرّ بها إلى محل تصوير فيصوّرها للذكرى، أو ربما أخذها إلى الكورنيش لكي ترى البحر والسفن. إنه في المحصلة خروج لذيذ من الحياة البليدة في القرية.

في المساء، عاد أبي بتعليمات جديدة. الطبيب شخّص حالة أختي على أنها ديسك، والعلاج الوحيد هو أن تستلقي على ظهرها ليلًا نهارًا لمدة خمسة عشر يومًا. إذن كلّ التصوّرات السابقة عن

شكوى جهينة باتت الآن ملغية. فهي ليست متمارضة وليست متوهّمة، هناك مرض عضوي يسبّب الشكوى، لكنّ هذا المرض قابل للعلاج كما قال الطبيب. منذئذ بدأت محنة جديدة في حياة جهينة وهي التزام الاستلقاء ليلًا نهارًا. لا توجد عقوبة أكبر من هذه بالنسبة إلى طفلة في سنّها. ما أزال أذكر كيف مدّت لها أمي الطرّاحة (فراش رقيق محشو بقطع من الملابس القديمة) في مواجهة الباب لكي تخفّف عنها ثقل هذا العلاج. وحين كان يضيق صدرها بالبقاء ممدّدة على الأرض، كانت تتذرّع بأيّ شيء لكي تتحرّك، لكي تقف وتمشي. وتحت نظرات أبي الذي كان يريدها أن تلتزم إلى أقصى حدود الالتزام تعليمات الطبيب، كانت تذبل عيناها وتهمد طاقة الشباب فيها وتعود سريعًا إلى الاستلقاء، لأنّ أكثر ما كان يؤثّر فيها أن ترى أبي غاضبًا أو منزعجًا.

خمسة عشر يومًا من الاستلقاء، وهي المدّة التي حدّدها الطبيب، من دون جدوى. أنهت جهينة هذه الفترة كمن ينهي عقوبة. عادت سعيدة إلى حريتها، على الرغم من أنّ حريتها هذه كانت مرفقة بألم في جذر الفخذ حين تدوس على الأرض برجلها اليسرى، وكانت مرفقة أيضًا بتحمّل أعباء بعض الأعمال المنزلية.

لكنّ اليوم الذي كان يحمل في طياته سوادًا كثيفًا لوّن كلّ أيّامنا التالية بالأسود، هو اليوم الذي اكتشفت فيه جهينة كتلة قاسية تشبه بيضة الدجاج في جذر فخذها. اقتربت جهينة من أبي خائفة وأرته الكتلة التي حوّلت حياتنا إلى جحيم.

أطباء ومشافي وتحاليل، غير أنّ الخزعة التي أخذت من الكتلة لدراستها هي التي شكّلت بداية القسم التالي من حياة جهينة غير القادرة على المشي. بعد أخذ الخزعة عجزت جهينة عن الاتّكاء على رجلها، وتلاشت شهيتها إلى الطعام.

مع الوقت راحت رجلها اليسرى تتورّم يومًا وراء يوم، استسلمت جهينة بصورة تامّة لهذا المرض الذي راح يقضم روحها بسرعة وثبات حتى ذلك الصباح الذي قالت فيه لأمي مندهشة: «ليش عتّمت الدنيا هيك». عندها كان هذا البلاء قد أتى على آخر ضوء في عينيها. وكان صعود الصرخة من حنجرة أمي يرافق صعود روحها.

خلال مرض أختي، وبعد أن تحوّل مرضها إلى ما يشبه الغول الذي لا يُرد، وبعد أن سقطت في بحيرة، وَعَيْنا فكرة صلبة ومربكة كالحجر، فكرة أننا سنخسرها إلى الأبد، قرّرت أمي أنْ تتصرّف مع اللّه وأوليائه بمعزل عن الجميع وبعيدًا من تعليقاتهم وفلسفاتهم، الحديث منها والقديم.

ذات صباح استحمّت أمي ولبست ثيابًا نظيفة وتركت كلّ شيء وراءها وأخذتني معها، أنا أصغر أبنائها، إلى مزار على تلّة غير بعيدة كثيرًا عن قريتنا. كانت تسير باتجاه المزار كأنها ذاهبة إلى مقصد محدّد لإنهاء قضية عالقة. في عينيها تصميم، وفي قلبها رجاء. كنت واعيًا بما يكفي لأرى أنّ قوّة خطواتها مستمدّة من اليأس أكثر مما هي مستمدّة من الأمل. كانت تتّجه إلى المزار وفي صدرها أمل يشبه العتب. وكانت

تسير صامتة ذلك الصمت الذي يجاور الرغبة في البكاء. صمت من يشعر بظلم ولا يستطيع دفعه. كنت أسير بجانبها بصمت أيضًا من دون تذمّر من برد أو تعب، ومن دون توجيه الأسئلة التي تعوّدت دائمًا أن أغمر وقتها بها، وأن أستمتع بطريقتها في الردّ وفي إظهار الحبّ وفي الضحك وفي المعاتبة حين كنت أسألها عن معلومات كنت عرفتها لتوّي من المدرسة، أستمتع بقولها المكرور: «من وين بدي أعرف يا دلّي... أهلي ما علّموني متل ما عم نعلّمك». في الطريق إلى المزار كنت أحس بالثقل الواقع على قلبها، وصمتُّ عن الأسئلة وتمكّنت من احترام مزاجها الكئيب ذلك الصباح.

كانت الطريق خالية من الناس، ربما اختارت أمي هذا الوقت لئلا تلتقي بأحد. الخجل كان السمة الأبرز في شخصية أمي. كانت تحبّ قضاء حاجاتها بعيدًا من تعليقات الناس وتدخّلاتهم، فهي لا تطيق المجادلات. حين خفّف اللّه عنها موهبة المجادلة والمناكفة، أغدق عليها من موهبة العزيمة والصبر.

وصلنا المزار. كان المزار خاليًا من الناس في الصباح، وهي المرّة الأولى التي أجد فيها هذا المكان خاليًا. شعرتُ بجمال أن تقطف بكورية صباح المزار. جعلتني أمي أخلع حذائي، كما فعلت هي، وأتبعها إلى داخل المزار. جلستُ على طرّاحة في زاوية المكان أتفقّد ما يحيط بي من أشياء بسيطة وفقيرة: قطع بخور موضوعة في صحون من فخّار أو من ألمنيوم، علب كبريت مفرقة أو مجمّعة في كروز كحلي اللون لم يفتح بعد، نسخ متنوّعة من القرآن معظمها يحمل آثار الزمن والأيدي، كرّاسات صغيرة تحوي سورًا معينة من القرآن، علبة مربعة تحوي قطعًا

نقدية معدنية من الفئات الصغرى، قماش أخضر موضوع على طاولة صغيرة لاقتطاع «الخلعات»... وبينما كنت أتفقّد ما حولي كانت أمي تدور حول مستطيل أخضر مرتفع وتتوقّف كلّ بضع خطوات لتطبع قبلة على المستطيل تُتبعها بوضع جبينها مكان القبلة. كان وجه أمي جدّيًا وبدا لي أنّ عليه بعض ملامح الخوف. لم أشأ أن أُمعن النظر في وجه أمي في هذه الحالة، ليس فقط مخافة أن أحرجها، بل أيضًا لأنني خشيت أن أرى على وجهها ملامح لم أعتد عليها ربما عكّرت عليّ جمال روحها وصورتها في وعيي الصغير.

كانت أمي ضعيفة ومن الضعف يخرج صوت الرجاء، وكنت بدوري عاجزًا أمام ضعف أمي، ومنحت هذا المقام قيمة كبيرة في نفسي لأنّ أمي قصدته في ضعفها وتوخّت منه العون، وكان يتهيّأ إليّ أنّ ثمة قوّة قادرة تسمع دعاء أمي الصامت حول هذا المقام، وأنّ رجاء أمي لن يخيب.

بعد أن أنهت أمي طوافها حول المقام، أشعلت بضع حبّات من البخور في صحن من الفخّار، وحملت الصحن ودارت به في أرجاء المكان قبل أن تعيده إلى مكانه، وتشير إليّ أن أخرج من دون أن أدير ظهري للمقام.

على طريق العودة كانت أمي أكثر راحة من قبل. وكشفت لي عن الوعد الذي قطعته على نفسها أمام «الشيخ القليعة الحكيم». قالت إنها ستخدم هذا المقام حافية لمدة ثلاثة أشهر إن هو أشفى جهينة من مرضها. ليتها لم تكشف لي ذلك، فقد سيطرت على ذهني صورة أمي

وهي تسير حافية على طريق المزار الوعرة حاملة على كتفها الماء إلى المزار. كانت الصورة في ذهني قاسية إلى حدٍّ يعادل ربما خسارة جهينة.

خلال مرض أختي، عاد أبي مساءً إلى البيت بعد يوم له في مدينة اللاذقية. كان أبي هناك ينتظر نتيجة تحليل الخزعة التي أخذها طبيب من الورم، وأرسلها إلى المختبر لمعرفة نوعية الورم. فتح أبي الباب وقال «مسا الخير» بصوتٍ متهالك وبلا أي احتفاء بمن جاء لعيادة أختي، ثمَّ دخل من دون أن ينظر في وجه أحد وارتمى على أقرب كرسي. اختفت الأصوات دفعة واحدة. واتجهت أنظارنا إلى أبي الذي راح يحدق في الأرض بملامح جامدة. بعد صمت مرهق، تكلّمت عمّتي، التي كانت وابنها الشاب قد جاءا لعيادة أختي، متوجّهة إلى أبي:

- خير خيي؟

أخرج أبي مغلفًا أبيض من جيبه وأعطاه لعمّتي، فيما حارت عيناه في أرجاء الغرفة وهما تتهرّبان من لقاء الأعين المحدّقة فيه. كانت عمّتي أمّية، غير أن أبي عجز عن ردّ سؤالها بالكلام ولم يدرِ ماذا يفعل فأعطاها المغلّف الذي أعطته بدورها لابنها الشاب. ولكن قبل أن يفتح ابن عمّتي المغلّف، تجرأ أبي ونظر في العينين اللتين كان يتهرّب منهما أساسًا. نظر أبي في عيني جهينة وكأنه يودّعها الوداع الأخير. فما كان منها، هي التي عجزت عن الدوس على رجلها بعد أخذ الخزعة منها قبل أيام، إلّا أن وقفت وسارت في أرجاء الغرفة وهي تعرج وتقاوم الألم وتقول متأثّرة بحزن أبي:

- أنا مو مرضانة .. أنا مو مرضانة!

أجهش أبي بالبكاء، وغرق البيت بجوٍ حانق كالموت. أغلق ابن عمّتي المغلف من دون أن يُخرج الورقة من داخله. وحار في أمره. كنت أصغر الموجودين. تناولت المغلّف-المأساة من ابن عمّتي ودسسته تحت تلّة الفرشات المرتّبة على الطاولة في زاوية الغرفة. كأنني، إذا أخفيت هذا المغلف، كنت أخفي المشكلة التي أبكت أبي.

لا أدري هل انتبه أحد إليّ حين أخفيت المغلّف، لكنني لم أسمع أنّ أحدًا سأل عنه من بعد، ولم أجرؤ أنا على البحث عنه ثانية.

إنه ذاك المرض الذي يحيل الجميع، أطباءً وأهلًا وأصدقاء، إلى مجرّد شهود عاجزين أمام قضمه المتسارع لحياة المريض وراحته. حمل الأملُ أبي إلى دمشق، قد يكون في العاصمة ما يحول دون موت جهينة المقبل، فعاد أكثر حزنًا وقد اقترح عليه الأطباء هناك العودة إلى البيت والكفّ عن العناء في ما لا طائل منه. بالفعل عاد أبي بأمي وأختي إلى البيت، واستقر العجز على صدورنا كصخرة ملساء، نحاول رفعها قليلًا بمعونة طبيب عربي في حماه.

في حماه، لدى البحث عن الطبيب العربي، انتابت جهينة موجة من البرد. راحت ترتجف من دون أن يكون لدى أبي وأمي ما يملكانه ليساعداها في وجه هذا البرد غير المفهوم في أواخر الصيف. أحضر أحد أهالي حماه بطانية وأعطاها لأبي لكي يلفّها بها. بعد لقاء طبيب الأعشاب الحموي، عاد أهلي من حماه والبطانية الحموية ملفوفة حول جسم جهينة. وقد بقيت هذه البطانية التي حملت اسم «البطانية الحموية»، شاهدًا على سعينا اليائس وراء أملٍ راح يتلاشى بسرعة خانقة.

ملأت زجاجات الدواء العربي البيت. زجاجات تحوي سائلًا برتقالي اللون تشربه جهينة مرتين في اليوم. قالت مرّة إنها حين تشربه تشعر بألم في منطقة الورم. وقال ابن عمّي الطبيب إنّ هذا مؤشّر جيد. لكنّ الورم راح يمتد ويصطحب معه ألمًا متزايدًا يومًا عن يوم. صار الألم اللون الوحيد لأيامنا ولياليا. وصار المورفين وسادتنا الوحيدة. المورفين كان يعطي جهينة وقتًا هانئًا، ويعطي أمي فرصة لكي تنجز أعمال البيت أو تنام قليلًا. غير أنّ المورفين صار يعجز أكثر فأكثر أمام هول الآلام، وراح بيتنا يتحول إلى اسفنجة مشبّعة بالكآبة. طوال الوقت كان على أمي أن تجلس بجوار أختي وتكبس بوتيرة ثابتة منطقة الورم. كان هذا يريح جهينة حتى تحوّل هذا التكبيس إلى العمل الأساسي لأمي. أحيانًا كانت أمي تغفو في سياق عملها هذا، فتتوقّف عن التكبيس. عندها كانت أختي تنهرها بغضب وتبكي وتتّهمها بأنها لا تكترث بألمها.

في صباحٍ خريفي، بينما كانت أمي تمارس همّها اليومي في تكبيس موضع ألم أختي، انسحب الضوء فجأة من أمام عيني جهينة التي صرخت بأمي محتجّة كعادتها في تحميلها مسؤولية كلّ شيء: «ليش عتّمت الدنيا هيك؟»، توقّفت أمي عن التكبيس وقد أدرك قلبها أنّ جهينة انتهتْ. بعد سنوات طويلة، أعادني كتاب «الطب الشرعي» إلى تلك اللحظة، حين قرأت أنّ أوّل حاسّة تموت عند الإنسان هي البصر وآخر حاسّة تموت هي السمع. وعرفت حينها أنّ جهينة لا بدّ من أنها سمعت صراخ أمي وأختي الثانية من حولها بعد أن قالت جملتها تلك، وكفّت عن الكلام وأرخت قبضتها عن يد أمي.

كم كان كئيبًا وفقيرًا ذلك اليوم الذي دفنت فيه جهينة. كانت أوّل وفاة في عائلتنا. وكنت صغيرًا لأدرك ما يجري بإحساسي أكثر من وعيي. بضعة رجال بائسين يحفرون القبر، وبضع نساء يندبن، وبضعة أطفال يستجيبون لهذا الجوّ الحزين بالصمت والحيرة. بعد وقت، يحملون أختي المتوفّاة والمكفنة على نقّالة من ممتلكات شركة الأسفلت مخصّصة لنقل الجرحى. أهرب بنظري عن المشهد ولكن عيني تلمح لون النقّالة الذي يشبه خضارها لون خضار الزيتون المرصوص. كان ذلك كافيًا لكي يحرمني من تناول الزيتون المرصوص لسنوات طويلة لاحقة.

وعلى الرغم من الانشغال الذي سبق وتلا الدفن بتأمين ذبيحة لإطعام المعزّين، هذا التقليد الذي جرى التخلّي عنه لاحقًا (ألا يكفي أهل المتوفّى ثقل مصابهم حتى ينشغلوا أيضًا في تأمين ذبيحة وإعداد طعام للمعزّين؟)، فإنّ كلّ ما جرى بدا لي أقل بكثير مما يستحقّه حدث الوداع الأبدي لأختي. لم أشارك بشيء، فقد كنت صغيرًا، ولم أبكِ أيضًا بل شعرت بمزيج من الألم والخجل من سماع بكاء أمي وندبها، لكنني كنت أحسب أنّ أمرًا كهذا لا يجب أن يمرّ بهذه البساطة.

دُفنت أختي في أرضٍ غير بعيدة عن البيت، وتكدّس الريحان على قبرها، وفي اليوم السابع من دفنها وضع قوس من الخشب المغطّى بالريحان فوق القبر، على شكل مستطيل يشكّل القبر ضلعه السفلي، ويعلو ضلعه العلوي مثلّث متساوي الساقين. وضعت طاولة بجانب القبر ألقيت من وراءها كلمات الوداع، منها كلمة كتبها أخي الأكبر وتلعثمتُ فيها أنا. لا أدري كيف اختار أهلي أن أقرأ هذه الكلمة في أسبوع أختي. كنت في الصف الخامس على ما أذكر، قرأتها وأنا أغالب

حنجرتي التي يشنّجها البكاء والارتباك: «أختاه، وأعود من المدرسة أسأل عنك، أما شفيتِ لتشاركيني درب المدرسة؟». هكذا اختار أخي أن يبدأ هذا الرثاء. ومن أكثر الطرق إثارة للحزن أن تخاطب المفقود الذي فقد القدرة على الردّ إلى الأبد.

انتهى الأسبوع. أدّى الأحياء وظيفتهم تجاه من فقدوه بالموت، وذهبوا. أزيل القوس من فوق القبر. جفّ الريحان على القبر. وحدها أمي جاهدت على مدى سنين لإبقاء الفرع الأخضر على قبر أختي. الريحان هو النبتة التي تحافظ على لون ورقها الأخضر ورائحتها العطرة حين تجفّ. هذا ما جعلها النبتة الوحيدة الصالحة للقبور. إنها النبتة التي تمثّل ما يريد الأحياء أن يقولوه للأموات: إننا نذكركم أطول فترة ممكنة (يتأخّر الريحان في الجفاف قياسًا إلى غيره من النباتات) وإننا حين ننساكم، فإنّ نسيانكم ليس نسيانًا بل نوع من الحفظ العَطِر في الذاكرة (الريحان لا يفقد لونه حين يجفّ ويبقى بعد جفافه يحتفظ برائحته الزكية). ولكنّ الريحان على الرغم من مقاومته الطويلة، يجفّ بعد كلّ شيء، لذلك فقد زرعت أمي ريحانة جانب قبر «جُوها»، كما كانت أمي تدلعها وبقيت تدلّعها بهذا الاسم: «روح معي نزور قبر جوها»، هكذا كانت تطلب مني يوم الجمعة.

وكتعبيرٍ عن أنّ الحياة أقوى من الموت. تحوّل القبر مع السنين إلى بلاطة ممتدة مرتفعة قليلًا عمّا حولها تنتهي بشاهدة. ثمّ مع السنين بدأ التراب يعلو البلاطة ويخفي حدودها. وباتت الريحانة التي زرعتها أمي هي الشاهد الأبرز على مكان القبر. غير أنّ ما لا يحتاج إلى صيانة من النسيان هو خوف الأحياء من الموتى. بات المرور بجانب القبر

يحتاج إلى مزيد من الشجاعة، ذلك أنّ الميت بات ينتمي إلى عالم آخر مغاير تسقط منه علاقات القرابة والصداقة والإلفة. ويمكن للميت أن يتحوّل إلى شبح أو روح قلقة تؤذي الأحياء. والطريف أنّ الأحياء يعتقدون أنّ مجال حركة هذه الروح يقتصر على محيط القبر. هكذا تحوّل القبر إلى مكان إضافي لخوف الأحياء، ولاسيّما في الليل.

شبحٌ مخيف

مدرّسة اللغة الإنجليزية كانت حلبية ترتدي الحجاب والمانطو، وهو زيّ مختلف عن لباس أهالي المنطقة. كانت صغيرة الحجم ودقيقة الملامح وسريعة الحركة. كنت حينها في الصف التاسع (الثالث الإعدادي). أحببتُ تلك المدرّسة لجدّيتها ومعرفتها ومهارتها في التدريس ولفظها الجميل للغة الإنجليزية، على خلاف المدرّسين الآخرين الذين سبق لهم أن درّسونا المادة نفسها، وكانوا شبه جاهلين بهذه اللغة، حتى أنّ أحدهم، وهو في الأصل مدرّس جغرافيا، كان يلفظ اسم «خليل» الوارد في أحد دروس اللغة الإنجليزية في الصف الثامن، «كهليل» دون أن يدري أنّ (kh) هو بديل حرف الخاء في اللغة العربية.

لأنني كنت أحبّ اللغة الإنجليزية، وأشارك في الدرس وأجتهد في المحادثة...إلى آخره، أحبّتني المدرّسة الحلبية التي فاجأتني ذات يوم بحديث ما أزال أذكره. سألتها بعد أن انتهت الحصة وهي في طريقها إلى استراحة المدرّسين: من أين جاء الاختصار (e.g.) للدلالة على المثال؟ فقد كان يحيّرني وضع هذين الحرفين للدلالة على المثال مع أنّ المثال في اللغة الإنجليزية يبدأ بحرفَي (ex). أجابت عن سؤالي، ثمّ

سألتني عن اسم قريتي وحين أجبتها أبدت الأسف على كوني من هذه القرية. حينها لم أفهم معنى قولها، وضحكتُ لئلا أترك كلامها بدون استجابة.

مع الوقت بدأت أستوعب معنى كلام مدرّستي تلك. وقائع غريبة بدأت تظهر في منطقتنا وتُحدث خلخلة في استقرار حياتنا. ذات يوم صعقت منطقتنا بخبر مقتل ثلاثة من تجّار البقر من القرية المجاورة لقريتنا. كانوا عائدين من البازار فاعترضهم مسلّحان على دراجة نارية قتلا الرجال الثلاثة برصاص مسدس من دون أن يسلبا منهم شيئًا، كدلالة على أنّ هذا القتل ليس طمعًا في مال ربما جمعوه من البازار. بعد ذلك قُتل مدير مدرسة أمام باب الإدارة في بلدة قريبة تدعى بداما. وفي تلك الفترة تعرّض أخي هيثم الذي كان يدرس في حلب إلى محاولة قتل بالضرب على مؤخرة الرأس بأداة ثقيلة أفقدته وعيه وهو عائد مساءً إلى غرفته المستأجرة. حين عاد هيثم إلى بيتنا في القرية بعد تلك الحادثة، كانت عيناه برْكتين من الدم، وقال إنّ كلّ ما يذكره من الحادثة هو صوت المرأة التي صادف وجودها في الشارع حينذاك وراحت تولول حين رأت المعتدي يهجم على أخي من خلف بأداته الثقيلة، وقد يكون صراخ المرأة هو ما أنقذه من الموت. بكت أمي كثيرًا ورجته أن لا يعود ثانية إلى حلب: «يلعن أبو الدراسة على أبو الشهادات». لم يستجب هيثم لرجاءات أمي وعاد إلى حلب ولكنه بقي لسنوات، بعد ذلك، لا يستطيع أن يمشي في الشارع بضع خطوات من دون أن يلتفت إلى خلف ليطمئنّ أن لا أحد يهمّ بضربه بآلة ثقيلة على رأسه.

الحادثة الرهيبة التي توّجت كلّ هذا، جرت في مدرسة المدفعية في حلب في صيف 1979، راح ضحيّتها حوالى 40 قتيلًا من طلاب الضبّاط إلى جانب مئات المعطوبين النفسيين. في ذلك الوقت كَثُرَ الكلام عن جماعة «الإخوان المسلمين» التي لم يكن يعلم الأهالي عنها أكثر من كونها الجهة المسؤولة عن أعمال القتل الطائفية تلك. كان القاسم المشترك لكلّ هؤلاء الضحايا أنهم ينتمون في الولادة إلى مذهب واحد هو المذهب العلوي الذي ينحدر منه رئيس البلاد.

صدف أن كان أحد طلاب الضبّاط الذين نُفّذت بحقّهم تلك المجزرة من قرية مجاورة. نجا هذا الطالب من الموت، ولكنه سُرّح لأنه عانى من اضطراب نفسي رافقه طوال حياته. كان شابًا وسيمًا ببنية رياضية، ولم يجد ما يفعله بعد تسريحه سوى العمل في محل للحلاقة بجانب المدرسة التي كنّا ندرس فيها. في وقت الاستراحة بين الدروس، كنا نتسلّى بمراقبته من بعيد وهو يقصّ شعر زبائنه، فقد كان يترك الزبون بين فترة وأخرى ويذهب مسرعًا إلى باب المحل ممسكًا المشط والمقص في يديه، ويلقي بنظره يمينًا وشمالًا خارج المحل وكأنه يتأكّد من عدم وجود أحد، قبل أن يعود ثانية إلى زبونه. في البداية كان الزبائن يستغربون منه هذه الحركة، ويستفهمون منه، هل سمع صوتًا غريبًا وذهب يتأكّد من مصدره، أم أنه ينتظر أحدًا ما، أم ماذا؟ غالبية الزبائن تفهّموا في ما بعد هذه الحركة منه، وتعوّدوها، ولم يعد أحد منهم يسأله عن سبب قيامه بهذا السلوك الذي ظل يثير شفقتهم. أما نحن، طلّاب المدرسة، فقد بقي هذا السلوك، بالنسبة إلينا، غريبًا ومسلّيًا.

في تلك الأيام زادت عمليات الاغتيال التي تستهدف أفرادًا من الطائفة العلوية، ولاسيّما الأطبّاء والضبّاط. كان خوف عائلتنا كبيرًا على أحد أبنائها لأنه كان من بين أوائل الأطباء في اللاذقية. تبرّع بعض الأصدقاء بالسهر على حراسة بيته الذي كان في جوار سوق للخضار، وعلى مراقبة الشارع لحظة ذهابه إلى عيادته وعودته منها. وذات يوم انقضّ هؤلاء الحرّاس المتطوّعون على شخصين كانا يختبئان تحت عربة خضار مقابل بيت الطبيب، وكان يمكن أن يتعرّضا للأذى قبل أن يتبيّن أنهما هناك لممارسة علاقة حميمة بعيدًا من العيون وبعيدًا من التفكير في اغتيال أحد، ولا يريدان سوى أن يتاح لهما الفوز بتلك المتعة المحرّمة.

زاد الشعور بالقلق مع تناقل أخبار عن قيام جماعات مسلّحة من الإخوان المسلمين بمهاجمة القرى العلوية. بين استبعاد صحة الأخبار المتناقلة وبين الخوف من خطر مجهول الملامح، وبين مستهتر بهذه الأخبار وبين متحمّس للتعامل معها بجدية تامّة، وافق بعض الأهالي على حراسة القرية. لم يكن في القرية سوى بضع بنادق للصيد. كنت حينها في السابعة عشرة من عمري. ببارودة صيد تخلّى عنها عمّي بتثاقل، وببضع عصيّ، وبين الهزل والجدّ، وقفتُ مع مجموعة من أترابي نحرس المدخل الغربي للقرية. كان الجميع يعلمون أنّ أيّ هجوم حقيقي على القرية، كالذي يتكلّمون عنه، سوف ينتهي بكارثة، لأنّ القرية خالية تمامًا من وسائل الدفاع، ولن يكون الحرّاس الذين يسهرون على المداخل العدّة سوى القربان الذي تقدّمه القرية على أمل أن يتاح للأهالي الهرب.

اضطررتُ، بتأثير الخوف المتنامي في ذاك الصيف، للتخلّي عن عادتي الصيفية في بناء كوخ صغير في بستاننا، والتمتّع بقضاء الوقت في «منزل» خاص بي ومن صنع يدي، كنت أفرشه بحصير بلاستيكي وبوسائد من القش، وأقرأ فيه كتبًا كنت أنتقيها من مكتبة البيت، كان أبرزها روايات حنا مينة وروايات صادرة عن دار التقدّم في موسكو مثل رواية «الأم» لمكسيم غوركي، و«كيف سقينا الفولاذ»، و«إلى الأمام إلى لقاء الفجر»، و«الثلج الحار»... إلى آخره. في ذلك الوقت قرأت كتبًا تُجاوز قدرتي على الفهم، ومع ذلك كنت أكمل القراءة لكي أقول إنني قرأت الكتاب الفلاني. ما أزال أذكر عناوين كتب قرأتها من دون أن أذكر شيئًا منها، ولكن حين كنت أقرأ الصفحة الأخيرة في الكتاب، كنت أشعر بسعادة إنجاز عمل، وأسجّل الكتاب في قائمة مقروءاتي، ما يزيدني شعورًا بالقيمة، من دون أن أكون قد استوعبت منه شيئًا. أذكر أنني قرأت في تلك الفترة، رواية بعنوان «تحت النير»، وهي رواية ضخمة كان يتهيّب الجميع قراءتها، صبرت على قراءتها حتى الصفحة الأخيرة، وأقول صبرت لأنّ القراءة من دون استيعاب تغدو عملًا شاقًا.

في ذلك الكوخ قرأت تلك الأدبيات السرّية التي سحرتني، الكرّاسات الحمر والأدبيات الصادرة عن «رابطة العمل الشيوعي في سوريا». ولكن هذا الصيف كان يحمل في طياته أصداء غريبة وبواعث خوف غامض، ولذلك فقد مرّ الصيف بلا كوخ. سقط في الوعي أنّ هناك من يريد قتلك لا لشيء إلّا لأنك أنت، وقد يأتيك هذا القاتل في أيّ وقت وفي أيّ مكان، وأنا أضفت في خيالي: ولاسيّما إذا كنت في مكان منعزل، كالبستان!

في صيف 1979، قبل بدء العام الدراسي بحوالى الأسبوعين، شاع خبر اغتيال أحد الشيوخ العلويين ممن لهم احترامهم، واسمه يوسف صارم. قيل إنه قُتل وهو في طريقه إلى الجامع الذي هو إمامه في حي الرمل الشمالي ذي الغالبية العلوية. وقيل إنّ مشهده وهو ميت ومضرّج بدمه في الشارع أثار العلويين الذين كانوا على قناعة بأنّ الإخوان المسلمين هم وراء عملية الاغتيال. لم يشكّ أحد في ذلك. أذكر أنّ أحد أصدقاء أبي تساءل بنبرة ما تزال عالقة في ذاكرتي، لماذا تترك جثّة الشيخ طويلًا في الشارع، هل الغرض استفزاز أكبر عدد ممكن من العلويين؟

تلت ذلك أحداث صدامات طائفية في اللاذقية سقط فيها قتلى، كما قيل. زاد القلق بين الأهالي وزاد الشعور بانعدام الثقة بين الناس على أسس طائفية. اللوم دائمًا يتّجه إلى الإخوان المسلمين أصحاب الحديث الطائفي والحقد الطائفي والفكر الطائفي... وفي الأحاديث كان التحليل يذهب دائمًا إلى أنّ هؤلاء هم أداة بيد الصهيونية والرجعية العربية والإمبريالية لضرب صمود سوريا ودفعها للصلح مع إسرائيل.

كانت تصل أخبار عن عناصر ذلك التنظيم الغامض، أخبار عن حوادث تنطوي على إنكارهم كلّ القِيَم في سبيل تحقيق غاياتهم. في قرية سلمى المجاورة لقريتنا والتي تقطنها نسبة غالبة من المسلمين السنّة، تبرّع اثنان من التنظيم بقتل زميلهما في المدرسة، (كان اسمه جمعة، وكان زميلي أيضًا في الصف الأوّل الثانوي في مدرسة وطى الخان قبل انتقالي للدراسة في المدينة) لأنه ألقى كلمة البعث في احتفال الثامن من آذار. جاءا معًا إلى بيت جمعة وطلبا من أمه، التي

تعرفهما من بين أصدقاء ابنها، أن تطلب منه أن يخرج إليهما، وحين خرج إليهما قتلاه بالرصاص وهربا. كانت هذه الرواية حديثًا متداولًا ولكنّ أحد سجناء الإخوان المسلمين الذين التقيتهم، بعد سنوات، في السجن وهو من قرية سلمى، أكّدها لي.

وكانت تصل أيضًا أخبار عن بطولة وتصميم بلا حدود لدى عناصر هذا التنظيم، كأن يرمي أحدهم نفسه في نار الفرن لكي لا يمكّن عناصر المخابرات منه، وتنطوي أيضًا على معنى يقول إنهم في كلّ مكان ويخترقون كلّ أجهزة الدولة. من هذه الأحاديث أنّ رسالة تهديد وصلت إلى أحد ضبّاط الجيش تقول إنه سوف يُقتل هذه الليلة في الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل، تنفيذًا لحكم اللّه به. خاف الضابط وقرّر أن لا يخرج من مكتبه تلك الليلة، وأعطى تعليماته بأن لا يسمح لأحد بالدخول إلى مكتبه، لكي يتفادى التهديد. بقي يراقب الوقت منتظرًا أن تمرّ ساعة المصير. في الحادية عشرة تمامًا وبينما هو يستعد لإزاحة القلق عن نفسه مع تجاوز الساعة المحدّدة، يدخل الحاجب ويسأله: «قديش الساعة سيدي؟»، يجيبه الضابط بارتياح: «الساعة الحادية عشرة». فيخرج الحاجب مسدّسه ويقتل الضابط بالرصاص ويفرّ.

كلّ الأحاديث كانت تدور حول موضوع واحد هو «الإخوان المسلمون»، من هم؟ ماذا يريدون؟ لماذا يقتلون بهذا الشكل؟ هل يمكن فعلًا أن يهاجموا القرية؟ هل يميّز هؤلاء بين أبناء القرية من هم ضدّ الحكم وبين من هم مع الحكم؟ هل يقتلون الناس بسبب مواقفهم وسلوكهم أم بسبب ولادتهم على مذهب غير مذهبهم؟ ومن أحاديث

الكبار تلك، كانت تتطاير أسماء تلتصق بالذاكرة وترتدي على الفور ثوبًا شيطانيًا بشعًا: حسني عابو، عدنان عقلة، عبد الستار السيد، هشام جمباز، إبراهيم اليوسف... دخلت هذه الأسماء إلى ذاكرتي في الخانة الشيطانية المنبوذة، لأنها بدت لي أسماء أشخاص يريدون أن يقتلوك فقط لأنك على قيد الحياة. لم أستطع العثور عندي أو عند من كنت أستمع إلى أحاديثهم من الكبار، على أي معنى آخر يمكن أن ينتشلهم من تلك الخانة الكريهة المرفوضة، والمخيفة، فوق كلّ شيء.

في صيف ذلك العام (1979)، اشتغلت مياومًا في الميناء بواسطة من صديق للعائلة، كانوا يسمّوننا «عمّال صيانة»، وكان عملنا هو العناية بأيّ كيس أو قطعة ما، تسقط في أثناء نقلها من الباخرة إلى الشاحنات، أو تصاب بأذى في أثناء تحميلها في الرافعات من العنبر. النسبة الكبرى من العمّال الذين كنت بينهم كانوا في أعمار قريبة من عمري ويعملون في العطلة الصيفية مثلي. غالبيتهم كانوا من المدينة بلهجتهم الممطوطة النهايات وبقافهم الرقيقة كالهمزة، في أحاديثي معهم كنت أحاول إخفاء لهجتي الريفية ولاسيّما حرف القاف القاسي، خوفًا من افتراضي أنني قد أتعرّض للأذى منهم إذا عرفوا منبتي، وبالنظر إلى سوء موهبتي في تقليد اللهجات فلا شك أنني كنت أتواصل معهم بلهجة كاريكاتورية وأنا أحاول التكلّم بلهجتهم المدينية، ولا شك أنّ لهجتي الهجينة تلك كشفت منبتي بما لا يقلّ عن لهجتي الريفية، وإنها لم تكن لتشكّل أيّ حماية لي في ما لو كان لدى أولئك أيّ نية في الأذى. غير أنّ افتراضي ذاك هو نتيجة التصوّر الذي استقرّ ولم يجد من يبدده، الافتراض أنّ العلويين مستهدفون بوصفهم كذلك بلا اعتبار لمواقفهم

أو اتجاهاتهم السياسية، وأنّ في قرارة نفس كلّ مسلم سنّي كراهية متوارثة تجاه العلويين، وأنّ هذه الكراهية تتحوّل إلى فعل عدائي ما إن تتيح لها الظروف ذلك. في مثل هذه الحالات، لا يكفي أن يكون أحد الطرفين واعيًا لزيف هذا التصوّر، لأن رسوخ هذا التصوّر عند طرف يكفي لولادة المشكلة.

تسلّلت إلى نفوس الأهالي سموم فقدان الثقة، وصارت العلاقات بين الجماعات شديدة الحذر. في المدرسة، راحت تظهر خطوط انقسام بين الطلّاب على أساس مذهبي. المشكلات العادية بين الطلّاب صارت تخرج من حدودها الشخصية وتتّخذ منحى عموميًا مذهبيًا. خلاف شخصي بين طالبين في مدرستنا، أوشك أن يتحوّل إلى شجار عام بين الطلّاب على أساس مذهبي.

في يوم من تلك الأيام، قلقت أمي بسبب إصرار أبي على زيارة أحد أعزّ أصدقائه في منطقة جسر الشغور عندما علم أنه أجريت له عملية جراحية. ذهب أبي لزيارة تلك العائلة «السنّية»، وعاد سعيدًا باستقبالهم له وطيبتهم وضيافتهم، ولكلّ من سأله عن «أولئك الجماعة» بتبطين سيء، كان يقول: «فتّش قلبك، حين يكون قلبك نقيًا على الناس ستجدهم أنقياء، وحين يكون قلبك فاسدًا ستجدهم على صورتك»، ثمّ يستفيض في الشرح الذي كان يعيده دائمًا، عن تحوّل المذاهب والأديان إلى وسائل لحشد الناس بعضهم ضد بعض، بدل أن تكون أفكارًا روحانية وتدعو للسلام والمحبّة...

بالنسبة إليّ، كان الموضوعان السياسي والاجتماعي مستقلّين

واحدهما عن الآخر. كان يبدو لي أنّ الموقف السياسي من النظام، مستقلّ عن العلاقة بين المذاهب. كان موقفي من النظام سلبيًا على طول الخط، ومع ذلك لم يشكّل هذا طمأنينة لي بأن لا أكون مستهدفًا من أبناء المذهب السني إذا أتيح لهم إيقاع الأذى بي.

في تلك الفترة أيضًا امتلأت اللاذقية بقصص أقارب الرئيس وتنمّرهم وإهانتهم الناس والسلبطة عليهم. كثرٌ ذكروا اسم فوّاز الأسد، وهو ابن أخ الرئيس، وسلوكه في جامعة تشرين. من القصص التي شاعت عنه أنه دخل إلى المقصف الجامعي وأشهر مسدسه طالبًا من الجميع النزول تحت الطاولات، ثمّ جلس يشرب القهوة بينما الناس على هذه الحالة إلّا إذا كان ذلك أمرًا مُثبتًا ومنشورًا. وأنه صادف عاشقين يجلسان إلى طاولة منزوية في المقصف، فاقترب منهما وطلب إلى الشاب أن يقف على الطاولة وأن يصيح بأعلى صوته «أنا حمار». وإنه ذات يوم غضب لأنّ ميكروباص عموميًا محمّلًا بالركاب تجاوز سيّارته، فلحق به وأفرغ مشط البارودة الروسية في دواليبه. ولفوّاز هذا أخ أكبر منه عمرًا اسمه منذر، وهما ابنا جميل الأسد، وكان مسرح قصص هذا الأخ الشركات العامة التابعة للدولة، حيث يستولي على آليات الشركات العامة بسائقيها ويفرض عليهم العمل في مشاريعه الخاصة لشهور من دون أن يجرؤ السائق أو المدير على الاعتراض.

وفي تلك الفترة ظهرت «جمعية المرتضى» التي أسّسها جميل الأسد. كانت جمعية بصلاحيات غير محدودة. أحد أقاربي، وكان يكبرني بعام واحد، انتسب إليها لكي يتمكّن من دخول الجامعة على الرغم من تدني مستوى علاماته في البكالوريا. الغالبية الساحقة من أهالي القرية

لم يميلوا إلى الدخول في الجمعية ذات الصبغة الطائفية الواضحة، ولكن من جهة ثانية لم تكن الجمعية شديدة الحرص على انتساب أهالي هذه القرى، إلّا الأشخاص البارزين منهم، فقد كان همّها الأكبر التوسّع خارج المجال الجغرافي والبشري لمحافظة اللاذقية.

أصبح الناس حينها محصورين بين جهة مجهولة وبلا ملامح سياسية، سوى أنها معادية للنظام من ناحية طائفية، تقتلهم بلا تمييز، وبين أشخاص تابعين للنظام وبسلطات غير محدودة يمارسون سلطاتهم وتنمّرهم على الناس بلا تمييز أيضًا. الجهتان في تعايش وخدمة متبادلة، على الرغم من العداء البادي بينهما. طبيعة نشاط الجهة الأولى يدفع الناس للسكوت وابتلاع إذلال الجهة الثانية التي يقود نشاطها ودور الدولة في حمايتها إلى تغذية فرع الجهة الأولى.

في نهاية سبعينيات وبداية ثمانينيات القرن العشرين، بدأت تظهر حركة احتجاجات ضد نظام الحكم في البلاد، تُجاوز عمليات الاغتيال والترهيب التي بدأت منذ العام 1976. شهدت البلاد مظاهرات واضرابات للتجّار في السوق. وشاع الكلام عن إضراب نقابات، كنقابة الأطبّاء والمهندسين والمحامين، وعن حلّ نقابات واعتقالات لنقابيين (بعد سنوات قليلة، وبعد اعتقالي بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سوريا، سيتاح لي اللقاء بهؤلاء النقابيين في السجن، في كركون الشيخ حسن في دمشق، وفي سجن دمشق المركزي في عدرا، وسألمس الفوارق بينهم وبين المعتقلين اليساريين، والشيوعيين بشكل

خاص، سواء في الوضع الاقتصادي - فمعظمهم من الأثرياء - أو العمري، - معظمهم كبار في السنّ - أو النضالي، معظمهم غير مستعد نفسيًا لدفع ضريبة مواقف معارضة لنظام الحكم، أو الفكري والسياسي - معظمهم ذوو ميول إسلامية - أقول معظمهم لأنّ الاستثناءات عن كلّ ما سبق موجودة وإن كانت قليلة). بدا كأنّ الحركة الاحتجاجية الشعبية يومها تتمثّل في طرفين أقصيين من المجتمع، مظاهرات وأحداث شغب تقوم بها الشريحة الأكثر هامشية ويقودها «قبضايات الحارات»، وفي الوقت نفسه اضرابات للشريحة الأعلى في المجتمع من تجّار ونقابيين، وأنّ التنظيم السياسي الذي يتصدّر هذه الاحتجاجات ويولّدها لا يتضمّن في فكره وسياسته ما يتوافق مع مطالب الاحتجاجات الشعبية هذه.

في الإعلام السوري الذي كان حينها يسيطر على المجال الإعلامي بصورة كبيرة قبل بروز ظاهرة الفضائيات والإنترنت، كانت تتواصل الحرب الإعلامية، على شكل عرض اعترافات لأشخاص معتقلين، قيل إنهم من الإخوان المسلمين، يتكلّمون عن علاقات مشبوهة وانحرافات وشذوذات... وفي النشرات والتقارير كانت تتكرّر عبارات «عصابات الإخوان المسلمين، أوكار الإخوان المسلمين، العملاء من الإخوان المسلمين، الدين منهم براء، أعداء الدين والوطن، عملاء الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية...». وشاع عنوان كتاب «الإخوان المسلمون، نشأة مشبوهة وتاريخ أسود»، روّج له إعلام النظام كثيرًا حينها ووضع نسخًا كثيرة منه في متناول الناس. وكَثُرَ التلاعب باسم الإخوان المسلمين، فمن يسمّيهم «الأخوان الشياطين» ومن يسمّيهم «الإخوان غير المسلمين» أو «الإخوان المجرمين» أو «الخُوّان الملثّمين»

وما إلى هذا. وفي المدارس صار يردّد التلاميذ كلّ صباح القسم التالي: «عهدُنا أن نتصدّى للإمبريالية والصهيونية والرجعية ونسحق أداتهم المجرمة عصابة الإخوان المسلمين العميلة».

في اللاذقية حيث كنت أكمل دراستي الثانوية، تعوّدت أن أرى سيّارات الأمن في الشوارع وسبطانات البنادق الآلية الروسية (الكلاشنيكوف) تخرج من النوافذ. سيّارات الجيپ تسير في الشوارع بأبواب مفتوحة ويقف على كلّ باب عنصر أمن وهو يحمل الروسية بيد ويتمسّك بالسيّارة باليد الأخرى. وتعوّدت أن أرى مشاهد الاقتحام حيث يتوزّع عناصر الأمن في زوايا المكان، أو يقفون على جانبي أبواب المحلّات التي كانت مغلقة غالبًا، كما يقف حارس المرمى الذي يتهيأ لصدّ ضربة ركنية. كان الجو العام متوتّرًا بصورة دائمة. أحد أصدقائي سمع أصواتًا في الشارع فحاول أن يستطلع من بيته في الطابق الرابع، وما إن فتح النافذة حتى جاءته رصاصة استقرّت لحسن الحظ في الحائط بجانب إطار النافذة. كان كلّ شيء يُقرأ حينها بدلالة الصراع الجاري. السيّارة التي كانت تحمل كلمة «يصطفلو»، كان يتم توقيفها والتحقيق مع السائق، لأنّ هذه الكلمة شاعت حينها للدلالة على موقف سلبي من طرفي الصراع، النظام السوري والإخوان المسلمين، وكانت بالنسبة إلى المخابرات دلالة على مساندة الإخوان المسلمين، والحال نفسه مع عبارة «فخّار يكسّر بعضه».

أما عناصر الأمن، فقد باتوا يخشون وضع المسدس على الخاصرة خوفًا من تعرّضهم للاعتداء، وعلى الرغم من كراهية الناس وخوفهم من هذه الجماعة المستجدّة المخيفة، إلّا أنهم ارتاحوا لانكسار شوكة رجل

المخابرات واضطراره لإخفاء مسدسه. استفاد عناصر الأمن من عادة أن يحمل الرجل حقيبة يد صغيرة، فهي كافية بالنسبة إليهم لحمل المسدس. في حين كان عنصر الأمن قبل ذلك يحاول بسبل شتى أن يبرز المسدس على خاصرته ليدلّ على أنه من عناصر الأمن «مخابرات»، فيهابه الناس ويعتدي على حقوقهم وينال ما يريد من دون عناء.

في الثانوية التي درستُ فيها، وكانت غالبية الطلاب من منبت علوي بحكم موقع المدرسة وسط أحياء يغلب فيها أبناء هذا المذهب، كان نائب المدير، وهو من خلفية بعثية شباطية (هكذا يسمّى أنصار القائد البعثي السوري صلاح جديد الذي قاد انقلابًا في شباط 1966، قبل أن ينقلب عليه حافظ الأسد في 1970) يصل مبكّرًا إلى المدرسة ويقوم بجولة استطلاع حول سورها من الخارج خشية أن يكون ثمّة عبوة ما موضوعة لتنفجر لدى تواجد الطلّاب في الاجتماع الصباحي. إلى هذا الحدّ وصلت أمانة نائب المدير هذا، وإلى هذا الحدّ وصل الخوف من جماعة يعتقد الناس أنها يمكن أن تُقدم على فعل أي شيء.

كان المدير والموجّهون يكثرون، في تلك الأيام، الحديث في الصفوف وفي الاجتماعات الصباحية عن «عصابة الإخوان المسلمين» وعن «نشأتها المشبوهة وتاريخها الأسود»... وذلك قبل أن نصل ذات صباح إلى المدرسة ونجد الإدارة برمّتها في حالة استنفار. فقد وجدوا إصبع ديناميت في غرفة المدير وقد وُصل إلى فتيل طويل يبدأ من غرفة نائب المدير. مسار الفتيل له دلالة مهمّة. اللافت أنّ الفتيل قد أُشعل ولكنه انطفأ في منتصف الطريق، فبقي الصاعق على علاقة سلمية بالديناميت الذي بقي في حالة رضى عن مكوّنات مكتب المدير.

رفعت هذه العملية من رصيد المدير وجاءت برهانًا على أهمية كلامه وتعريته للجماعة ذات «النشأة المشبوهة».

كنت أعيش وحيدًا في غرفة استأجرها لي أهلي لكي أتابع دراستي في اللاذقية آملين أن يساعد ذلك في تحصيلي علامات عالية تحقّق حلمهم في أن يصبح لديهم في العائلة طبيب، أسوة بعائلة عمّي التي كثيرًا ما كانت تتباهى «بطبيبها»، حتى باتت زوجة عمي تفضّل أن تكنّي نفسها «أم الدكتور» بدلًا من اسمها المعروف من قبل.

وكان أمل أهلي بي يتكثّف على شكل رباط متين يشدّ على عنقي ويضيّق صدري، رباط قوامه طيبة أهلي وتسامحهم وفقرهم. ذات يوم دخل موجّه المدرسة إلى الصف ونادى خمسة طلّاب بالاسم أن يتبعوه، وكنت واحدًا من هؤلاء الخمسة. تبعناه إلى غرفة المَخبر حيث سبقتنا مجموعة أخرى من الطلّاب. بدأ الموجّه، وإلى جانبه مدرّب الفتوّة (ضابط من الجيش منتدب إلى المدرسة لتعليم مادّة «التربية العسكرية» للطلّاب)، حديثه بالمخاطر التي تتهدّد الوطن من عصابة الإخوان المسلمين وأعوانهم الرجعيين، ثمّ انتهى إلى غرضه من جمعنا بالقول:

«اليوم ستشاركون زملاءكم من المدارس الأخرى بفكّ إضراب تجّار شارع هنانو، التجّار هم دائمًا مع الرجعية، ويجب إرغامهم على فتح محلاتهم. من يفتح محله جيّد، ومن لا يفتحه سنكسر القفل وندخله. وأنا اخترتكم لثقتي بكم ولمعرفتي بالتزامكم الوطني».

صمت قليلًا ثمّ قال:

- هل هناك اعتراض من أحد؟

قال ذلك بنبرة المطمئنّ إلى عدم اعتراض أحد.

- لا أريد أن أشارك بهذا أستاذ.

قلت بعد أن رفعت يدي فيما كانت عيون زملائي تنظر إليّ بدهشة.

يبدو أنّ الموجّه غالب دهشته وغلبها، فقال بهدوء:

- في سبب؟

- أريد أن أدرس.

سمح لي أن أعود إلى الصف، في حين بقي الآخرون لكي يستمعوا إلى التوجيهات العملية لمدرّب الفتوة. غير أنّ هذا الموقف وغيره سيكونون ضمن سجلات أنكر ونكير التي سوف تُفتح أوّلًا في الغرف السوداء التي تدير شؤون الطلّاب في جامعة دمشق وسوف تحرمني تمامًا من الحصول على سكن جامعي، حين التحقتُ بها لدراسة الطبّ، وسوف تفتح ثانيًا في أقبية الحساب العسير التابعة لجهاز الأمن السياسي، فقط لتذكيري بما نسيت من سيّىء أعمالي.

الخوف من جماعة الإخوان المسلمين لم يجعل الأهالي يخلطون بين هؤلاء وبين المعارضين الآخرين لنظام حافظ الأسد. ظلّ للمعارضين غير الإسلاميين تقديرهم في تلك القرى. كان أخي وابن عمّي وابن عمّتي وأصدقاء لهم من المنطقة نفسها مطلوبين لفرع الأمن السياسي وأمن الدولة، ثمّ اعتقلوا بعد بضعة شهور من الملاحقة. وفي شباط 1980، حين أفرج نظام حافظ الأسد عن كلّ المعتقلين الشيوعيين

لمواجهة الميل الإسلامي الغالب في المجتمع حينها، خرج أخي من جملة من أُفرج عنهم. لم يكن للأهالي موقف سلبي منه ومن أمثاله. جاء الناس من كلّ مكان يحتفلون بحرّيته، وينتقلون إلى بيت عمّي يحتفلون بحرية ابن عمّي الذي كان في الثامنة عشرة من عمره حين اعتُقل.

بعد عقود من هذه الحوادث، تغيّر الكثير. مع خروج السوريين إلى الشوارع في ربيع 2011 مطالبين بإسقاط نظام بشار الأسد (ابن حافظ الأسد الذي ورث رئاسة «الجمهورية» عن أبيه)، ومع اتّساع حركة الاحتجاجات وبروز مظاهر مسلّحة فيها، انزاح موقف أهالي تلك القرى بالكامل تقريبًا إلى جانب النظام ولم يكن في صدورهم متّسع لتحمّل أي معارضة للنظام من أي لون يكن، تحت طائلة التخوين والاستعداد للمقاطعة والتخلّي وربما القتل. صارت كلّ معارضة للنظام، مهما تكن، تعادل الاصطفاف مع الإسلاميين الذين ظهرت منهم نسخًا أكثر تطرّفًا وطائفية من الإخوان المسلمين.

غرفة القبو

من الشبّاك، الذي سأتذكّره كثيرًا في السجن بالنظر إلى شبهه الشديد بشبابيك السجون، كانت تأتي رائحة المشبّك والعوّامة الحارة، وكانت تأتي أيضًا وبشكل شبه يومي أحاديث صاحبة البيت مع الجارة وهما تتبادلان الأفكار بشأن طبخة الغداء، وتتبادلان المخاوف أيضًا من «عصابات تغتال العلويين ولاسيّما الأطبّاء منهم»، تقول جارتي. وتجيب الجارة الأخرى التي يبدو أنها تتابع نشرات الأخبار: «هذه عصابة الإخوان المسلمين، يتكلّمون باسم الدين ولكنّ الدين منهم براء»، مستخدمة التعبير نفسه الذي لا تكفّ الإذاعة السورية عن تكراره.

حين كنت أستلقي على سريري في تلك الغرفة، كان بوسعي أن أرى أقدام المارة، فأقول لنفسي إنني أحيا تحت مستوى الأقدام، ولكنّ هذه الجملة، وإن كانت واقعية بالمعنى الحرفي، إلّا أنها كانت خارجية تمامًا بمعنى الشعور، كانت مجرّد ألفاظ، فأنا في قرارة نفسي كنت سعيدًا للغاية في هذه الغرفة التي تحتاج للوصول إليها إلى هبوط ثلاث عشرة درجة سحبة واحدة ثمّ ثلاث درجات منحرفات بزاوية قائمة عن أخواتها السابقات.

كان من أسباب سعادتي بهذه الغرفة أنها قريبة من المدرسة، فلا يفصلها عن «ثانوية الشهيد رفيق سكيف» سوى شارع واحد برصيفين ضيّقين، وأنّ بائع المشبّك كان يتّخذ من مدخل البناية التي تنتمي الغرفة إلى قبوها، مكانًا ثابتًا لعمله. ولكنّ السبب الأهم هو أنني لم أكن وحيدًا في الغرفة، فقد سكن معي أخي الشيوعي الذي خرج حديثًا من سجن المزّة ويريد أن يكمل دراسته الجامعية في كلية الهندسة الزراعية في اللاذقية. ولم يكن مصدر سعادتي بسكن أخي هذا معي يتأتّى فقط من حبّي له ومن طيب معشره، بل من تعرّفي إلى أصدقائه الذين كنت أحبّهم سلفًا لمجرّد أنهم أصدقاء أخي، وأنهم يضعون أنفسهم في خدمة قضية عامة. كان علي أحمد واحدًا من هؤلاء الأصدقاء، فقد قضى ثلاثة أعوام في «سجون حافظ الأسد» كما كان يقول، لأنه كان في صف صلاح جديد وبقي على موقفه بعد أن صار هذا في «سجون حافظ الأسد» أيضًا. كنت لا أشبع من تأمّل ذلك الشخص، وأنا أحاول أن أستجرّ من ملامحه ومن تعابير وجهه جوابًا على السؤال الذي بقي يخزّني في خاصرتي: «كيف يمكن له أن يقضي ثلاث سنوات في السجن؟ وكيف يتكلّم ويضحك ويسخر ويتابع حياته بعد ذلك؟» كما كنت سعيدًا بالأحداث الجذّابة والمثيرة التي يسبّبها سكني مع أخي الشيوعي.

أخي هذا كان في حيرة شديدة بعد أن أفرج عنه في العفو العام الأوّل والأخير عن الشيوعيين السوريين. فقد كان حائرًا بين رغبته في مواصلة العمل السياسي مع رفاقه وبين خوفه من العاقبة. ثمّ بين قوّة جذب زوجته وحياته العائلية الهانئة وخوفه على طفله، وبين جاذبية

العمل المعارض ومتعة العيش مع رفاق يربطك بهم مصير واحد وخطر مشترك. ثمّ بين الجبن والإقدام. بين هذا وذاك، عاش أخي تردّدًا ثقيلًا، وعجز عن اتخاذ القرار، وأراد أن يبقى في منطقة لا وجود لها بين الاستمرار والتراجع.

ذات يوم عاد إلى الغرفة مساء بعينين مضطربتين. وقبل أن يجلس على الكرسي، أخرج من داخل قميصه ورقة مطوية وقال: هذا منشور للرابطة (رابطة العمل الشيوعي) يجب أن نحرقه. وكانت الرابطة تلك هي حبّي المؤجّل. أردت أن أحتفظ بالمنشور لأقرأه، ولكنه أصرّ على حرقه ووعد بتأمين نسخة أخرى في ما بعد. كان الخوف يخطف بريق عينيه. أحرقت الورقة في الحمام، كما أراد، وعدت أسأله عن القصّة. قال لي إنه كان يوزّع مناشير للرابطة في حي الرمل الشمالي، وأنه احتفظ بمنشور لكي نقرأه، غير أن هذا سلوك خطأ من الناحية الأمنية وكان لا بدّ من التخلّص منه. حين أنهى جملته، وتأكّد أني أحرقت المنشور بالفعل، نهض واستلقى على السرير بحذائه. وبعد وقت قصير علا صوت خطوات كثيرة على درج القبو ثمّ رنّ جرس الغرفة.

فتح أخي الباب. فوجد مجموعة عناصر مسلّحة بلباس مدني على الباب، وبينما كان دمنا يتجمّد ويتعثّر في سيره، ألقى رئيس المفرزة سلامًا باردًا متوعّدًا وسأل على الفور:

- وين المناشير؟

- أي مناشير؟ (سأل أخي بصعوبة).

- المناشير اللي كنت عم توزّعها.

- أجاب رئيس المفرزة ببرود.

- ما وزّعت شي سيدي، أنا ما صدّقت طلعت من السجن!

أعطى رئيس المفرزة أمره بتفتيش الغرفة. ولكنّ الغرفة كانت نظيفة. وحين لم يجدوا شيئًا، قال رئيس المفرزة:

- أكيد ما كنت عم توزّع مناشير؟

ارتاح أخي للسؤال الذي يحمل علامة صريحة بأنّ رئيس المفرزة لا يملك أيّ معلومات أو دليل ضده. فقال باطمئنان هذه المرّة:

- طبعًا أكيد.

انسحب العناصر وبقي رئيس المفرزة. قال إنهم بينما كانوا يقومون بجولة روتينية في الحي وجدوا المناشير ملقاة على الأبواب، فقال في نفسه ربما كان أخي يحنّ من جديد إلى النوم في السجن. بعد ذلك ألقى موعظته عن الالتفات إلى العائلة، وعن مخاطر العمل السياسي، وعن ضرورة إنهاء الدراسة... وختم بصيغة أبوية: «لازم تهتم بحالك وتنسى السياسة». قال أخي: «سوف أنسى السياسة، سأنسى حتى اسم رئيس الدولة». لحق رئيس المفرزة بعناصره بعد هذا التأكيد من أخي. وبقيتُ وأخي نتبادل النظرات من دون أن نجرؤ على الكلام. وظلّ السؤال: كيف عرفوا الغرفة ونحن حديثو العهد فيها؟

وما إن عاد أخي للاستلقاء على السرير من جديد ليرتاح من هول هذه الكبسة، حتى رنّ جرس الغرفة مجدّدًا. فتحت الباب فاندفع صديق أخي علي، ووضع الكيس الذي كان يحمله على الطاولة، والذي يحوي

كالعادة علبتي سردين وجُرزة بصل أخضر وحبّة ليمون حامض، ثمّ نظر إلى وجه أخي مليًا قبل أن يسأل:

- كانوا المخابرات هون، ما هيك؟

- إي، كيف عرفت؟

- أوّلًا، واضح من صفار وجهك إنت وأخوك، ثانيًا كنت بطريقي لهون، وفجأة وقفت سيّارتن بجنبي، وسألني رئيس المفرزة اللي بيعرفني من إيام السجن، وين رايح، قلتلو رايح لعندك، فطلب مني دلّو على بيتك.

لعنك اللّه، هل كان من الضروري أن تقول له إنك قادم إلى هنا؟

- بشرفي ارتبكت وما عرفت أكذب.

ثمّ اندفع إلى المطبخ يفتح علبتي السردين بهمّة وهو يدندن بلحن مرتجل: «يلعن أبو المخابرات».

غير أنّ الزيارة التي حفلت بها غرفة القبو، والتي لم تكن أقلّ وقعًا من زيارة دورية المخابرات، كانت زيارة شخص قصير ونحيل بكاسكيت على الرأس وعينين تميلان إلى الجحوظ. كانت زيارته قصيرة للغاية. لم يجلس. فقط تأمّل الغرفة لفترة وجيزة، سأل أخي عن الأحوال وسألني، بعد أن عرّفه أخي بي، عن أحوالي وعن دراستي وفي عينيه نظرة تنمّ عن اهتمامٍ وحرص تريح الشخص الذي أمامه. ابتسم ومسح الغرفة بعينيه ثمّ خرج من دون إبطاء. رافقه أخي إلى أعلى السلّم. وبقيت أنا أتساءل من يكون هذا الشخص الذي يتعامل معه أخي بهذا التقدير الظاهر الممزوج بما يشبه الخوف.

حين عاد أخي سألته عن الرجل، فلفظ الاسم الذي لطالما سمعت به ورسمت له في خيالي صورًا وأشكالًا بطولية. «إنه فاتح جاموس»، قال أخي وكأنه يتخلّص من لقمة حارة في فمه، وفي الوقت نفسه بدا عليه نوع ركيك من التباهي بهذه الزيارة الشخصية من رجل له في بيئة رابطة العمل الشيوعي غيمة من الجلالة، وله بالتأكيد قيمة مضافة لدى شخص يقوده خوفه، أكثر من قناعاته، إلى الكفّ عن العمل السياسي المعارض.

مسرح في القرية

أخي بركات الذي تعوّد أن يفتح الآفاق ويقعد عن بلوغها، فتح لنا أفقًا جديدًا اسمه المسرح. لعبة بسيطة وبالغة التأثير في الوقت نفسه. حمل بركات هذه النار من المدينة إلى القرية. قطف الشعلة من المركز الثقافي في اللاذقية، حيث شارك وهو في الثانوية بمسرحية لعب فيها دور الفدائي، وجاء بها إلى كفرية، القرية التي لم يكن يصلها بالعصر الحديث سوى مدرسة ابتدائية كانت من قبل بيتًا للمسيو رينيه الفرنسي، مدير شركة الأسفلت، يأتيها أستاذ أو أستاذان من خارج القرية، وسيّارة أجرة من نوع لاندروفر رمادية تحمل دولاب احتياطٍ على بابها الخلفي، تنزل صباحًا إلى المدينة وتعود مساء.

نجح بركات، مع مجموعة من أقرانه من أبناء القرية، في عرض مسرحية أمام أهالي القرية من إعدادهم وإخراجهم. مسرح مرتجل، يضيئه مصباحان يشتعلان بالكاز، معلّقان على جانبي المسرح. أمّا أجهزة الصوت، فهي مسجّلة مستعارة من بيت أبي مسرور، وخشبة المسرح هي مصطبة متبقّية من الزمن الفرنسي، بجانب البئر القديمة التي كانت تشرب منها عائلة الخواجة الفرنسي رينيه، والذي تحوّل بيته في ما بعد

إلى المدرسة الابتدائية للقرية. الستارة هي شراشف خِيطَ بعضها إلى بعض. صالة الجمهور هي الباحة الخلفية لهذا البيت الفرنسي الطراز. والجمهور هو عائلات القرية القادمين يدفعهم الفضول لرؤية هذا الحدث الذي يخرج بهم قليلًا من بلادة وقتهم، وروتين أيامهم. يأتون لرؤية هذا السحر العجيب الذي يخترعه أولاد قريتهم قياسًا على ما رأوا في مدينة اللاذقية حيث يدرسون، وقد تفتّحوا بعد أن خرجوا من حدود القرية إلى عالم ساحر بذاته اسمه المدينة. أهل القرية يطلقون على المدينة اسم «البلد»، وكأنّ المدينة تختصر البلد.

مع غروب الشمس امتلأت «الصالة». مسرح الهواء الطلق سيبدأ عرضه الأوّل. الستارة مسدَلة. يمكن أن ترى ظلال حركة نَشِطة خلف الستارة بفعل الأضواء. الموسيقا تنبع من وراء الستارة وتترك أثرًا في النفوس. الجميع مسحور ومترقّب. حتى الأطفال كانوا مشغولين بهذا الحدث الغريب عن البكاء أو الصراخ. هدوء وموسيقا وترقّب، وقلبي راح ينتفض مثل عصفور دوري حبيس.

كان مثيرًا إقبالُ الأهالي على مثل هذا النشاط. اعتراف الكبار بنشاط الشباب له قيمة خاصة، وينطوي على طاقة لا يدرك قيمتها سوى الشباب.

حين توقّفت الموسيقا توقّف تنفّسي. سوف تفتح الستارة إذن، وسنرى ما وراءها، سنرى هذه اللعبة الجديدة، هذا الابتكار المشوّق إلى حد قطع النَفَس. الستارة تفتح الآن. الممثّلون يبدون بلباس غريب، لباس أهالي وملك وحرّاس. الأهالي يحتجون في ما بينهم على فيل

الملك الذي يدوس مزارعهم، ويقرّرون الذهاب إلى الملك للشكوى من هذا الفيل. لم أكن وحدي مَنْ سرقته الدهشة واستولت عليه. كانت «الصالة» في صمتٍ تام. كيف يحدث أن يفتح لك هذا اللعب البسيط، هذا التمثيل، بابًا للدخول إلى عالمٍ آخر؟ كيف يخرج هؤلاء الشباب الذين نعرفهم، من هُويتهم المعروفة إلى هوية جديدة تطمس الأولى وتطغى عليها؟ لم يعد هؤلاء الشباب هم أصدقاء أخي الذين يملأون بيتنا دائمًا، يضحكون كثيرًا ويتكلّمون كثيرًا ويجعلون بيتنا أجمل وأكثر أُلفة. باتوا ممثّلين يلبسون أشكال غيرهم وأرواحهم، حتى أنني نسيت أنّ هذا هو أحمد ابن خالي، واقتنعتُ الآن أنه الملك المهيوب، وأنّ هذا هو يونس الصديق المقرّب لأخي، واقتنعت أنه من فقراء البلدة التي تحتج على فيل الملك.

الرجل الذي تبرّع في أن يخاطب الملك قال له متأتئًا: «إنّ الفيل... يا مولانا، إنّ الفيل...». فصاح به الملك: «ما به الفيل؟ تكلّم!»، تردّد الرجل وارتبك ثمّ التفت خلفه، وحين لم يجد وراءه أحدًا من الناس الذين أرادوا الاحتجاج معه على الفيل، قال: «إنّ الفيل وحيد يا مولانا، ونحن نريد منكم تزويج الفيل». عندها انكسر صمت الصالة بالضحك، وساد ضحك الأطفال على ضحك الكبار. وراحت الستارة تغلق من جديد، ومن تحتها تبدو أقدام الشابّين اللذين يجرّانها.

مشهد آخر سَخِرَ من المشكلات التي تدفع أهالي القرية لقطع العلاقات في ما بينهم. ومشهد فكاهي بعده يقلّد فيه يونس طريقة سليم حانا في التأتأة، وكيف تستعصي الكلمة على نطقه فلا تخرج إلّا بأن يضرب بيده على رأسه، ومع كلّ ضربة كان ضحك الأطفال يعلو فوق

ضحك الكبار. ولكنّ الخاتمة كانت هي الأجمل، إنها الدبكة على أغنية فيروز «القمطة العنبية». اللباس الموحّد للشباب، والحركة الموحّدة والمتّسقة مع صوت فيروز، كانت متعة لا تنسى.

انتهى العرض، وخرج هؤلاء الشباب من لباسهم المسرحي ومن أدوارهم، وعادوا أليفين كما نعرفهم. اكتشفنا أنّ هناك سحرًا بسيطًا وفي المتناول، يكفي أن تتخيّل وأن تدخل في الخيال وتتصرّف كما يملي عليك. هكذا تخرج من حالك وتتبع خيالك فتصبح ببساطة ملكًا أو فارسًا أو متسوّلًا أو ما تشاء. طالب الأهالي بعرض المسرحية مرّة أخرى. وطالبت قرى مجاورة بعرض المسرحية لديها. في الصيف التالي أعدّ هؤلاء الشباب مسرحية أخرى، حكوا فيها عن فلسطين، ورقصوا فيها، في النهاية، على موسيقا «رقصة بحارة بور سعيد». كان الرقص معقّدًا أكثر هذه المرّة، وممتعًا أكثر. بعد كلّ مقطع من الرقص الجَماعي، ينفرد أحد الشباب برقص منفرد مع مقطع الموسيقا السريعة.

لكن قبل أن يستمتع الجمهور القروي بهذه الرقصة، كان المشهد الأخير في المسرحية قد جعلهم يبكون على شاب أصيبت عيناه في معركة مع العدو (كانت كلمة العدو حينها كافية للدلالة على إسرائيل) وأخبره الطبيب بعد الكشف عليهما أنه فقد بصره إلى الأبد.

احتجاج مبكر

ربما لأنّ القرية المجاورة لقريتنا كانت مليئة برجال الدين (المشايخ)، لم تلد قريتنا مشايخ. ولم يكن هذا يُحسَب في ميزان حسناتها. عوضًا عن المشايخ أخرجت قريتنا معارضين للنظام السياسي، أو أشخاصًا «ضد الوضع» بحسب تعبير زينو الفرّان. وهذا عزّز من وضع قريتنا على اللائحة السوداء في المحافظة، على الرغم من أنها لا تفتقر، كغيرها من القرى، إلى جيش من المخبرين والباحثين عن الكسب على حساب أهل قريتهم وعلى حساب أقربائهم أو أهلهم حتى.

لو كان ميزان حسنات قريتنا راجحًا لكانت هي المرشّحة لاحتضان المدرسة الإعدادية التي تقرَّر افتتاحها لطلّاب تجمّع القرى الذي يضمّ قريتنا، لأنها القرية الأكبر بينها. لكن تقرَّر أن تكون المدرسة في قرية المشايخ التي تقع على قمة جبل ولذلك سميت «تلّة»، والتي، لحسن حظّها، لم يخرج منها معارضون سياسيون للنظام كقريتنا. وللتغطية على صِغَر هذه القرية وعدم توافر عددٍ كافٍ من طلّاب الإعدادية لافتتاح المدرسة فيها، منع طلّاب قريتنا من دخول مدرسة وطى الخان التي كانوا يدرسون فيها، لكي يُجبروا على الالتحاق بمدرسة تلّة.

كان الوصول إلى تلّة عسيرًا ولا توجد وسيلة نقل بين القريتين، فيما كان الوصول إلى مدرسة وطى الخان أيسر، لأنها تقع على طريق السيّارات الذاهبة والعائدة من اللاذقية. هذا فضلًا عن المرارة التي بقيت في قلوب أهالي قريتنا بسبب حرمانهم ظلمًا من المدرسة الإعدادية، هذه المرارة التي يمكن أن تدفع الأب إلى إرسال ابنه للدراسة في الصين على أن يرسله إلى تلك المدرسة المسروقة. لكن ماذا سيفعل الأهالي أمام قرار منع طلّاب قريتنا من الدراسة؟

يوم السبت، اليوم الأوّل من تنفيذ منع التعليم في مدرسة «وطى الخان»، كان بركات متجهًا إلى جامعته في اللاذقية بعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في القرية، ولكنه نزل من سيّارة القرية التي كانت تتجه صباحًا إلى اللاذقية، وبدل أن يمضي إلى جامعته في اللاذقية، اتجه مع الطلاب «المطرودين» الذين كانوا يملأون السيّارة نفسها، إلى المدرسة.

وقف جانبًا بينما كان مدير المدرسة يطلب من طلّاب قريتنا العودة إلى بيوتهم لأنهم ممنوعون من دخول مدرسته. عندها توجه بركات إلى المدير بصوت عال: «ولكن من حقّهم أن يدرسوا أينما شاؤوا». اكتفى المدير بأن نظر باستخفاف إلى صاحب الاحتجاج ودخل غرفته مغلقًا باب المدرسة. فما كان من بركات إلّا أن التقط حجرًا ورماه باتجاه زجاج الإدارة. كان هذا الحجر، بدون تخطيط أو اتفاق مسبق، مثابة إشارة البدء.

صارت غرف المدرسة هدفًا لحجارة طلّاب القرية الممنوعين من الدخول، غيظ كامن وجد طريقًا للظهور. الطلّاب الذين في الداخل

وجدوا في هذا الحدث تسلية وفرصة للتخلّص من عبء الدروس، وراحوا يصرخون، حتى تحوّلت المدرسة إلى فوضى كاملة، لم يجد المدير أمامها من حلّ سوى الاتصال بمخفر الشرطة المجاور.

حين وصل رئيس المخفر كانت المدرسة في هيجان وفوضى، ولاحظ بين الطلّاب شابًا أكبر عمرًا ويبدو أنه المحرِّض. سأل رئيس المخفر بركات عن اسمه، فأجاب أنّ اسمه «جورج»، وحين سأله عن الكنية قال «إسبر» وهي كنية رئيس المخفر التي كان يعرفها الجميع، وعن السؤال لماذا جاء إلى المدرسة قال إنه مجرد «عابر سبيل»، كلّ هذا وسط هرج الطلّاب وضحكهم. كان رئيس المخفر هادئًا، فطلب من المدير إدخال الطلّاب، ومن بركات مغادرة المدرسة.

ظلّ هذا الاحتجاج علامة بارزة في سجلّ بركات في القرية، ومؤشّرًا على «نزعة ثورية» سوف يدفع ثمنها لاحقًا. لكنّ الأرض التي وقفت عليها «بطولة» بركات في ذلك اليوم، كانت حكمة رئيس المخفر، وذلك قبل أن تصبح يد أجهزة المخابرات الثقيلة هي الموكّلة بالتعامل مع مثل هذه القضايا التي تحمل رائحة لا تطيقها تلك الأجهزة، هي رائحة التمرّد.

قيد الأم

جمعنا الهَوَس بكرة القدم، وتشجيع نادي القادسية (بعد أن اختار صدام حسين، الخصم اللدود لحافظ الأسد، اسم القادسية لحربه مع إيران التي اندلعت في العام 1980 واستمرت ثماني سنوات، سيتحوّل اسم نادي القادسية إلى نادي تشرين). قوة غريبة جعلتنا نتجاوز عن كلّ شيء، عن المدرسة والأهل والنقود...، للذهاب إلى اللاذقية وحضور مباراة اليوم بين فريق القادسية وفريق الاتحاد الآتي من حلب.

مدينة اللاذقية ليست قريبة، والنقل إليها ليس متوافرًا، ولا وقت المباراة مناسبًا. فحضور المباراة يعني العودة إلى القرية ليلًا ونحن في الصفّ الثامن. هذا يعني أننا سنقطع في الليل مسافة أربعة كيلومترات في منطقة أحراش خالية من السكن يهاب حتى الكبار عبورها ليلًا، للوصول إلى القرية. لكنّ توقع المتعة التي ستغمرنا طوال المباراة طغى على ما عداه. كيف يمكن أن تفوتنا مراوغات سيف الدين إسكية برقبته القصيرة وحدبته الخفيفة وبتلك السرعة العجيبة في الجري وتسديداته المفاجئة. أو كيف يمكن أن تفوتنا حركات الدبلكيك المدهشة التي يؤدّيها عبد الله الواوي، أو البهلوانيات الجمبازية لحارس

المرمى عدنان السنكري، أو السلوكيات غير المتوقّعة للمدرّب أبي علي شمّا من طريقته في توجيه اللاعبين إلى احتجاجاته على الحكم إلى حركات الانفعال الخاصة به طوال فترة المباراة... مُتَعٌ وإثارات لا تنتهي.

لن تحتمل قلوبنا أن تفوتنا الإثارة الخاصة للقاء هذين الفريقين. غالبًا ما انتهت اللقاءات السابقة بينهما بفوز الحلبيين، فلديهم رأس الحربة المهاجم أحمد وتد الذي يجمع بين حرارة الحركة وبرودة الأعصاب، فهو المهاجم الوحيد الذي كنت أخشى على حارسنا السنكري منه. لا أنسى كيف صبّ هذا اللاعب الماء البارد على آلاف المشجّعين القادسيين، بحركة بسيطة من قدمه، حين انفرد بالسنكري الذي خرج من مرماه وألقى نفسه بليونته ورشاقته المعهودة على الكرة التي كانت بين قدمي الوتد، فما كان من هذا إلّا أن نقر الكرة بقدمه ببرودة أعصاب قاتلة لكي ترتفع فوق الحارس وتكمل طريقها إلى المرمى، فيما كان حارسنا يحتضن الريح. ولديهم قلب الدفاع عبد الغني طاطيش، أو حائط الدفاع كما كان يسمّيه عدنان بوظو، وهو صاحب أقوى قدم يمكن أن يهبها اللّه للاعب. لكن مع ذلك، قد يتغيّر الحال اليوم ونفوز.

دخل فريق القادسية لاعب جديد اسمه مظفّر جرار، شكّل مع سيف الدين إسكية ثنائيًا هجوميًا متفاهمًا وفعّالًا ويمكن أن يقلب التوقّعات ويحقّق القادسية فوزًا على الاتحاد. كيف لإنسان أن يتجاهل كلّ هذه المُتع والإثارات ويمضي إلى بيته كما يمضي في كلّ يوم آخر؟

هربنا من الحصّة الأخيرة في المدرسة، ووقفنا على الطريق التي تصل اللاذقية بحلب، ورحنا نؤشّر للسيّارات العابرة، لكن بلا جدوى. في

هذا الوقت كنا نتبادل التوقّعات والتصوّرات المثيرة التي يمكن أن نراها اليوم. هكذا كنا نقضي أضعاف وقت المبارة في التوقّعات قبل المباراة، وأضعاف الوقت في التحليل واستعادة اللقطات والانبهار بالمهارات والتفنّن في إعادة سرد اللقطة... لكنّ خلافنا في التحليلات وتصنيف اللاعبين كان يستهلك الوقت من دون أن يزول، ومن دون أن يرتوي شوقنا لمزيد من الجدل.

أخيرًا استجاب أحد الباصات الآتية من حلب لإشاراتنا. توقّف بعيدًا منّا بضعة أمتار، ونزل المعاون يحثّنا على الإسراع. صعد أصدقائي الأربعة. أما أنا، فقد راح يسيطر علي التردّد بينما كنت أركض متجهًا إلى الباص، حتى إذا وصلت إلى الباب لم تطاوعني نفسي في الصعود. انطلق الباص بصوت شخيره العالي، التفت أصدقائي نحوي مستغربين عدم التحاقي بهم.

مشيت عائدًا باتجاه طريق قريتنا. كان الطلّاب على وشك الخروج من الحصّة الأخيرة. السعادة التي غمرتني كانت أقوى من المتعة التي خسرتها وأقوى من شعوري بالخجل من خذلاني لأصحابي.

أثقل خطاي باتجاه الباص، القلقُ الذي تصوّرته في عيْنَي أمي، حين سيعود الطلّاب ويهبط الليل من دون أن أعود، ومن دون أن تعلم أين أنا. أيّ خوف وأيّ أفكار سوداء وأيّ ألم سيشمل روحها! كان منبع سعادتي هو أنني حرّرت أمي من هذا القلق، سعادة تشبه سعادة التضحية.

حين أسترجع تلك اللحظة، أدرك أنّ حرصي ذاك على أمي ينبع من

تسامحها. لو كانت قاسية لكان في نفسي ربما ميل لمعاقبتها بغيابي المقلق. يجعلني هذا أقول: يظهر قيد الأم حين لا تكون الأم قيدًا.

بين تمرّد الفتوّة وتوقها للانطلاق بلا قيد، وبين الشعور بالمسؤولية تجاه من تحبّ ومن يفتح لك الأبواب ولا يجعل نفسه قيدًا لك، تتوتّر الروح. يتحوّل اللاقيد إلى قيد لك، تمامًا كما يتحوّل القيد إلى دافع للتمرّد وكسر القيد. هناك تشابه وإن كان معكوسًا. الحرية تولّد في الذات الواعية حدودًا لها، لأنها تولّد في الوعي إدراكًا للمسؤولية يعطي الحرية شكلها أي حدودها، فيما التقييد يولّد رغبة عارمة في التحرّر، رغبة قوية إلى الحدّ الذي يجعلها عمياء فتطمس أيّ مسؤولية، وتتحوّل إلى قوّة تدمير. في هذا الممرّ الضيّق بين القيد والحرية تتطوّر البشرية وتنمو. وفي هذا الممرّ وُلِد تردّدي ونما قراري في لحظات، وتحدَّد خياري.

سكينة

لو كان اسمها «جميلة» لكان لها من اسمها نصيب كبير، لكن لا نصيب لها من اسمها الحقيقي «سكينة». في قلبها قوّة وتمرّد. معتدلة الطول باكتناز. إذا وضعنا جانبًا مشيتها التي تجمع القوّة والثقة إلى الغنج، فلن نعثر على شيء آخر مميّز فيها. غير أنّ وجهها مكمن فتنتها. وجه مستدير ممتلئ بفم صغير مزموم بريء، وأنف روسي شامخ وعينان صغيرتان ساحرتان برموش طويلة مقوّسة. في حركة تينك العينين وفي لونهما الخاص العميق ما يفترس براءة الفم ويوظّفها بنجاح في نظام الجاذبية الخاص بها. شعرها طويل غزير فيه تموّجات واسعة، كانت تكتفي بربطه بمطاطة من الخلف كذيل الفرس، فتبرز مساحة وجهها وتبدو آسرة.

لا شيء من خلق الطبيعة يقنعها بالعظمة أكثر من الرجل، فهو في نظرها تاج الطبيعة ونتاجها الأجمل. كلّ ما عداه إنما هو تمهيد له وتهيئة لحضوره ومكمّلات لسحره. ليس كلّ الذكور رجالًا. إنّ لها معيارًا لا يشبه المعايير المستقرّة. الرجولة روح تشرق في الجسد وتضيئه، مهما يكن الجسد ضئيلًا أو قليل الجمال. الرجولة هي معيار الجمال وليس

العكس. وحين يكون الذكر مشبعًا بالرجولة، أو مضاءً من الداخل بذاك السحر الرجولي الذي ينعكس في الحركة والالتفاتة والسلوك والكلام، ويخرج قويًّا صافيًا في التماعة العين، فإنّ سكينة تمتلئ بالرضى، كما يرضى المعجب حين يرى كمال أداء فاتنة.

سكينة ليست دائمة التذمّر. على العكس، فهي قليلة الشكوى، وتبدو لمن لا يعرف طبعها، راضية دائمًا. لكنّ رضاها يبقى ناقصًا، وتشعرك بهذا من دون أن تدري كيف. دائمة الضحك والنشاط والمرحَ لكنك تشعر، مع ذلك، أنها قادرة على أن تكون أكثر حيويةً ومرحًا، كأنّ شيئًا ما يحتجز جزءًا من طاقتها الروحية.

ترضى سكينة حين تعثر على ما تراه زهرة الطبيعة واكتمالها، أي على الرجل المشبع بالرجولة، وحين ترضى فإنّ روحها المُحتجَزة تتحرّر كطاقة لطيفة وتملأها بمزيد من الجمال والحيوية. حينها بوسعك أن تدرك الفرق. توحي لك نظرتها الراضية أنّ الطبيعة نفسها ترضى حين ترضى هذه المرأة عن خلق الطبيعة. أو أنّ الطبيعة تتباهى حين تُعجب سكينة بها. حينها تصبح سكينة جاهزة لوضع كلّ الأشياء «الاجتماعية» جانبًا، وتنحاز بكاملها إلى «الطبيعة»، إلى تاج الطبيعة وفخرها. ليس لأنّ قوّة الطبيعة لا تُقاوَم، بل لأنها قوّة تستوجب التقدير ويجب أن لا تُقاوَم.

كان وديع رجلًا في معيار سكينة التي كانت «ترضى» حين تراه. ما يجمعهما أنه ليس لأيّ منهما نصيب من اسمه. رجل نحيل يميل جسمه قليلًا إلى اليسار بفعل التواء خفيف في عموده الفقري، يجعل

مشيته محاولة مستمرة للاستقامة أو تصحيحًا مستمرًّا للانحراف. يداه كبيرتان تشيان بحسب الاعتقاد السائد بكِبَر أعضاء أخرى لديه. يميّزه صوته المبحوح الذي لا ينسجم مع طبيعته القاسية أو غير الاجتماعية إلى حدود قريبة من الإجرام.

كان هذا الرجل إذا شرب قهوة عند أحد ما، فإنه يقرط الفنجان مع الشفة الأخيرة من القهوة، حتى بات الجميع يعرف الفنجان الذي سبق أن شرب منه وديع. ربما يريد من سلوكه هذا أن تضطرّ ربّة البيت إلى رمي الفنجان المقروط، فيتحقّق له التميّز بأن لا يشرب أحد بعده من الفنجان، كما يفعل الأعيان حين يكسرون الفنجان بعد الشرب منه. إذا وضعت أنثى الحمار مولودًا في موسم الحصاد في القرية وانشغلت به، فإنّ مالك الحمارة لا يقصد إلّا وديع ليخلّصه من المولود، وكان يبدو أنّ تحرير روح الحمار الوليد من جسده هواية عند هذا الرجل، يتفنّن في ممارستها، كأنه يتخلّص من طاقة عدوانية كامنة فيه. ليس في سجلّه جريمة قتل أبدًا، ولكن في تعابير وجهه ما يوحي لك أنه جاهز للقتل في أيّ لحظة. على أنه إلى جانب هذا الخيط العنيف في شخصيته، يحتفظ بقدر كبير من الكرم والاستعداد للمساعدة. الشيء الذي لا يحتمله هو الإهانة. أن تهينه يعني أن تتوقّع الأذى منه على الفور أو بعد حين لا يطول.

شاع في القرية أنّ لأخته المتزوجّة من رجل مسكين علاقة جنسية مع رجل آخر اسمه زيدان. ليس في مقدور أحد مقاومة الشائعة، إنها كائن زلق لا يمكن الإمساك به. إذا تعرّض وديع لزيدان بالأذى فإنه سوف يزيد من قوّة الشائعة، وكذا الحال إذا تعرّض لأخته. يقول وديع

إنّ المَخرج من هذه الورطة جاءه قبل أن يبحث عنه. جاءه الحلّ يمشي على قدمين، الأولى هي أنّ زيدان أخو سكينة، والثانية هي أنّ وديع رجل مكتمل في عيني سكينة.

سيواجه الشائعة التي تنتهك عرضه وتهينه بأخرى تنتهك عرض زيدان وتهينه. قد تكون علاقة أخته بزيدان شائعة، ولكنّ العلاقة التي ستجمعه بسكينة لن تكون مجرّد شائعة.

لا يمكن لسكينة أن تقاوم اكتمال الطبيعة المتجسّد في رجل اسمه وديع. كيف لها أن لا تفتح الباب لهذا الطارق الذي اختار الفجر موعدًا لقدومه، عقب خروج زوجها إلى عمله الباكر في أحد الأفران؟ تلك هي سكينة، كلّ ما هو اجتماعي مهما بلغ من شأن، يتنحّى في نظرها، لكي يفسح في المجال أمام زهوة الطبيعة وتفتّحها النضير.

في لحظات يصبح بيت سكينة محلًا لمزيج نادر من الألوان والروائح، تختلط رائحة نوم الأولاد مع رائحة حبّ جارف، يختلط لون براءة النوم مع لون الطلب العميق والاشتهاء الغامر. في الجوّ غيمة من بخار قوّة مصهورة بحرارة الإعجاب. الاستسلام للرجولة هو ذروة التعبير عن قوّة الأنوثة، الاستسلام هنا هو القوّة في عُرف سكينة. أن تضيع الحدود بين أن تهدي نفسها إلى الرجولة، أو تهدي الرجولة المتجسّدة إلى نفسها. من هو هدية لمن؟ من يبحث عن من؟

كانت تلك المرّة الأولى التي يدخل فيها وديع بيت سكينة، لكنه دخل كأنه يدخل إلى بيته، وأدخلته سكينة كأنه صاحب البيت وربّه. يشعّ من عينيها ذلك الإعجاب أو الرضى، ومن عينيه ذلك التصميم.

لغة لا تحتاج إلى كلام. تسقط كلّ الأسئلة العادية التافهة: هل رآه أحد من الجيران؟ ماذا لو استيقظ أحد من الأولاد؟ ماذا لو عاد الزوج وقد نسي أمرًا ما؟ ماذا وماذا... في لحظات تصبح سكينة جاهزة لكي تستقبل رجولة وديع، وفي لحظات كان عريّها وسمرة بشرتها وانحناءات جسدها وليونة حركتها تتسرّب كالسحر عبر عيني وديع وتزيد من اشتعال رجولته، ثمّ صارت تتسرّب عبر كلّ حواسه. كان اشتعال وديع بها يزيدها اشتعالًا، كأنما يُقدم على وليمة لطالما انتظرها. جرى كلّ شيء كما لو أنه تنفيذ لمخطّط مرسوم ومدروس مسبقًا. من دون تردّد، من دون كلام. إنها الطبيعة وهي تنتشي بذاتها.

بعد ذاك الحدث المشحون بأصوات عميقة والخالي من الكلام، جلس وديع لكي يشرب القهوة ويدخّن سيجارته. لأوّل مرة يشرب وديع قهوة من إعداد سكينة، قرط شفة الفنجان قبل أن يضعه على «الطربيزة» ويغادر. القبلة التي أودعها على فمها الصغير قبل أن يفتح الباب ليخرج، جعلتها تحذف سؤالًا مقلقًا برز في ذهنها عن تلك النظرة المبهمة التي خرجت من عينيه وهي تقدّم له فنجان القهوة، وجعلتها تقول له بمزيجها الخاص من الثقة والدلال: «نسيت أن أسألك إن كنت أتيت لأمر آخر».

حين خرج وديع كانت ذرّات الضوء بدأت تتغلغل في نسيج العتمة كالغبار. يخرج وديع، وقد صار في الفضاء ما يكفي من الضوء لتمييز الرجل عن المرأة. سار باتجاه بيته بالطريقة التي تميّز مشيته عن جميع رجال القرية، تصحيح مستمر لاعوجاج مستمرّ. يبدو ذلك كأنه تناوب بين خطوة قصيرة وأخرى واسعة. هناك عيون استغربت وجوده هنا

في ذلك الصباح الباكر. وهناك عقول سوف تنسج القصّة وتوزّعها في السهرات، لتطغى على قصّة أخته مع زيدان.

بعد ذلك، تستعيد سكينة اجتماعيتها شيئًا فشيئًا. ترتّب هيئتها وتربط شعرها إلى خلف كعادتها، ثمّ تسارع إلى كسر الفنجان الذي وضع وديع علامته عليه.

لا تكترث سكينة بما يلي، لا تعبأ بالكلام، لها تأثير يشلّ الأسئلة في حناجر الجارات الشكوكات الفضوليات. ينبع هذا من قوّتها وثقتها بنفسها، وهذا يعيد شحن قوّتها وثقتها بنفسها. في طفولتي كنت أراها أحيانًا ولا أملّ من النظر إليها، وكان يلفتني لطف نظرتها إلى الطفل، مقابل قوّة نظرتها إلى البالغين. وكنت في دخيلتي الطفولية الغضّة، في «قوقعتي النفسية»، منحازًا إليها بالكامل ضد كلّ ما يقال عنها من كلام لا يجرؤ قائلوه أن يواجهوها به. ولا يزال محفورًا بذاكرتي حين نظرت إليّ، فسعدت لمجرد أنني تحت تلك النظرة اللطيفة وفي مجال اهتمامها، انحنت وقبّلتني بعد أن سألتني: «ابن من أنت؟»، ومن ثمّ قالت: «أبوك رجّال». ربما اختارتني لأنني لم أكفّ عن النظر إليها، فيما ينشغل الأطفال الآخرون باللعب، وكم كنت سعيدًا بذاك الاختيار.

سوف تخبئ السنين لسكينة خيبة، حين ستدرك أنّ وديع اختارها غاية لرجولته كنوع من الانتقام وليس كمحض اعتراف بعلو طبيعتها وجمالها. سوف يؤلمها أن يكون ذاك الدافع الوضيع هو حاضنة جنتهما الصغيرة. غير أنّ وديع الذي استطاع بذلك أن يوازن ميزان كرامته الشخصية، سوف يبقى في نظرها رجلًا، بحسب معاييرها وكما تفهم

هي معنى الرجال، لكنه سوف يُطرد من تلك الجنّة إلى الأبد، ليحلّ مكانه رجل آخر اسمه بهيج، يتمتع في نظر سكينة بالرجولة، إضافة إلى أنّ ما يدفعه إليها دافع رفيع اسمه الحبّ.

جعلت سكينة بهيج اسمًا على مسمى. أن تجتمع الرجولة والحبّ يعني، بالنسبة إليها، أن تصبح ما لا يستطيعه غيرها، المكمّل الأنوثي للرجولة العاشقة؛ وأن تعطي أقصى ما يمكن، وليس ثمّة أقصى من أن تحمل نطفة ذاك الحبّ وتحميها وتغذّيها وتنجب منها طفلًا ليكون زهرة تلك التربة الخصبة المجبولة بأكثر الأشياء جمالًا وتكاملًا، الرجولة والأنوثة والعشق. وكما لو أنّ سكينة رسمت طفل عشقها بيدها، فقد جاء شبيهًا ببهيج شبهًا لا تخطئه العين. وعلى الرغم من ما في هذا من حرج وفضيحة، لا أحد يشكّ بأنّ سكينة كانت تريد هذا. وكما حمت النطفة بحبّها حتى أثمرت، كذلك حمت الطفل بقوّتها وعنفوانها حتى أضحى قادرًا ليس فقط على حماية نفسه، بل وعلى حمايتها حين أوهنت السنون عزيمتها.

اسمه ربيع، كان في عائلته كأنه إجاصة على شجرة تفّاح، مختلف عن أخوته في الشكل والطباع. عاش في العائلة كأي فرد من أفرادها، أحبّه أخوته كما أحبّهم، ولم يكن لهذه الحال أيّ أثر سيء في الحياة الداخلية للعائلة. لعنفوان سكينة دور في حماية طفل عشقها، بلا شكّ، ولكن لتسامح زوجها وحبّه لها، دور مهم أيضًا. بقيت حياة هذا الطفل محمية بالنقيضين، الضعف والقوّة، ضعف الزوج، وقوّة الزوجة. إذا كان الطفل المحظوظ يتمتع بعائلة محبّة، فإنّ ربيع كان يتمتّع بعائلتين محبّتين. كان يميل إلى جدّته البيولوجية «أم بهيج»، يقضي معظم وقته

في حضنها، وكان من دواعي سعادة الجدّة أن تعتني بهذا الفرع الغضّ من العائلة، الذي نبت «خطأ»، في أرض مجاورة، كنبتة الطرخون.

الشبه الواضح بين بهيج وربيع وضع القرية أمام امتحان غير مسبوق. أينما جال ربيع في أرجاء القرية، وكان حيويًّا دائم التجوال والحركة، فإنه يبقى مثل شهادة حيّة وتذكير دائم بخطيئة لا كفّارة لها. كيف تتصرّف القرية أمام هذا الخرق الصريح لعرف أهلها وأخلاقهم العامة؟ ألا يعني السكوت تشجيعًا لأفعال مشابهة؟ ولكن بأيّ حق يمكن للقرية أن تتصرّف حيال هذا الأمر، إذا كان الزوج ساكتًا عنه وراضيًا به؟ أحد كبار القرية قال لبعض الرجال الذين قصدوه يسألونه عن الأمر: «على علمي أنّ هذه المرأة لم تؤذِ أحدًا في ما فعلت، ما قامت به شيء خطأ لا شك، ولكنه يخصّها ويخصّ زوجها، بأي حقّ تتدخّلون فيه؟ أجزم أنّ كلًّا منكم يتمنّى لو كان في مكان بهيج. وربما كلّ منكم يفعل في الخفاء ما يُغضب اللّه أكثر من فعلة بهيج. دعوا الطفل يحيا بسلام ولا تحمّلوه عبئًا ظالمًا. هذا هو رأيي».

الرغبة المكبوتة لدى الرجال والنساء في فعل ما فعلته سكينة وبهيج، بدأت تتفجّر كنوع من الحقد عليهما وعلى نتاج فعلتهما. ومن المعروف أنّ من تغويه الخطيئة أكثر، يكون أكثر الناس عدوانية ضد المخطئين. غير أنّ ما أخمد العدوانية وفتح السبيل لتسوية الأمر، هو أنّ الدائرة الضيّقة المحيطة بالفعل كانت متماسكة وقليلة الاضطراب، إضافة إلى حكمة رجال مؤثّرين في القرية، فضلًا عن الجوّ العام الذي يميل إلى الانفتاح والتسامح.

مع الوقت، تراجع حتى اختفى سلوك بعض أهل القرية بتسمية الطفل «ابن بهيج» بدلًا من اسمه. استوعبت القرية ابنها الجديد بتسامح، قبلت به واحتضنته من دون سعي إلى إخفاء الحقيقة التي يصعب إخفاؤها. نوعٌ من التصالح مع خلل خرج عن السيطرة، كما يتصالح إنسان مع ما لا يمكن إصلاحه، كقصر القامة أو تراجع النظر أو ملامح الشيخوخة. لا ينكر ربيع شبهه بأبيه البيولوجي، وهو أمر لا يمكن نكرانه على أيّ حال، ولكنّ تذكيره بذلك لم يكن يسبّب له الألم أو الخجل. ولا يزعجه أن يصحّح لمن يأخذه على الشبه ويسأله: هل أنت ابن بهيج؟ فيجيب: لا، أنا ابن سكينة وعامر، كان يذكر الاسمين معًا، على خلاف عادة الطفل بنسب نفسه إلى الأب من دون ذكر الأم في معظم الحالات.

في شبابه سوف يقع ربيع ضحية حبّ عاصف لإحدى بنات القرية، وبعد زمن قليل من ذلك، سوف يقع ضحية صراع عنيف شَمَلَ كلّ سوريا. لم يكن لأحد أن يتصوّر أنّ «طفل العشق الخاطئ» الذي قبلته العائلة ثمّ القرية ولم تثقل عليه بشيء، أنّ ذاك الطفل الذي أخذ منه العشق كلّ مأخذ حين غدا شابًا، سوف يسقط قتيلًا في دير الزور بينما كان يؤدّي خدمته العسكرية، في مواجهة مع جماعات إسلامية مسلّحة كانت سيطرت على مناطق واسعة من سوريا، عقب ثورة واسعة ضد نظام الحكم تحوّلت إلى مأساة واسعة قطفت من كفرية شبابًا في ربيع أعمارهم، كان من بينهم ربيع.

وكان من بين شباب القرية الذين التهمهم هذا الصراع، شاب اسمه أدهم، وهو أصغر أخوته وأكثرهم طيبة وانشغالًا بأبيه المريض وأمّه

الوديعة التي تواجه هموم الفقر والمرض بابتسامة وعمل متواصل. توقّف العمل واحترقت الابتسامة بنار الخبر الذي جاءها طعنًا كسكّين في القلب، وجعل حياتها مجرّد موتٍ مؤجّل. لم يكتفِ الخبر بالقول «إنّ أدهم قد استشهد»، بل يضيف إنّ «جثّته مفقودة في مكان ما من ريف حلب». هكذا يتبخّر «حبيب أمّه» كما كانت تسمّيه، ولا يبقى منه سوى اسم يتردّد ويكوي ما تبقّى لأمّه من روح.

بعد عقود من تعرّف القرية إليها باسم «أم فراس»، أصرّت على أن تُسمّى، منذ تلقت طعنة الخبر، «أم أدهم». لم تعد «أم أدهم» قادرة على الابتسام، ولأنه لا يوجد قبر لأدهم يمكن لها أن تزوره وتبكي عليه، فقد صارت تبكي في كلّ مكان، وصار كلّ مكان بالنسبة إليها مثابة قبر أدهم. «كلّ هذه البلاد صارت في نظري قبرًا» العبارة التي تقولها «أم أدهم» بعينيها قبل لسانها.

بيت بباب واحد

في بيوتنا تتراصف الغرف بجوار بعضها على نسق واحد، وفي أقصى الحالات يمكن أن تشكّل في ما بينها زاوية قائمة حين يقتضي الحال. وفي بيوتنا لكلّ غرفة استقلالها، لها بابها ونافذتها، ولها أيضًا اسمها: غرفة الضيوف، غرفة الجلوس، غرفة المونة... في بعض الأحيان تحمل الغرفة اسمًا خاصًا لا علاقة له بالوظيفة، اسمًا مأخوذًا من تاريخ الغرفة، قد تجد مثلًا «غرفة الأستاذ»، لأنّ أستاذًا ما قد استأجر هذه الغرفة في فترة انتدابه للتدريس في مدرسة القرية، ثمّ غادر منذ زمن بعيد، وظلّت الغرفة تحمل الاسم وفاءً لتاريخها معه. وقد يكون للفوارق في حجم الغرف ومواقعها دور أيضًا في التسمية، سوف تجد مثلًا «الغرفة الصغيرة» أو «الغرفة الطرفانية».

بيوتنا منبسطة ومفتوحة على الفضاء مباشرة، يمكن أن تتواصل غرفتان في ما بينهما بنافذة بينية أو طاقة صغيرة، ولكنّ الغرفة نادرًا ما تستغني عن استقلالها بمدخل خاص بها، بباب ينفتح على الخارج مباشرة من دون توسّط من غرفة أخرى أو ممرّ أو بهو. الانتقال من غرفة إلى أخرى، يستدعي المرور بالمساحة الخارجية الكائنة أمام الغرف، وهو ما نسمّيه «الدار» التي تكبر أو تصغر بحسب تضاريس

الأرض واجتهادات صاحب البيت، فيمكن أن تصغر حتى تغدو مجرّد ممرّ ضيّق أمام الغرف، ويمكن أن تكبر فتصبح مكانًا مناسبًا للعب الأولاد أو للسهر في الصيف، أو حتى لعقد حلقات الدبكة في الأعراس.

لم أكن متعوّدًا البيت ذا الغرف المتداخلة حين ذهبت لأوّل مرّة إلى بيت حديثٍ لمختار القرية. بيتٌ بباب واحد، له جرس كهربائي ليس الغرض منه الاستئذان بالدخول، بل السماح بالدخول، لأنّ الباب موصد دائمًا ولا يمكن فتحه من الخارج بدون مفتاح. فتحتْ الباب فتاة صغيرة وقادتني إلى مكتب المختار. أنهيت المعاملة وخرجت من المكتب فوجدت أمامي ممرّات وأبوابًا كثيرة، اخترت أحدها فقادني إلى غرفة أخرى، اخترت الآخر فقادني إلى شرفة، اتجهت صوب باب توسّمتُ فيه خيرًا فقادني إلى درج حجري صاعد إلى السطح في ما يبدو. وقفتُ محاولًا التغلّب على حرجي لكي أسترجع طريق دخولي إلى المكتب وأعود منه، عندئذ انتبه المختار، في ما يبدو، لارتباكي، فصاح للفتاة لكي تخرجني من هذه المتاهة وتقودني إلى باب البيت. قالت الفتاة إنّ هذا يحدث مع كلّ أهالي القرية لدى زيارتهم الأولى، وأحيانًا الخامسة.

تأمّلتُ البيت من الخارج بعد أن نجوتُ من متاهته. بدا لي كأنه كائن غريب يغزو قريتنا ويشوّه جمالها. لم يكن «قرويًا» ذاك الانغلاق الذي بدا لي عدائيًا تجاه الخارج. لم أكن سعيدًا بوجود مثل هذا البناء، وقلّت سعادتي أكثر حين راح قرويون آخرون يقلّدون هذا النمط المعماري «العدائي».

العلّية

في بعض بيوت القرية يمكن أن تتعقّد العمارة أكثر فتُبنى غرفة فوق باقي الغرف، أي غرفة في طابق ثانٍ تصل إليها عبر درج حجري، ولهذه الغرفة اسم واحد وموحّد أينما وجدت، اسم مشتقّ من تفوّقها المعماري كغرفة تتميّز بالعلو الذي يتفوّق على كلّ ما يمكن أن يتسبب في تسمية الغرفة، يتفوّق على الوظيفة وعلى الحجم وعلى التاريخ، إنها «العلّية».

علّية بيت عمّي كانت تشرف على باقي الغرف وتبدو في علوّها كالملكة المستريحة. لقد كانت، بالدرج الحجري والدرابزين الحديدي الناعم والشرفة الضيّقة أمامها والنوافذ الأربع المطلّة على كلّ الاتجاهات، زهرة الدولود العمرانية.

في تلك العلّية مثلًا، استراح ابن عمّي الذي استردّته الحياة من أيدي الموت وهو في سنة دراسته الأخيرة للطبّ البشري في جامعة دمشق. حاول دمه الفرار مستفيدًا من نقطة ضعف صغيرة في جدار رئته، ونجح. كثيرٌ من الدم الطازج الذي قدّمه له زملاؤه في الكلّية، وكثير من العناية والفنّ الطبّي الذي قدّمه له أستاذه الدكتور سامي

القباني، نجح أيضًا في إفشال النجاح الأوّل الذي كان قد وصل إلى مرحلة توقّف القلب. عاد الدكتور عنان من الموت، لكي يصحّ منام أبيه الذي رأى في نومه دجاجة تجرّ وراءها ثمانية صيصان (عدد أبناء عمّي ثمانية)، ثمّ يختفي أكبر الصيصان (عنان هو الابن البكر لعمّي)، وتبحث عنه الدجاجة طويلًا وفي كلّ مكان بلا جدوى حتى حدود اليأس. بعد ذلك، يعود الصوص الضائع من تلقاء نفسه، كما اختفى، لينضمّ إلى أخوته. حين رأى عمّي سليمان هذا المنام استيقظ مطمئنًا، وقال بهدوئه المعهود: «سوف يشفى عنان، ويعود إلينا».

فرحت القرية بعودة الطبيب الأوّل في المنطقة. دُقّت الطبول في الدار، ورقص الأهل لابنهم الذي يستريح في العلّية بعد أن كُتبت له حياة جديدة.

بعد أن كانت استراحة العائد من الموت، صارت تلك العلّية محلًا لسحرٍ لطيف وسعادة بكر. صارت العلّية مملكة لامرأة جميلة اسمها أسيل. لم تكن هذه المرأة جميلة فقط، كانت أيضًا تتقن فنون التجمّل التي لم تكن تعرف طريقًا إلى نساء قريتنا. كانت أسيل تقضي كثيرًا من الوقت وهي تتجمّل أمام مرآة الشيفونيرا التي كانت من أثاث عرسها.

للعلّية تلك نافذة على مستوى السطح، كان يمكن لي أن أصعد إلى سطح البيت بسهولة لأجلس على حافة تلك النافذة وأراقب صورة أسيل المعكوسة على المرآة وهي تتجمّل كأنها ترسم وجهها. كنت في السادسة أو السابعة من عمري، وكانت أسيل تسحرني، تستمتع عيناي برؤيتها، بحلاوة وجهها ولطفها. كان يسعدني أن أرى ما تقوم

به أمام تلك المرآة الكبيرة، حتى أنني كنت أنسى نفسي على النافذة وأنا أراقبها في خلوتها الأثيرة تلك. كنت أعتقد أنها لا تراني. ولكن حين قالت لي مرّة بصوتها الموسيقي الملوّن: «ما الذي يجعلك تقضي الوقت على شباك العلّية؟» فوجئت وارتبكت وخجلت ولم أدرِ ما أقول، فأسعفتني بضحكة مرحة وقالت إنّ ذلك لا يزعجها. بدا لي ذلك مريحًا كأنه اتفاق، وزاد في سروري أنها بعد ذلك، صارت تتفاعل مع حضوري، بدلًا من أن تتجاهلني كالسابق.

ليس في هذا ما يعتبرونه ميلًا لاستكشاف عالم المرأة، كما قرأتُ لاحقًا في الكتب. لم يكن بي رغبة لاكتشاف شيء، ولم تكن متعتي نابعة من اكتشاف شيء. كانت متعة المشاهدة فقط. مع التكرار حفظت الخطوات التي تقوم بها كلّ مرّة، ومع ذلك لم أضجر. تضع قوسًا يرفع شعرها عن وجهها، ثمّ تحدق في وجهها وتلامسه بأصابعها، وتتأمّله وهي تميل به إلى هذا الجانب وذاك. بعد «اتفاقنا» صارت تبتسم لي مرّتين، مرّة حين تراني جئت ووضعت رحالي على حافة النافذة، والحقيقة أنني كنت أتجه إلى النافذة ما إن أراها تصعد إلى العلّية؛ ومرّة حين تنتهي من تأمّل وجهها وتهمّ بالبدء بأعمال المكياج. أدركت منذئذ حقيقة لم أكن أعلم بها وهي أنه عندما ترى أحدًا في المرآة، إعلم أنه يراك أيضًا.

تمسح وجهها بقطعة من القطن بعد أن تضع عليها شيئًا ما، ثمّ تدهن وجهها بمرهم أبيض. بعد ذلك، تبدأ بأعمال الكحل المعقّدة. تنشغل طويلًا بعينيها قبل أن تمسك فرشاة وتمرّرها على وجنتيها كأنها ترسم، وأخيرًا تضع اللون الأحمر على شفتيها. بعد ذلك، تحرّر شعرها،

وتسوّيه، وقبل أن تنهض، تأخذ وضعيات أمام المرآة وهي تبتسم كأنها تقف أمام كاميرا، تميل برأسها يُمنة ويُسرة وتبدو البهجة في عينيها. أدركُ الآن أنّ تلك البهجة هي بهجة من تملك «الصبا والجمال»، وأنّ تلك البهجة كانت من أسرار انشدادي إليها.

أيضًا لم يكن تعلّقي بتلك المرأة نابعًا من غرابة ما تقوم به، فأنا كنت أجد متعة في مجرّد مشاهدتها وهي جالسة أو تقوم بأعمال المنزل اليومية، على الرغم من أنّ هذه الأعمال لم تكن تليق بها بنظري. كنت أرى أنّ أسيل تكون مطابقة لذاتها في لحظتين هما لحظة التجمّل أمام المرآة، ولحظة التأمّل وهي تقف على رأس درج العلّية وتهمّ بالنزول.

لم يكن يروق لي أن أسمع أحدًا يعاتبها بشيء أو يتسبّب في إزعاجها. لم يكن بي قدرة لمساعدتها، ولكنني كنت، من داخل «قوقعتي» أخفض من تقييمي للشخص الذي يفرض عليها ما لا ترغب، أو يقسو معها في الكلام. غير أنّ أغرب ما في أمر هذا التعلّق، أنني كنت أجد سعادة دافئة بمجرّد أن أكتب اسمها على ورقة وأتأمل حروفه.

بعد سنوات طويلة اضطر الأهالي للخروج من البيت القديم في الدولود، وسرعان ما غزته الأعشاب البرّية التي يبدو أنها تستشعر الهجران وتأتي لكي تعطيه شكلًا وصورة. أنواع النباتات التي تملأ الدار المهجورة لها شكل الهجران ورائحته، مادة من الجفاء والقسوة، لونها حائل وهيئاتها تشبه الحراب الصدئة. غير أنّ العلّية كانت استثناء

مذهلًا عن هذا القانون. فمن النافذة الخلفية لها، تلك التي تطلّ على أرض زراعية قريبة، غزتها نبتة لبلاب شديدة الخضرة، وتمدّدت فيها حتى ملأتها واندلقت خارجة من الباب ومن النوافذ الأخرى سوى تلك النافذة التي كنت أحطّ رحالي عليها. يبدو للناظر من بعيد كأنّ الضوء اتخذ هيئة اللبلاب وانتشر في أرجاء العلّية ثمّ فاض من مخارجها. ضوء أخضر لامع يملأ المكان ويفيض منه، يحمي العلّية من أعشاب الخراب التي ملأت الدولود.

أما في عيني، فكان يبدو اللبلاب عاشقًا صامتًا لتلك المرأة التي تعلّقت أنا بها. لا شك عندي أنه راقبها طويلًا في ما مضى، وهي تفرش جمالها في العلية فيما تنعكس بهجتها على الجدران والمرايا، وحين خَلَت الدار وأتيح له، دخل يتلمّس رائحة خطواتها والتفاتاتها التي ملأت الغرفة، فملأ الغرفة مقتفيًا أثرها، باحثًا عن زمنها ومنتشيًا بذكراها إلى حدود الغمقة في الاخضرار والالتماع بالنضارة. وحين عدتُ بعد سنوات طويلة لأقف على حافة تلك النافذة، وقد باتت أشبه بفجوة، بلا قضبان حديدية وبلا تينك الدرفتين الخشبيتين، كان اللبلاب غريمي الذي حرمني من إعادة رسم الماضي في فراغ الغرفة، كان قد استولى على فراغها بالكامل وأحاله إلى كتلة من الخضار الغامق اللامع.

كان الدرج الحجري للعلّية ما يزال صامدًا. عفَّ اللبلاب، لأمر ما، عن الدرج، ولم يقتفِ آثار خطوات أسيل هناك. وعلى الرغم من أنّ الدرابزين الحديدي للدرج قد اختفى حاملًا آثار يديها الناعمتين، ربما استولت عليه يد محتاجة واقتلعته من المكان الذي لطالما كان علامة فارقة فيه، فقد سمحت لي هيئة الدرج ببعض التواصل العليل مع ذاك

التعلّق الطفولي الباكر والغامض بامرأة، حين لم تكن المرأة تعني لي سوى الأم. كان باستطاعتي أن أتخيّل أسيل في صعودها وهبوطها الدرج، في وقفتها المعتادة على رأس الدرج وتأملها الدار والغرف والشجرات المحيطة، قبل أن تبدأ هبوط الدرج بليونتها وبتلك الابتسامة التي نادرًا ما تغادر عينيها.

تاريخ التواليت

حلُّ مشكلة قضاء الحاجة يحتاج دائمًا إلى معالجة أمرين، هما الخجل والقذارة. في القرية كانت المسافة بيننا وبين الطبيعة معدومة. كنّا على تماس مع الطبيعة، كنا في حضنها وبين يديها. من يريد قضاء حاجته، كان يتّجه إلى الأراضي الزراعية، يختفي في التضاريس وبين الشجر، ويختار مكانًا مخفيًا نوعًا ما ليقضي حاجته. الذهاب باتجاه الحقول حركة مألوفة ودائمة، لذلك تختفي حركة الذاهب لقضاء حاجة بين حركات الذهاب اليومية المتكرّرة إلى الحقول، الأمر الذي يريح الشخص من حرج معرفة الآخرين إنه ذاهب لقضاء حاجة. وهذا ينطبق بوجه خاص على النساء. سوف نلاحظ في ما بعد أنّ تطوّر فنون قضاء الحاجة فرض على الرجال والنساء تجاهل هذا الحرج، حين باتت التواليتات أمكنة محدّدة لا يتجه إليها إلّا من يريد قضاء حاجته.

لكنّ تزايد عدد البيوت وعدد الناس جعل العثور على مكان مناسب لقضاء الحاجة أمرًا صعبًا ويحتاج إلى مشوار طويل ربما. أمام هذه المشكلة، كان أبو خليل أوّل من ابتكر الحلّ، فقد استفاد من وهدة صخرية في الأرض المجاورة لبيته، والتي لا تبعد أكثر من خمسين مترًا

عن البيت، فاستفاد من جرزات الحطب المكدّسة أصلًا بجوار البيت لحاجات التدفئة والطبخ والخبز، جعل منها سورًا على ارتفاعٍ كافٍ حول الوهدة، وترك في السور بابًا يدخل منه من يريد قضاء حاجته. وهكذا أضيفت إلى مهام أم خليل مهمة جديدة، فبعد أن تنتهي، في كلّ مساء، من تنظيف اسطبل البقرات صارت تتجه إلى تنظيف الوهدة. وكانت هذه المرأة النشيطة قد اجتهدت بوضع سطل من رماد الموقد في تلك الوهدة لكي يبادر كلّ من يقضي حاجته إلى غمر نتاجه بالرماد، فمن جهة يرتاح الشخص نفسيًّا بإخفاء نتاجه عن عيون الرواد الآخرين، ولاسيّما أنه بات من السهل الربط بين النتاج وصاحبه، ومن جهة أخرى يسهل ذلك من مهمّة تنظيف الوهدة.

كان حلًّا معقولًا حسده عليه كثيرون، على أنّ أم خليل لم تكن، في نظر كثير من نساء القرية، في حالٍ تحسد عليها. سوى أنّ حلّ أبي خليل لم يلغِ تمامًا الحرج تجاه الزوّار، ولاسيّما المدنيّون منهم. هذا فضلًا عن أنه لا يوجد بجانب كلّ بيت وهدة مشابهة لوهدة أبي خليل.

تفاقمت مشكلة التواليت إلى حدود قصوى عند العائلة التي تزوّج ابنها امرأة من المدينة، ومن طائفة المسلمين السنّة فوق ذلك. صار من غير المقبول ترك الأمور على حالها، لكي لا تبدو العائلة متخلّفة في عيون أهل العروس حين سيزورون «أقرباءهم». والحقيقة أن نظرة هؤلاء «الغُرْب» لعائلة شبيب سوف تعني نظرتهم لكلّ القرية، بل لكلّ الطائفة. لذلك تضافر أهل القرية على حلّ هذه المشكلة المرحاضية. هناك من انشغل بحفر «الجورة الفنية»، (هكذا تسمّى الجورة التي تنتهي إليها الفضلات التي تودع في التواليت، من دون أن يدري أحد ما

صلة هذه الجورة بالفنّ)، وهناك من انشغل في إنجاز مبنى التواليت في الأرض المجاورة لبيت العائلة التي رفعت من شأن القرية بأن ناسبت المدينة السنّية. وانشغل آخرون في حفر القناة التي تصل بين مبنى التواليت والجورة الفنية. بعد أيام قليلة ارتفع بناء صغير يشبه صندوق اسمنتي طويل ينتصب قريبًا من بيت العائلة، وصار ضيق هذا الصندوق الذي لا تُجاوز مساحة أرضيته المتر بكثير، بديلًا عن اتساع الأراضي والحقول.

ولأنّ أهل القرية قليلو الخبرة في بناء المراحيض، أو قل ليس لهم خبرة نهائيًا في هذا المجال، فقد جعلوا لهذا الصندوق الطولاني نافذة منخفضة بحيث يمكن لمن يشاء أن يعلم من هو شاغل الصندوق وفي أي وضعية، ويمكنه حتى أن يرى ما يريد قاضي الحاجة إخفاءه عادة. لكنّ أم العريس أصلحت هذا الخلل بأن وضعت على النافذة ستارة غير شفافة، فلم يعد بمقدور أحد رؤية من يقضي حاجته إلّا إذا دفع الفضول هذا إلى رفع الستارة للتمتع برؤية الطبيعة بينما هو يقضي حاجته.

ستر هذا الصندوق، الذي دشّن مرحلة المراحيض الحديثة في القرية، عائلة العريس وأهالي القرية بل والطائفة كلها أمام عيون الأقارب «الغُرب» الجدد، ولاسيّما أنّ أم العروس كانت مصابة بداء السكري وكانت لهذا مضطرة لزيارة الصندوق ذي النافذة المنخفضة مرارًا. إنه لمن الرقي أن يكون لديك مكان مخصّص لقضاء الحاجة. حتى أنّ عائلة شبيب حاولت أن تنسى تمامًا أنها كانت تقضي حاجاتها في الطبيعة منذ أيام قليلة فقط، وراحت تتصرّف كأنها ترى التواليت من بديهيات الحياة.

وقد لاحظ أهل العريس أنّ أم العروس لا تداري ولا تشعر بالخجل أبدًا من توجّهها إلى التواليت، حتى أنها تعلن ذلك صراحة، كما أنها لا تتوانى عن أن تسحب، كلما اتجهت إلى هناك، منديلًا ورقيًا من تلك العلبة التي أحضرها العريس المتمدّن، الذي هو مثار فخر العائلة بلا منازع، خصيصًا لكي يعزّز المظهر الحضاري للعائلة أمام المدنيين. أما والده، فقد كان يشعر بدغدغة لذيذة تجمع بين الحرج والإثارة، كلما رأى تلك المرأة تحمل المنديل بيدها وتتوجه إلى صندوق قضاء الحاجات ذاك، فيسبق الزمن قليلًا بخياله ليرى المنديل الذي يتهادى الآن أمام عينيه، وهو يقوم بوظيفة ملامسة ذلك المكان. الأمر الذي يجعله يشرد لحظات بخياله قبل أن تنبّهه زوجته: «أين شردت! الرجل يكلمك يا أبا فرزات».

كثرت الصناديق الإسمنتية الطولانية بعد ذلك حتى أصبح من النادر أن تجد بيتًا في القرية بلا صندوق طولاني له نافذة عالية، مستفيدين من الخطأ المعماري في الصندوق الطولاني الأوّل للعائلة التي صاهرت المدينة. يكون الصندوق على مسافة قريبة أو بعيدة عن البيت وتجد القرويين يختلفون في رصف الطريق المؤدّية إلى الصندوق. منهم من يضع حجارة ومنهم من يعبّدها بالأسفلت المأخوذ من مقلع الأسفلت في القرية، وهناك عائلات ارتأت أن تزيّن الطريق إلى الصندوق بالورود والنباتات الجميلة على جانبيها، فذلك أدعى إلى الراحة النفسية. ولكن مع الأيام برزت في القرية مشكلة جديدة هي إضراب الصندوق الطولاني عن العمل بسبب امتلاء الجورة الفنية.

تفريغ الجورة الفنية هو العمل الشاق غير المنتظر الذي جعل الأهالي حائرين إلى حدّ الندم على اختيار هذا الحلّ لمشكلة قضاء

الحاجة. قالت «وجيهة»، الجدّة الأكبر سنًا في القرية، إنّ هذه القرية لم تعد مكانًا مريحًا للعيش منذ أن بات أهلها يقضون حاجاتهم بين الجدران.

كانت مشكلة امتلاء الجور الفنية من حظّ أبي موفق الذي سوف يتخصّص لاحقًا بتفريغ هذه الجور، ويجني منه ما يعيله مع أسرته ولاسيّما أنه عاطل عن العمل، فيما غالبية أهالي القرية يعملون في شركة الأسفلت ويقبضون أجرًا شهريًا. طلب أبو موفق كأجر لتفريغ الجورة مبلغًا يعادل نصف الأجر الشهري للعامل. في البداية رفض كثيرون، ثمّ عادوا ليوافقوا بعد أن تبيّن لهم أنّ المهمّة لا تطاق وتستحقّ أكثر من هذا المبلغ.

على هذا يمكن القول إنّ التواليتات حلّت مشكلة قضاء الحاجة في القرية، وخلقت أيضًا فرصة عمل لأحد أبنائها العاطلين، على الرغم من أنّ هذا الابن عانى كثيرًا مع أسرته من النظرة الدونية للأهالي التي عبّر عنها أكثرهم بذاءة بالقول إنّ عائلة أبي موفق يعيشون بسبب الخراء. وكثيرًا ما قيل من باب السخرية الظالمة إنّ تلك الرائحة تملأ بيتهم وبوسعك أن تشمّها حتى في خبزهم. أما فرص العمل الأخرى التي وفّرها ظهور التواليت مثل بناء الصندوق الإسمنتي وحفر الجورة والقناة الواصلة بينهما، فلم تحمل الدونية لأصحابها، وقد كان كثير من العائلات يعتمد على الذات في إنجاز هذه الأعمال.

غير أنّ الأمر الذي شكّل صدمة لأهالي القرية في ما بعد، هو البيت الذي بناه أحد أبنائها من الذين أوصلهم الحظ إلى وظيفة مهمّة في

الجمارك. بعد سنوات قليلة من عمله في سلك الجمارك، بدأ عادل ببناء بيت جديد له في القرية على سطح بيت أهله، أي أنّ كلّ غرفة من البيت هي «علّية» أو أنّ البيت هو «علّية» بحد ذاته. ولكن ليس هذا هو ما أدهش أهل القرية. الحقيقة أنّ ما أدهشهم وأثار نفورهم هو أنّ عادل جعل التواليت داخل البيت. هل يقضون حاجتهم داخل البيت؟ هذا هو السؤال الذي شغل بال أهالي القرية وأثار دهشتهم، أكثر مما أثارها مولّد الكهرباء الذي جعل من بيت عادل كتلة منيرة وسط بيوت شحيحة الضوء وكأنه من زمن آخر.

قال أبو رامي: «حتى لو كان التواليت له جدرانه الخاصة التي تفصله عن بقية الغرف، لكنه يبقى داخل البيت، شيء محرج وغير طبيعي وغير مقبول أن تقضي حاجتك داخل البيت»، قال هذا بانفعال ظاهر وكأنّ عائلة عادل تقضي حاجتها في بيته.

في ما بعد، قلّد آخرون عادل في طريقة البناء وفي جعل التواليت داخل البيت، حتى تعوّد أهل القرية على هذا العيب، وصاروا يجدون له الأعذار، مثل الكلام عن مشكلة التواليت البعيد مع المطر والبرد، وخوف الذهاب إليه في الليل. وكان آخر الدهشات المتعلّقة بتطوّر التواليت هو ما يعرف باسم «التواليت الفرنجي»، وهو التواليت الذي يمكّن المرء من قضاء حاجته وهو جالس.

حتى المرحاض الحديث، أو الصندوق الإسمنتي الطولاني، لم يغيّر في وضعية من يقضي حاجته. في الحقول، وفي التواليت الحديث، تبقى وضعية القرفصاء الخاصة على حالها. ولكن التواليت الفرنجي أدخل ثورة

في مجال قضاء الحاجات، حين تدخّل في الوضعية وحوّلها إلى وضعية جلوس على كرسي. لم يكن بمقدور أحد، قبل هذا الاختراع، أن يتخيّل أنّ بمقدور المرء التخلّص من محتويات أحشائه في غير وضعية القرفصاء.

يتجنّب الشخص في حياته اليومية عادة اتخاذ وضعية القرفصاء الخاصة بقضاء الحاجة، لكي لا يبدو على الهيئة التي لا يرغب أن يراه فيها أحد وهو يقضي حاجته. مع ظهور التواليت الفرنجي لم يعد هذا ممكنًا. صارت وضعية المرء في حياته اليومية تشبه وضعيته في التواليت الفرنجي. لا يتغيّر في الأمر شيء سوى تغيير المكان. الجلوس على كرسي التواليت (هكذا صارت تسمّى) يشبه الجلوس على كرسي المكتب. إلى هذا الحدّ رفع التواليت الفرنجي من مستوى الوضعية تلك، حتى لم يعد بمقدور أحد اجتناب الهيئة التي تسمح للآخرين بتخيّله وهو في وضعية قضاء الحاجة على الطريقة الفرنجية. كلّ من يجلس على كرسي يعرّض نفسه لأن يكون ضحية خيال ناظرٍ ما يتصوّره في وضعية قضاء الحاجة. لكن من ناحية أخرى، كانت هذه النقلة في الوضعية مفيدة للغاية للعجائز ولمن يعانون من آلام الظهر. ولهذا فقد غزا التواليت الفرنجي القرية أيضًا وصار المرء يستطيع أن يقضي حاجته من دون أن يخرج من البيت ومن دون حتّى أن يقرفص.

المدنيون

سوف أكشف الحقيقة التي تشكّلت لديّ منذ صغري واحتفظت بها طويلًا في قوقعتي النفسية: إنني أرى المدنيين كذّابين. مع ذلك كنت أحسدهم على أشياء كثيرة، لكنها أشياء ليست من صنعهم في الحقيقة بل من صنع المدينة.

أوّل ما لفت نظري من كذبهم، أنني حين قدّمت كأس ماء لأحد أصدقاء أبي القدماء المدنيين، قال بعد أن شربها: اللّه! ما أطيب ماءكم يا جبر. قلت في نفسي مستسخفًا كلامه «إنه يكذب، أليس الماء واحدًا في كلّ العالم؟» وضعتُ إشارة نقص قيمة أمام اسم صديق أبي هذا ومضيت. لكنّ هذه العبارة تكرّرت بعد ذلك على لسان مدنيين آخرين، فأيقنت أنّ المدنيين كذّابون، هذا قبل أن أتعرّف لاحقًا إلى كلمة «منافقون».

لم يقتصر الأمر على رأيهم بالماء، بل امتدّ إلى اللبن والخبز وحتى إلى الهواء. كنت أعتقد أنّ هذه الأشياء واحدة في كلّ العالم، فلماذا هذه الدهشة وهذا المديح. الإعجاب الوحيد الذي كنت أغفره لهم هو إعجابهم بجبالنا الصنوبرية وطبيعتنا الخضراء، لأني كنت

أسمع أنّ المدينة ليس فيها حقول ولا جبال، ولا تحوي سوى البيوت والشوارع.

أطفال المدينة ونساؤها أضافوا صفة ثانية للمدنيين إلى جانب الكذب، وهي الخفّة. إذا رأى الطفل المدني بقرة مثلًا فإنه سرعان ما يرتدّ إلى السعدنة، وكذا الحال إذا صادف دجاجة أو حمارًا. سوف يركض وراء الدجاج ويحاول امتطاء الحمار بصورة خرقاء... وفي حين يتطرّف الطفل المدني في طلب القرب من الحيوانات ومحاولة الإمساك بها وإطعامها أي شيء، فإنّ المرأة المدنية تتطرّف في طلب البعد عن الحيوانات بحركات «مدنية» تنمّ عن مزيج من الخوف والقرف. وفي كلا الحالتين تبدو صورة المديني مشوّهة.

حين كانت أمي تطلب مني أن أضع علفًا للبقرات، كان أقراني من الأطفال المدنيين المدهوشين دائمًا، يصيحون فرحًا (تعبيرهم عن الفرح لا يشبه تعبيرنا نحن أبناء الريف، تراهم كالممسوسين يتلفّتون في كلّ اتجاه ويحركون أطرافهم ومؤخّراتهم بشكل عشوائي وعنيف أبعد ما يكون عن «المدنية»). يرافقونني، ويثيرون غضب البقرات بالاقتراب من البقرة ولمسها والتعلّق بذيلها والإمساك بأذنيها وتأمّل عينَيْها الدامعتين عن قرب. حينها كانت تتحرّر عدوانيتي الصامتة وأتمنّى أن تعبّر البقرة عن نفسها بأكثر من مطّ الرقبة والتململ وهزّ الجلد، أن تعبّر عن انزعاجها برفسةٍ من قدمها أو نطحة من رأسها تعيد الطفل المدني إلى صوابه.

لم تكن دهشة أطفال المدينة واستقتالهم للاقتراب من الحيوانات

وخدمتها، تحرّض في داخلي الشعور بالنعمة التي أنا فيها وسط الحيوانات فيما هؤلاء محرومون منها. على العكس، كانت تحرّض فيّ الشعور بأنهم بلهاء. لا يفهمون أنّ هذه الحيوانات التي يهيمون بها لأيام قليلة يقضونها في القرية، هي بالنسبة إلينا عمل شاق يصادر حريتنا باللعب كما نشاء. الحيوانات بالنسبة إليهم لعبة يتركونها حين يشاؤون، أما بالنسبة إلينا، فهي التزام وواجب وعمل. «يا إبني البقرة روح!» هذه الجملة التي كنا نسمعها لدى أيّ تقاعس عن خدمة البقرات. لكني في قرارة نفسي كنت أحسد المدنيين على حياتهم. وكثيرًا ما كنت أتساءل: كيف يعيش هؤلاء؟ أتخيّل حالنا بدون بقر وبدون أرض، من أين لنا أن نأكل إذن؟

حين يعود أطفال المدينة من مدارسهم ويكتبون وظائفهم لا يبقى أمامهم سوى اللعب، أما نحن فلدينا دائمًا الحيوانات التي يجب الاعتناء بها. «الدابة المربوطة، روح، بدّها مين يطعميها ويسقيها»، «شو الغلط إنك تاخد هالبقرات للمرج تاكل عشب غض، وفيك تاخد كتابك معك وتقرا جنبهم، بس خلّي عينك ع البقرات»، «إذا ما بدك تاخدها ع المرج، خود المنجل واقطعلها جرزة حشيش، البقرة بحاجة للحشيش الأخضر، نشّفت عروقها من التبن». كلّ هذه الجمل التي يكرّرها أهالينا لا تعني شيئًا للطفل المدني الذي لا يعرف سوى اللعب، حتى الحيوان بالنسبة إليه مجرّد لعبة.

مع ذلك، يجب القول إنّ أهل المدينة لطفاء. يختلفون كثيرًا عنّا، ولاسيّما النساء منهم. إذا أرادت المرأة عندنا أن تشكر أحدًا على عمل ما

فإنها تقول له: «اللّه يعطيك العافية»، أما المرأة المدنية، فإنها تقول كلمة واحدة «يسلمو!» هذا فضلًا عن النبرة ونعومة الصوت. حتى حين يذيب أحد المدنيين السكّر في كأس الشاي، فإنه يتصرّف على خلافنا. هم لا يحرّكون السكّر بذيل الملعقة مثلنا، بل برأسها، ولا يحرّكون الملعقة بحركة دورانية في الكأس، بل بحركة مستقيمة إلى أمام وخلف، سأعرف لاحقًا أنّ هذه الحركة يسمّونها في الرياضيات «حركة جيبية»، ولكن قبل أن أعرف هذه الحقيقة كان يلفت نظري هذا الاختلاف، وارتبطت عندي هذه الطريقة الجيبية في تذويب السكّر بالمدينة، وللحقّ، كنت أجدها ألطف من طريقتنا.

جاءنا ذات يوم زوّار من المدينة، رجل وزوجته. قيل إنهما من مدينة أبعد من اللاذقية، وهذا أعطاهما قيمة إضافية، فالبعد له قيمة بحد ذاته. الرجل كان صديقًا قديمًا لأبي (تعبير صديق قديم يستعمله أبي كثيرًا وكنت أستغربه دائمًا، لكنني استعملت هذا التعبير كثيرًا في ما بعد!). بعد الترحيب بهما، جمعونا نحن الصغار في غرفة كان ينتظرنا فيها عمّي الكبير. شعرنا بأهميتنا. ها هو عمّي الكبير يعاملنا ككبار ويتكلّم معنا بجدية، ماذا نريد أكثر؟ قال: «ممنوع أن يُقسم أحد منكم بالإمام علي أمام الضيوف أو على مسمع منهم». خرجنا من الغرفة محمّلين بالتعليمات التي كانت نافلة، ليس فقط لأننا بعد أن تأمّلنا الضيفين قليلًا ومللنا منهما ذهبنا نلعب بعيدًا منهما ومن سمعهما، بل أيضًا لأنّ «الخرق» جاء من زوجة جارنا التي غلبتها عفويتها أمامهما فطلبت من الضيف أن يشرب كأس شاي آخر مستجيرة عليه بالإمام علي. وحين

أدركت خطأها، قالت على الفور وهي تضع يدها على صدرها: «اللّه ياخدني، ما قصدي واللّه!» ضحك الرجل واعتبرها طرفة، لكن الجار وبخّ زوجته لاحقًا قائلًا: «صعب أن يطمئنّ الإنسان لذكائك! لسانك دائمًا يسبق عقلك».

بعثي منبوذ

كان أبي بعثيًا قبل أن يولد البعث، كثيرًا ما سمعته يردّد هذه العبارة. وعلى عكس أمي التي كان لا يعنيها بشيء كلّ ما هو خارج حدود عائلتنا وأرزاقنا، كان أبي مشغولًا دائمًا بالعمل السياسي والنقابي، يتابع الأخبار، يسافر إلى اللاذقية وإلى مدن أبعد من اللاذقية، حتى أنه أحيانًا يسافر خارج البلد لمتابعة نضالاته، وآخر ما كان يمكن أن يعيقه عن هذه المتابعة هي هموم أمي وانشغالها بالعائلة والأرزاق.

تملأ البيت آثار زياراته الدَوْلية، صور وتذكارات من عواصم العالم الاشتراكي، بينها صورة له مع بطلة جمباز روسية، كثيرًا ما كان يتباهى بها أمام أمي التي لم تكن تعطي كبير شأن لهذه الأشياء، وغالبًا ما كانت تضحك له وتكتفي بالقول: «اللّه يسعدك». وبينها صندوق صغير لتقديم السجائر، حين تفتحه تبرز إلى أمام حاملتا سجائر عريضتان، الواحدة فوق الأخرى، وتخرج منه في الوقت نفسه موسيقا تشبه لحن الأغنية العربية الشهيرة «مصطفى يا مصطفى». ومن آثار سفراته المتكرّرة دمية ماتريوشكا، وطقم من أدوات السفرة الفضّية، ولكن أكثر ما كان يفتخر به أبي، هو مجموعة العملة المعدنية والورقية التي جمعها

من كلّ مكان، وحفظها في محفظة جلدية أنيقة، وكان عرضها وشرح محتوياتها جزءًا من برنامج ضيافة أصدقائه، ليس فقط «القدامى» منهم بل والحديثين أيضًا. توقّف نمو المجموعة مع توقّف أبي عن النضال، بحكم العمر وبحكم التطوّرات السياسية. ثمّ بدأت تضمحل حتى توزّعت بين الأيادي واختفت.

صورة الطفولة التي لا تفارقني عن أبي هي حين ينتهي من تناول الطعام، ويأخذ سيجارته على الفور، يعلّقها بين شفتيه ثمّ يشعلها ويسحب منها بعمق بينما يفرك يديه بمتعة وهو يتأمّل الطبيعة من خلال باب الغرفة المفتوح. تلك لحظات خالصة له، لا مكان فيها لتدخّلٍ من زوجة أو ابن. كنت أستمتع بدوري وأنا أراقبه، مستمتعًا في تلك اللحظات. وأتساءل بماذا هو شارد في هذه اللحظات، هل يفكّر بطريقة تجعله يجبر مدير شركة الأسفلت على إعطاء العمال نسبة ثلاثين في المئة أسوة بعمّال المناجم، كما سمعته مرارًا يتحدث عن هذا الحقّ المهدور، أم أنّ الذهن في هذه اللحظات يتفرغ لتذوّق متعة السيجارة فقط. كان حين تنتهي سيجارته، يطفئها بهدوء ويخرج بهدوء أيضًا من ذلك الاستغراق الذاتي.

غالبًا ما تكون النزاهة في عالم السياسة طريقًا معبّدة باتجاه الهامش. على هذه الطريق سار أبي من دون تردّد، وتقبّل من دون استغراب، بعد أربعين عامًا من التزامه حزب البعث، أن يُفصل من هذا الحزب، هو «البعثي قبل أن يولد البعث». يقول أبي بتسليمٍ لا يشبهه ولا يليق بشخصيته: «كنت أظنّ أنّ وصول الحزب إلى الحكم سوف يعني المجد للأمّة العربية بعد الهوان، كان هذا حلمي الأوّل. في يوم

8 آذار 1963، كانت فرحتي لا توصف، لا أدري كيف قادتني فرحتي لحمل علم الحزب والطوفان به في أرجاء القرية، غير مبال بإعجاب من يعجب أو بغيظ من يغتاظ، ولكنني كنت أعتقد أنه ليس هناك عاقل سوف يغتاظ من وصول الضبّاط البعثيين إلى الحكم في دمشق. أنهيت جولتي في القرية وعدت لأزرع ذلك العلم على سطح منزلي. تصارع الضبّاط البعثيون في ما بينهم بعد ذلك. انقلب بعضهم على بعض، قتل بعضهم بعضًا، سجن بعضهم بعضًا، سرّح بعضهم بعضًا، حتى صار الحزب لعبة بين أيديهم. الحقيقة أنه منذ وصول الحزب إلى الحكم في دمشق، راح شعوري بفخر الانتماء إليه يتراجع عامًا بعد عام. سنة 1967، كانت هزيمتنا مدوّية، سنة 1973، لم ننتصر. بعد ذلك أغلق الحزب جبهته مع إسرائيل وفتح جبهته مع الشعب السوري. سنة 1982، دمّر مدينة حماه لكي يقتلع الإخوان المسلمين الذين كان قد احتضنهم وغذّاهم، ثمّ سجن كلّ من يعارضه. اثنان من أبنائي سجنهما الحزب بتهمة الانتماء إلى حزب شيوعي سلمي. نعم الحزب الذي كنت أفخر بالانتماء إليه، سجن أبنائي سنوات طويلة لأنهم عارضوه سلميًا. وحين كنت أسأل، كان يُقال لي إنهما جزء من مؤامرة على الوطن. كنت أقول اختار ابني أن يكون شيوعيًا على الرغم من أنّ أباه بعثي، هذا خياره وأنا لن أرغمه على ما لا يريد، فيُقال لي هذا تراخٍ منك يا رفيق، يجب أن لا ينخرط أولادنا في مؤامرات ضد الحزب والوطن.

مرّت السنون، وراح الوطن يزداد ضعفًا، والمواطن يزداد خوفًا، بينما تكاثرت ظاهرة أبناء المسؤولين وزاد تفرعنهم على الناس واستهتارهم بكلّ القيم. صار الفساد اللون الطاغي حتى بات غير الفاسد محطّ تندّر

وسخرية. في الاجتماع الأخير لي في الحلقة الحزبية، قلت أمام الجميع، وأنا في الخامسة والستين من عمري، إنني كنت أرفع رأسي قبل 1963 لأنني بعثي، أما اليوم فإنني لا أشعر بأي فخر في انتمائي هذا. في اليوم التالي استُدعيت إلى اللاذقية، وأخبرني أمين الفرع قرار فصلي من الحزب، قائلًا إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر أمام التقارير التي يرفعها «الرفاق» عني. خرجت من مكتبه مفصولًا ولكن مرفوع الرأس. هذه خلاصة قصّتي مع البعث: كنت فخورًا حين دخلت حزب البعث، وكنت فخورًا حين فُصلت منه.

كان فلان وفلان رفاقي قبل 1963، كنا في الحزب معًا، قمنا بالمهام معًا، ناموا في هذا البيت كأخوة لي، وأكلوا من خبزه وملحه، كنا معًا على الخير والشر. أما بعد 1963 فقد راحت دروب السلطة تباعد بيننا. صاروا من أصحاب المناصب والأملاك، وانقطعت صلتي بهم نهائيًا. مع ذلك كنت أقول في نفسي، «لهم بعثهم ولي بعثي»، ولكن تبيّن لي بعد كلّ هذه السنين أنّ «بعثي» ضعيف ومستبعد مثلي، أما بعثهم، فهو «البعث» القادر، الذي يملكونه كما يملك المرء دارًا يصطفي فيها من يشاء ويخرج منها من يشاء، البعث الذي سيقول لي يومًا «أنت لست بعثيًا»».

كما لو أنّ هذا المسار المنحدر أخذ من أبي تفاؤله الذي لم يسترجعه حتى عقب خروج السوريين بجسارة باهرة لتغيير نظام البعث في العام 2011. كانت مخاوفه أكبر من أمله، من دون أن يستفيض في الشرح، ومن دون أن يكون لديه رغبة في المحاججة.

في سنواته الأخيرة، صارت همومه العامة أقلّ اتساعًا وأكثر تحديدًا. صار يقضي وقته مثلًا في استذكار العائلات التي فقدت معيلها في القرية، يدوّنها على ورقة ويجتهد في شراء «سلّة غذائية»، من راتبه التقاعدي البسيط، ويوكل لأحد أصحاب السيّارات توزيعها على هذه العائلات في أحد الأعياد. ولكي يخفّف من عناء أهل المتوفّى في تأمين الحجرة المسطّحة التي تستخدم في الدفن (الشطيحة)، اتفق مع أحد معامل البناء على تصنيع بلاطة تخدم هذا الغرض، وصار يشتري منها مجموعات يضعها بجانب البيت ليأخذ منها أهل المتوفّى. كان يعبّر عن راحته حين يرى سيّارة تقف بجانب البيت لتأخذ إحدى البلاطات من دون استئذان منه. هكذا يعرف أنه ساعد عائلة وأراحها من جهد كبير كانت ستبذله لقطع حجارة من الصخر ونحتها بحيث تغدو ملائمة لحماية جسد فقيدهم من التراب المهال.

غصن لوز

شجرة اللوز العالية كانت مصدر فخر أبي الذي جلب غرستها من مزرعة صديق له في النبك وزرعها في زاوية الأرض الصغيرة أمام البيت. «شجرة كريمة» بوصف أبي، «تعطيك لبّها بسهولة». كان يمكن كسر اللوزة اليابسة بين الأصابع من دون حاجة إلى مطرقة، وكان أبي يجد متعة في مفاجأة ضيوفه بهذا اللوز «الكريم» الذي لا يشبه اللوز المعروف في قريتنا.

وفيق صديق لأخي الكبير، وهو شاعر كان يحبّه أبي ويقول له: «كلامك جميل حتى أنني أتمنّى أن لا تسكت حين تتكلّم». كان وفيق يبادله الحبّ ويقول بأسلوبه السلس: «كما يعجبك حكيي يعجبني سمعك. ليتني أستطيع أن أقدّم لك شيئًا غير الكلام». «لا أريد منك شيئًا غير الكلام، كلّ ما أتمنّاه منك أن تتكلّم على قبري ليسمع الحاضرون»، يجيب أبي.

يحكي وفيق أنه جاء مع زوجته وطفليه لزيارتنا في الربيع، وحين ألحّ ابنه بطلب اللوز الأخضر من الشجرة، قال له: «الشجرة عالية يا إياس ولا أستطيع الصعود إليها، كما أنّ اللوز الأخضر حامض ومن

الأفضل تركه حتى ينضج». لكنّ أبي نهض وأراد أن يصعد الشجرة لكي يقطف للطفل من ثمارها الغضّة. لكنّ وفيق اعترض بشدة قائلًا: «أقسم باللّه إذا صعدت الشجرة أو قطفت حبّة لوز واحدة، سأعود مع عائلتي إلى بيتنا على الفور». فامتثل أبي لرغبة الشاعر.

بعد أحاديث لا تنتهي في السياسة والدين، من هزيمة الـ67 إلى حقيقة الصعود إلى القمر، ذهب وفيق مع عائلته برفقة أخي لكي يشربوا من «نبع جبر»، ويتنزّهوا في الحقول والتلال الصنوبرية التي سحرت الشاعر، وحين عادوا وجدوا غصنًا كبيرًا من شجرة اللوز على الأرض. كان أبي قد قطع الغصن بالمنشار. كانت فرحة أبي كبيرة حين ركض الطفل وراح يقطف اللوز الأخضر بسعادة، وقال ضاحكًا في ردّه على دهشة وفيق: «إنني لم أصعد إلى الشجرة ولم أقطف حبّة لوز واحدة!». فقال وفيق: «لو كنت ماهرًا في السياسة كما أنت ماهر في الكرم لما كنا أصدقاء».

ابن لوالدتين

جاء الأستاذ نظير إلى باحة اللعب في المدرسة وطلب مني أن أرافقه. سرت معه إلى الطريق المجاورة للمدرسة من دون معرفة السبب. هناك كانت تنتظر امرأة لا أعرفها. كانت امرأة بحجم صغير وعينين وديعتين فيهما حزن قديم. فيما كنت أستطلع وجه المرأة متسائلًا، وقف الأستاذ صامتًا بيدين معقودتين على الصدر يراقب المشهد. نظرت المرأة إليّ وسألتني عن عمري، فقلت لها عمري سبع سنوات. رأيت في عينيها فرحًا طارئًا يشبه حياةً وجيزة تقاوم الموت. انحنت عليّ وقبّلتني مرارًا ثمّ استقامت وراحت تمسّد شعري بيدها وتتأمّلني وتكرّر القول: «اللّه يخليك لأمك. اللّه لا يفجع أم بضناها. اللّه لا يحرم أم من ابنها». لم أفهم ماذا يجري وما علاقتي بالأمر. شعرت بالارتباك وتمنّيت أن أبتعد من تحت يدها، وبدأت عيناي تهربان باتجاه الأستاذ الذي كان يقف بحياد كأنه يؤدّي وظيفة. زاد ارتباكي حين سألتني المرأة بصوت رخيم له ظلال، وبعينين تنظران إلي كأنهما تحاولان رؤية ما وراء عيني: «هل تعرف نبيل؟» قلت على الفور: «لا» بصوت سطحي يشبه حركة اليد لإبعاد ذبابة تحاول الوقوف على الوجه. صوتها ونبرتها

في السؤال أشعراني بشيء قريب من الخوف وصار الزمن أكثر ثقلًا، وهربت عيناي هذه المرّة باتجاه التلاميذ الذين كنت ألهو معهم وكانوا قد كفّوا عن اللعب ووقفوا ينظرون من بعيد إلى المشهد الذي كنت جزءًا أساسيًا منه.

ربما أدركتْ المرأة شعوري، فلم تكرّر السؤال، ولم توضح لي من هو نبيل الذي تسألني عنه. فقط أخرجت من جيبها قطعة نقدية صغيرة وقالت: خذ هذه واشتر بها ما تشاء من الدكّان. تردّدت في أخذها ولكنّ الأستاذ تدخّل وشجّعني على أخذها. بعد ذلك نظرتْ المرأة إلى الأستاذ. شكرته وقبّلت يدي التي كانت تمسك بقطعة النقود ثمّ مضت بتثاقل. حين استدارت لتمضي، تولّدت لدي رغبة في تأمّل هيئتها ومشيتها، كان فستانها بلون غامق عليه زهور بيضاء موزّعة، تحيط بكلّ زهرة بضع أوراق خضراء، وكان يشبه في تفصيلته فساتين أمي، طويل إلى فوق الكاحل بقليل، له ثنيات ناعمة على كامل محيط الخصر مع سحّاب قصير شاقولي على الخاصرة اليمنى. لكنّ مشيتها لم تكن تشبه مشية أمي التي تضرب الأرض بقدميها حين تمشي، فيما كانت هذه المرأة تسحب قدميها بتعب وكأنها تقتصد في الجهد.

لم أعرف شيئًا عن سبب هذا اللقاء المفاجئ. سألت الأستاذ نظير، فاختار أن يشرح الأمر بأبسط طريقة ممكنة له وبأقلّها إقناعًا لي. قال لي إنها أرادت أن تراك لأنها قريبة والدتك. لم يشأ الأستاذ أن يشرح لي ما شرحته لي أمي لاحقًا، ربما لضيق وقته أو لاعتباره الأمر خرافة لا تُحكى، ولكن ليس لأنه لا يعرف القصّة التي كان كثيرون في القرية

يعرفونها، وكان الأستاذ نظير قد استجاب لطلب المرأة في رؤيتي لأنه يعرف القصّة ويتعاطف مع المرأة.

في البيت حكيت لأمي ما جرى، ووصفت لها المرأة، فشرحت لي الأمر: «هذه أم نبيل يا ابني. توفّي ابنها منذ سنوات. سقط عن ظهر الحمار وبقيت رجله عالقة بالحبل، واصل الحمار العدو ولم يتمكّن الصبي من تحرير نفسه، ومات وهو في السادسة عشرة. قلب الأم لا ينسى يا ابني، وهي تؤمن أنك ابنها أيضًا، لأنك ولدت في يوم وفاة ابنها، وأخذت شهيقك الأوّل في اليوم الذي لفظ فيه ابنها نبيل نفسه الأخير. بعد أيام من ولادتك جاءت وطلبت أن تراك وقالت يومها إنّ في ملامحك شيئًا من ملامح فقيدها. يومها قال لي الجيران إنه كان عليّ أن لا أسمح لها برؤيتك لأنها قد تخطف قلبك وتصبح أقرب إليها من قربك إليّ. لكنني لم أحرمها من رؤيتك في أي يوم جاءت فيه إلينا. كانت تزورنا لتراك من حين إلى حين، تأتي بحال وتعود بحال أفضل. لكنها انقطعت عن زياراتها لنا منذ كان لك من العمر سنتان أو ثلاث سنوات. سمعت أنّ هناك من قال لها إنّ زياراتها لنا حرام ويجب أن تترك الولد، الذي هو أنت، لأمّه، التي هي أنا (ابتسمت أمي وتابعت)، ولكنّ قلب الأم لا ينسى، كيف يمكن له أن ينسى؟ يبدو أنّ قلبها قادها اليوم إلى المدرسة لكي تراك لتريح نفسها قليلًا بمن تظنّ أنّ فيه شيئًا من ابنها. المدرسة أقرب إليها من بيتنا ولا يجرّ لها معاتبة أحد. يبدو أنها لم تستطع مقاومة قلبها، اللّه أعلم بما يحمل قلبها من حزن وشوق». بعد أن شرحت أمي الأمر لي ورأت الاستغراب في عيني، طلبت مني أن لا أتأفّف من فعل هذه المرأة إذا تكرّر، وقالت لي، بين الإيمان والرغبة

في التشجيع، إنّ أم نبيل تعتبرني ابنها وإنّ راحة قلبها حين تراني وتحتضنني وتقبّلني وتتحدّث إلي سوف تنعكس توفيقًا لي في حياتي اللاحقة. وسألتني وهي تضحك برغبة التخفيف من ثقل الموضوع: «وماذا اشتريت بقطعة النقود التي أعطتها لك؟».

بيت الجدّ

يدان ترتجفان وظهر مقوّس وعينان متعبتان يتهدّل جفناهما السفليان ويلتمعان بدمعٍ لا يجفّ. تلك هي جدّتي وصورة الجدّة في مخيّلتي. بقدر قوّتها مع نفسها وقدرتها على العمل والحرص والمحبّة، كانت جدّتي استسلامية في علاقاتها بالآخرين، لا تقاتل أحدًا ولا تشتم أحدًا ولا تنمّ على أحد. تحلّ كلّ المشاكل على حسابها. وكانت رجولة جدّي هي الدرع التي تحمي ضعفها الخارجي، فيما كانت قوّتها الداخلية هي السند الأهم لجدّي.

لم يكن جدّي من الرجال المولعين بالأطفال. لا أذكر أنه داعبني يومًا، على عكس جدّتي التي كانت لطيفة إلى حدّ أنها كانت تنشغل تمامًا بنا حين نزورها، أختي وأنا. لا شيء أسعد من ذلك. تضع علبة الراحة أمامنا لنأكل ما نشاء، بدل أن تعطي كلًّا منا قطعة أو قطعتين. وتُخرج لنا من الصندوق الكبير ذلك الكيس الأبيض الذي كانت تعقده بطريقة غريبة يصعب فكّها، تفتح الكيس على مهل وتجلس بجوارنا، ثمّ تخرج منه أطيب الأشياء التي يمكن أن يتخيّلها طفل. الجوز والبطم واللوز والتين اليابس. كانت تصل متعة الطفولة إلى ذروتها حين تحضر

جدّتي الهاون وتهرس فيه التين اليابس مع البطم الأزرق، وتقدّمه لنا بتلك اليد السمراء المرتعشة التي جفّفها الزمن حتى بانت عروقها. هل السعادة شيء سوى تلك الطمأنينة المبطّنة بحبّ الجدّة الذي لا يخالطه شيء، وذاك التفرّغ والانشغال لجعلك راضيًا وسعيدًا؟ السعادة هي أن تكون سعادتك مصدر سعادة من يسعدك، وهذا، بالنسبة إلى طفل، يروي بذرة عميقة في النفس سوف تزهر في المستقبل، ثقة واطمئنانًا وحبًّا للحياة. آلية متكاملة لإنتاج السعادة لكل الأطراف، سعادة الجدّة من انشداد الطفل لها، وسعادة الطفل من اهتمام الجدّة به. رضى الجدّة من شعورها بقيمتها واستمرارية دورها على الرغم من التقدّم في العمر، ورضى الطفل الذي تنمو شخصيّته وتتطوّر بتأثير اهتمام الجدّة وحبّها الخالص.

الجدّة تزرع بسلوكها العفوي في تربة نفس الحفيد شتلة تنمو ويفوح عطرها أكثر كلّما كبر الطفل أكثر. الجدّة ألطف على الطفل من الأم، حب الجدّة يمرّ عبر مصفاة الزمن، مصفاة سنوات عمرها، فيغدو خالصًا من النزق الأمومي الممكن، وخاليًا من احتمالات العقاب، أو من احتمالات الضجر.

كان جدّي شابًا حين جاء الأتراك يسوقونه إلى الحرب، هرب منهم والتجأ إلى الجبل المجاور. «إذا لم يلتحق صالح بالجيش سوف تدفعين الثمن»، هدّدوا أمّه. حين عاد في المساء قالت له أمّه: «في المرّات المقبلة ربما ضربني هؤلاء الأوباش. قد أصرخ، وقد أستجير بك بتأثير الألم، ولكن أرجوك يا بني أن تبتعد لكي لا تسمع صوتي، وإذا سمعت صوتي، أرجوك أن لا تستجيب. قلْ في نفسك: إذا أرحتها من لحظة ألم

الآن، فإنني سأتسبّب لها بألم لا ينتهي». وَعَدَها، لكنّ الشاب لم يستطع أن يفي بوعده، عاد راكضًا ما إن سمع صراخ أمّه. ساقوه إلى الحرب، وهناك تمكن من أن يفرّ ويعود، ثمّ هُزم الأتراك في الحرب، ونجا جدّي.

الفقر كان بالنسبة إلى جدّي أسوأ من الأتراك. يمكنك أن تهرب من الأتراك، ولكن كيف تهرب من الفقر. على قوّة ساعده وعلى رباطة جأشه اعتمد جدّي لتربية عائلته المؤلّفة من تسعة أولاد. كانت حياته مقاومة مستمرّة للجوع وللحاجة. على الضدّ من قوانين الأحراش المرعية، كان جدّي يحرق الخشب حرقًا ناقصًا لكي يبيعه في المدينة لأصحاب المطاعم. اصطدم على هذه الطريق بكثير من عناصر شرطة الأحراش. نجح في مغافلة بعضهم واضطرّ إلى الاشتباك مع بعضهم الآخر. يقول إنه لم يقتل أحدًا. لكنّ أحدهم أصرّ على منعه وأراد أن يحتجزه مع حماره وحِمْله، ما أثار غيظ الجدّ فضربه بالعصا على رأسه. وقع الشرطي مغميًا عليه، وبعد أن ابتعد الجدّ قليلًا عاد ليأخذ ما في جيوب الشرطي من مال. يقول صالح إنّ الشرطي هو الذي تسبّب بذلك لنفسه، هو مطمئنّ إلى دخله في نهاية كلّ شهر، فليدعنا نعتاش من تعبنا، عندنا أولاد ويجوعون أيضًا.

حين عاد جدّي ذات يوم يحمل تنكة زيت، استغرب صديقه أبو أحمد، وهو رجل معروف بتدينه، يسأله الناس عما يخبّئ لهم الزمن، فيقول لهم ما يتمنّونه ويكسب منهم ما يجودون به لقاء ذلك. «من أين لك هذه النعمة يا صالح؟»، سأل أبو أحمد. وضع صالح التنكة وجلس بجوار صديقه وقال ضاحكًا وهو يلفّ سيجارته: «إنها حلالي». ألحّ أبو أحمد بالسؤال، فقال صالح: «اسمع. مررت بجوار معصرة، فرأيت أمامها

ما لا تتخيّل من أكياس الزيتون. قلت في نفسي لماذا لا يكون لي ولو كيس واحد من هذا الخير الوافر. ألأنّ أبي مات فقيرًا ولم يورثني أرضًا. ألا يحق لأولادي أن يأكلوا كباقي الناس، ما ذنبهم؟ خلعت اللفحة عن رأسي، واقتطعت منها قطعة بمقدار الكفّ واتّجهت صوب إحدى أكداس أكياس الزيتون. اتكأت على كيس منها، ورحت أحفّه بإبرة كبيرة أحملها دائمًا في اللفحة للحاجة، هكذا ثقبت الكيس ورتقت الفتحة بالقطعة التي انتزعتها من لفحتي. ثمّ اتجهت إلى المعصرة، وقلت للرجل: يا أخي إلى متى تتركني أنتظر وأنا لا أملك إلّا كيسًا واحدًا. وحين أشرت له إلى الكيس جاء صاحب كدسة الأكياس وقال إنّ هذه الأكياس لي. قلت له نعم، هذه الأكياس لك، ولكنّ هذا الكيس لي، وقد انثقب معي على الطريق واضطررت إلى رتقه بقطعة من لفحتي، وأريتهم الرقعة ومكانها المقتطع من اللفحة. اقتنع رجل المعصرة. أمّا الرجل الآخر، فقد ظلّ محتارًا، ولكنه لم يملك ما يقول. اقترح رجل المعصرة أن أترك الكيس مع مجموع الأكياس مقابل أن يعطيني تنكة زيت يحسبها من منتوج المجموعة. وافقت، وها أنت تراني أحمل هذه التنكة».

«وتقول إنها حلالك!»، قال أبو أحمد مستغربًا. ضحك صالح وقال: «أليست أكثر حلالًا مما يقدّمه لك الناس مقابل كشف المستقبل؟ أنت تعيش بالمسكنة وأنا أعيش بالقوّة. لو كانت لديك قوّتي لما اخترت طريق المسكنة».

«دعنا من هذا الكلام الذي تكرّره دائمًا، وقل لي هل في تاريخك ما تجد أنه يرضي اللّه؟».

«حسب عقيدتي الخاصة، كثير مما أقوم به يرضي اللّه. أنا لا أتحايل على الفقير ولا أسرقه. عندما أحتاج، آخذ لقمتي من صاحب الوفرة. اسمع مثلًا: مررت ذات يوم في حقل زيتون. كان أصحاب الحقل يجنون زيتونهم الوافر. في طريقي أخذت كيسًا صغيرًا من زيتونهم وأكملت طريقي. ليس بعيدًا منهم رأيت نساء فقيرات يعفّرن حقلًا مجاورًا. كانت إحداهن في أعلى الشجرة تبحث عمّا بقي من حبّ زيتون، وتفرش تحت الشجرة مئزرًا لتجمع ما تجنيه. لم يكن على المئزر أكثر ممّا يملأ «السقرق»، فيما الشمس تشارف على المغيب. نظرت إليها، فرأيت التعب في وجهها، والفقر الصريح في ملابسها، فوضعت الكيس على مئزرها وقلت لها: هذا الكيس لك يا أختي. وتابعت طريقي. سمعتها تدعو لي من قلبها. وكنت سعيدًا بذلك أكثر مما لو أخذت الكيس إلى بيتي. ألا يرضي اللّه مثل هذا الفعل برأيك؟».

«لست أنت من يقسم الأرزاق يا صالح».

«صحيح، ولكن ربما سخّرني اللّه لإنفاذ مشيئته، ما أدراك؟».

«وهل هو من سخّرك لتحرق بيدر ذلك الآغا؟».

«تلك قصّة أخرى، أندم عليها. كنت يافعًا ويملأني الطيش. سوء معاملته لي دفعني للانتقام، ولكني أندم حقًا على ما فعلت».

«وماذا عن حديث الناس عمّا فعلته مع زوجة الآغا الآخر؟».

«اسمع. على الرغم من أنّ مآخذي على طريقة عيشك لا تقلّ عن مآخذك على طريقة عيشي، سأقول لك ما جرى مع تلك المرأة، فأنا لا أعلم تمامًا ماذا يتحدّث الناس عن ذلك. سأسألك أوّلًا، ماذا تقول

عن امرأة تشتم العامل الذي يوصل الأرزاق إلى مخزن بيتها، بأبشع الشتائم، فقط لأنها زوجة الآغا؟ كان العمّال الذين يعتاشون من العمل لدى ذلك الآغا، يعرفون طبيعتها، ويتهرّبون من إيصال المحاصيل إلى بيتها. اختارني الآغا ذات يوم، فذهبت. وحين دخلت مع حماري من الباب لأوّل مرّة، علمت أي نوع من النساء هي. شتمتني، واعتبرت أنني لا أفرق عن الحمار بشيء، وتأفّفت مني ومن رائحتي. لم أردّ عليها بحرف واحد، وكنت سأبقى كذلك لولا أنها رفضت، بعد أن أوصلتُ كامل الحِمل إلى المخزن، أن تقدّم لي كأس ماء طلبته منها، وقالت بدلًا من ذلك: تشرب سم. انقلع يا وسخ! ماذا تنتظر مني أن أفعل في هذه الحال؟ لن أضربها لأنها امرأة، فماذا أفعل؟».

«ما يتداولونه الناس!»، قال أبو أحمد بتهكّم.

«نعم يا سيدي. أمسكتها من زندها بقوّة، وقلت لها: هذا الذي تقولين عنه وسخ، إنما هو رجل، وسوف ترين أيّ الرجال هو. قدتها إلى داخل المخزن، فمشت معي، وعلى أكياس الحنطة المكدّسة هناك، حرثت أرضها العطشى بمحراثي الصلب. لم تمانعني أبدًا، حتى أنها أعانتني في خلع سروالها. كان أنين لذّتها يتردّد في أرجاء المخزن، ألا تصدّق؟ اسمع ما سأقول ولا تضحك. بعد ذلك لم تحضر لي الماء فقط، بل وأعدّت لي فطورًا محترمًا، ممّا لا نعرف ولا يعرف أولادنا مذاقه. في اليوم التالي طلبني الآغا، وقال لي: اختارتك سيدتك ليكون شغلك فقط إيصال المحاصيل إلى البيت. عقب هذا صار لي اسم تناديني به بدلال، وصارت تمنحني نفسها وأمنحها بالمقابل المتعة التي تنتظر. سأقول لك شيئًا أظنّه بعيدًا تمامًا عنك وعن اهتمامك وتجربتك: ليس هناك فضل

يفوق أن تمنح امرأة تلك اللذة. دعنا من هذا الآن، أسألك: ماذا تقول؟ هل أغضبت اللّه؟ على كلّ حال، تلك الستّ الناعمة كانت راضية، أما عن اللّه، فإنه غفور رحيم».

«وهل يرضي اللّه أن تسرق حصان الشيخ أيضًا؟»، سأل أبو أحمد.

«حكيت لك القصّة من قبل بالتفصيل وسأعيدها لك اليوم. اسمع. أرسلني أبي لإحضار بعض الإجاص من شجرة الشيخ لكي يقدّمه لضيف كان يزورنا، وقال لي ربما يريد الشيخ ثمنًا للإجاص، ولكن قل له إنني سأدفع له لاحقًا. رفض الشيخ وقال اذهب أنت وأبوك وضيوفكم إلى جهنّم. هل ترى أنّ هذا سلوك شيخ محترم؟ لا تؤاخذني على قسوة كلامي. انقبض وجه أبي عندما أخبرته ولكنه لم يقل شيئًا. حين شمل الليل القرية، اتجهت إلى تلك الشجرة وعالجتها بكتفي حتى تخلّت عن كلّ ما عليها من ثمار، ثمّ ملأت كيسي وعدت إلى البيت. في اليوم التالي، حين رأى الشيخ ما حل بشجرته، قال للجميع إنّ هذا من فعل صالح وأرسل الشرطة في طلبي. أنكرت، ولكن، كما تعلم، كلام الشيخ أثقل لدى الشرطة من كلامي».

«أثقل، لأنه يقول الحقّ. أليس كذلك؟»، علّق أبو أحمد.

«اسمع. في النظارة قرّرت أن أنتقم من الشيخ بالحصان، لأنني أعرف أنه أعزّ ما لديه. لم يكن سهلًا الوصول إلى الحصان، ولاسيّما أنّ لدى الشيخ كلاب حراسة، وأنّ الحصان في إسطبل محصّن. المهم أنني تمكّنت في فجر يوم البازار من أخذ الحصان وقرّرت بيعه هناك. ولكنني تردّدت في الطريق، وقلت إنّ هذا سيكون عارًا علينا. سيقولون

إنّ أحد أبناء الطائفة سرق حصان شيخهم وباعه في البازار. لذلك رميت الحبل على ظهر الحصان وتركته يعود إلى الإسطبل الذي يعرفه.

لم يكن الفارق كبيرًا بين اكتشاف الشيخ غياب الحصان وبين رؤيته للحصان عائدًا. قال بعض الأهالي إنّ الحصان الأصيل عاد رغمًا عن السارق، لكنّ الشيخ الذي اطمأنّ إلى عودة حصانه، قال إنّ السارق هو من ترك الحصان يعود، وهذا واضح من وجود الحبل على ظهر الحصان.

في اليوم التالي أرسل الشيخ يطلب رؤيتي. حين وقفت أمامه لم يسألني إذا كنت أنا من حاول سرقة الحصان، بل سألني لماذا تراجعت وأعدت الحصان بعد سرقته؟ وأنا لم أنكر، وقلت له السبب. فضحك واعتذر مني بشأن قصة الإجاص.

حكيت لك القصة من قبل، ولكن ها أنت تقول إنني سرقت حصان الشيخ. الآن أقول، ربما كان الأفضل لو أنني أكملت تلك السرقة حقًّا».

«سلوكك لا يعجبني يا صالح، ولكنني أحبّك. لست أنا، بل اللّه هو من يعلم أينا على حقّ». قال أبو أحمد.

«ثق يا صديقي أنّ كلانا على حق. للحق طرق كثيرة». قال جدّي ونهض ليكمل طريقه إلى البيت مع تنكة الزيت.

كبر جدّي، وصار يتردّد عليه المرض كتذكير له باقتراب ذلك اليوم الموعود الذي لا محيد عنه. كان جدّي ينظر إلى ما يجلبه القرويون الذين يأتون لعيادته، ويقول: حين كان بوسعي أن أقرط البحص، لم أجد شيئًا من هذا، الآن، حين لم يعد بي طاقة على شرب الماء، تجلبون لي هذه الأشياء اللذيذة؟ بدأ جدّي نومته الأخيرة مثلما يبدأ نومه في كلّ

ليلة. وحين وصل خالي بالسيّارة التي استأجرها لإحضار الذبيحة من جسر الشغور لإطعام المعزّين، اكتشف أنّ صندوق السيّارة فارغ فلا يوجد فيها عجل ولا من يحزنون. عاد بالسيّارة من حيث جاء بحثًا عن العجل الذي كان قد سقط من صندوق السيّارة وكان ما يزال في مكانه وكأنه ينتظر عودته.

في نظر صديق جدّي الورع، إنّ موت جدّي وهو نائم، وسقوط الذبيحة من السيّارة من دون أن تتأذّى ومن دون أن تهرب، هي من علامات رضى اللّه.

أنا لا أكذب

يمسك أبو اسماعيل تفاحة ستاركن حمراء ويقطعها بالسكّين إلى نصفين، ويقول لك: «انظر، هذا البياض في الداخل، إنه بياض الحليب». ويتابع حديثه بثقة تامّة: «بوسعك أن تسقي شجرة التفاح بالماء، ولكنك سوف تحصل على تفاح عادي، أما أنا فأسقي أشجاري بالحليب، انظر كم هي بيضاء من الداخل. التفاح بحليب هو إنتاجي الذي لا مثيل له في العالم، على ما أظنّ». لا ينسى أن يضيف هذه العبارة وكأنه حريص على الصدق، ولذلك قال عنه أحد ظرفاء القرية: إنه يقول الكذب بحرارة الصدق.

بالإضافة إلى الزراعة، يعمل أبو اسماعيل حلّاقًا، ويُحكى أنه بينما كان ذات يوم يقصّ شعر أحد أهالي «جبل الكراد» الذي تفصل بينه وبين كفرية أحراش كثيفة وواد عميق، هبط الليل فجأة قبل موعده. اعتبر أنّ في هذا الهبوط المفاجئ للّيل اختبار له. ألحّ عليه الأهالي أن يبيت الليلة عندهم، إلّا أنه رفض، وقال إنّ رأسه لا يرتاح إلّا على وسادته. حمل حقيبته وانطلق، على الرغم من كلّ تنبيهات الأهالي وتخوّفاتهم وإصرارهم على استضافته تلك الليلة. كان الليل كثيفًا فلا ترى إصبعك

لو وضعته أمام عينيك. مشى الرجل مسافة قليلة قبل أن يشعر أنّ حيوانًا ذا فرو طويل يسير بجانبه ويحفّ جسمه بساقيه. سرعان ما أدرك أبو اسماعيل حقيقة الأمر، ارتاح قلبه وأشرق بطمأنينة عميقة. امتطى ظهر الحيوان الغريب بسهولة، وأمسك جيدًا بالوبر الغزير الطويل حول رقبته، وهمس له بأذنه «انطلق يا مبارك». انطلق الحيوان كالسهم، وما هي إلّا لحظات حتى توقّف أمام بيت أبي اسماعيل الذي ترجّل عنه، وربت على رقبته شاكرًا، ولم يدخل بيته حتى اطمأنّ إلى أنّ «المبارك» اختفى في العتمة.

عارف وصغار الحمير

لا يمكن لك أن تنتظر عملًا جيدًا من حمارة أنجبت حديثًا. الحمار الصغير سوف يشغل أمّه ويعيقها عن العمل. كما لا يمكن إجهاض الحمارة الحامل، ولا يمكن أيضًا منع الحمير من التسافد. هذه دورة حياة مفروضة على الريفيين ولا يجدون منها مخرجًا إلّا بالتخلّص من المواليد الجدد. بعد بضعة أيام سوف تنسى الأم ويجفّ حليبها وتستعيد نشاطها واهتمامها بالعمل. يوجد في الريف أشخاص يتولّون مهمّة التخلّص من صغار الحمير. كان وديع أحدهم أو أبرزهم. ويوجد في الريف من يؤلمه هذا المصير المأسوي للصغير ولأمه. وكان عارف أحد هؤلاء.

من بيته المجاور للنهر الصغير، قال عارف إنه على استعداد للعناية بصغار الحمير بدلًا من قتلها. وبما أنه ليس من غريزة الإنسان قتل صغار الحمير، وربما كان في قتلها ما يعذّب سريرة القروي، فقد امتلأت الأرض المجاورة لبيت عارف بصغار الحمير بعد وقت ليس بالطويل. لا تحتاج الحمير في الواقع إلى كثير عناية، يكفي أن لا تقتل الحمار لكي يعيش. غير أنّ عارف كان يجود على الحمير فيساعد الطبيعة

قليلًا على إعالتها، يقدّم لها بقايا الطعام من البيت، حتى أنه أحيانًا كان يقدّم لها العلف، حين تسمح له ظروفه المادية. وفي مرّات ليست قليلة، كان القرويون يساعدونه أيضًا في هذه المهمّة فيأتونه بما يفيض عنهم ويمكن أن يكون عونًا للحمير على البقاء، ما يدلّ على طيب نوايا القرويين تجاه الحمير وعلى أنّ ضرورات العمل فقط هي التي كانت تدفعهم لإزهاق أرواح هذه الكائنات البريئة. أصبح عارف معبود الحمير، كيفما تحرّك في محيط بيته، فإنّ الحمير ستتوجّه برؤوسها صوبه، كما تتبع برادة الحديد المغنطيس.

يكبر الحمار ويصبح قادرًا على العمل، فتبدأ الحركة المعاكسة للحمير. يأتي القرويون لكي ينتقوا حمارًا ويعطوا عارف شيئًا ما بالمقابل. صارت مزرعة عارف جزءًا من دورة حياة الحمير في القرية. لم يسمع أحد عارف يتذمّر من جيرة الحمير أو متاعبهم. ربما تحمّل بعض الأعباء بسبب صغار الحمير، لكنه خفّف الألم عن نفسه التي كانت تتعذّب، أكثر من عذاب نفوس القرويين الآخرين في ما يبدو، كلّما جرى التخلّص من حمار وليد. كما أنّ عارف نال بعض الفوائد من القرويين الذين يزورون مزرعته لاختيار حمار لهم، هذا فضلًا عن التوفيق الذي حالف أسرته ثوابًا على إنقاذ الحمير. كثير من القرويين يقولون إنه ما كان يمكن تصوّر الخصوبة المميّزة في أرضه قياسًا بباقي الأراضي المجاورة، أو زواج بناته جميعًا، أو نجاته بأعجوبة من حادث السير الذي تعرّض له، لولا عنايته بهذه الحيوانات الضعيفة.

العجّـي

جاء إلى قريتنا صغيرًا بلا أهل، فقيرًا إلّا من الإرادة. تحيطه غيمة من عدم لفت الانتباه، حتى أنّ القرويين لم يحفظوا الاسم الذي يحمله، فسمّوه «العجّي» (التي تعني في قاموس القرية الولد مع قلّة الاعتبار) وتعارفوا عليه في ما بينهم بهذا الاسم. وبعد أن استقرّ في القرية وصار له من الحضور ما يكفي ليكون له اسم كباقي القرويين، أضيف اسمه إلى اللقب: «العجّي سليم»، ومع الوقت سقطت ال التعريف لأنّ هذا التركيب بات من الشهرة في القرية بحيث يمكن تخفيف اللفظ بالاستغناء عن حرفي التعريف هذين. تخفيف اللفظ عند القرويين أهمّ من التباس المعنى الذي يمكن أن ينجم عنه. لم يكترث القرويون مثلًا إلى أنّ تركيب «عجّي سليم» يعني «ابن سليم» أي يشير إلى أنّ «سليم» هو اسم أبي هذا الوافد الجديد وليس اسمه.

لا أحد يعرف أيّ قصة تلك التي قادت «عجّي سليم» إلى قريتنا، بقي سرّه سرًّا، فقد ظلّ أمينًا لولادته الجديدة في قريتنا وكأنّ كلّ ما سبقها كان مجرّد رحم تحتضن وتمهّد للولادة ولكنها لا تخلّف ذكريات. بقي طوال حياته يعمل في الأرض التي كسبها بتعبه. يعمل بلا توقّف،

كأنه يسابق قدرًا يلاحقه أو يتربّص به. كتوم إلى حدّ اليأس، وشغّيل إلى حدّ مدهش. استبدل ذاك الطفل «العجّي» سند الأهل الغائبين بقوّة إرادة يندر أن تجدها عند من هو في سنّه. من تعبه صار يأكل. يعمل عند من يطلب منه العمل، ويعيش بما يكسب، وبما يجود به عليه من يجود من القرويين الفقراء.

مع دخوله طور الشباب كان سليم قد ادّخر ما مكّنه من شراء قطعة أرض مهملة في القرية. نادرًا ما يراه أحد، بعد ذلك، خارج تلك الأرض التي بات يحسدها باقي أراضي القرية، حتى بات يعتقد الناس أنه يعرف كلّ حبة تراب فيها. بعد سنوات قليلة، صارت أرض «العجّي» بستانًا أخضر. وبصبره المعهود، حوّل البقاع الصخرية المحيطة بأرضه إلى أراضٍ زراعية هي الأخرى. كان ينقل التراب من أماكن بعيدة على كتفه في البداية، ثمّ على حمار اقتناه من مزرعة عارف، لكي يغمر به الصخر ويحيله إلى أرض صالحة للزراعة.

بنى بيتًا صغيرًا، وتزوّج شابة من قرية أخرى، وأنجب أطفالًا وظلّ طوال حياته يعمل كأنه يقول لكلّ القرويين، هكذا يكون العمل. حين لا تجده في أرضه فإنك تراه في البراري يجني البطم والسمّاق والزعرور، وبمنجله الذي لا يفارق خصره، يقطع الحطب للموقد والأوتاد لتسوير الأرض والخشب الغليظ للمدفأة. تمكّن من أن يحفر في صفحة الحياة مكانًا يحتضن أسرته المكوّنة من ثلاثة أولاد وبنت.

كان هذا الرجل في عيني الطفل الذي كنته، أحد الملامح الثابتة في قريتنا. على وجهه الأسمر الغامق قسوة مزمنة وكأن لا خبرة لوجهه

بالضحك أو الابتسام. عينان صغيرتان غائرتان، وأنف منحن بارز، وفم ملموم فيه ميلان خفيف، مع تجاعيد عميقة على جبينه. وإذا كانت ملامح كلّ وجه بشري تقول عبارة صامتة، فإنّ العبارة التي يقولها وجه سليم هي: «لا أبالي بكم ولا أريد منكم شيئًا، فقط دعوني أعمل». لا أذكر أنني رأيته حليق الذقن ولو مرّة واحدة، ولكنه أيضًا لا يطلق لحيته.

رجل نحيل، بظهر محني قليلًا إلى أمام، يلفّ على خصره حزامًا طويلًا على طبقات فوق سرواله الأسود. يرتدي لنصفه العلوي سترة بنّية اللون منفوخة الجيوب فوق قميصٍ حائل اللون، ويلفّ على رأسه لفحة بطريقة تجعل لها ذيلًا يرتمي على ظهره، وفي قدميه ينتعل حذاءً من الكاوتشوك المتين. لباسه هذا لا يتبدّل مع تبدّل الفصول، ولا في المناسبات الفَرِحة أو الحزينة. سوى أنه كان يخلع سترته تلك ويرميها على صخرة قريبة أو على غصن إحدى الشجرات، حين يعمل في الأرض. غدت صورته وهو يعمل في الأرض إحدى العلامات الثابتة في القرية، إلى أن تحوّلت تلك الصورة إلى مصدر اطمئنان يشير إلى أنّ كلّ شيء يسير على جاري العادة. حين لا تراه في أرضه، سوف تشعر بنقص أو خلل يدفعك للاستفسار عنه. إنه يعيش ليعمل وليس العكس، تقول في نفسك.

وكعادة الظلم الذي يتغلغل في نسيج الحياة ويلوّنه بعناد كما يلوّن عصير الرمّان القماش الأبيض، لم يفلح عمل سليم في النهوض به من جورة التمييز التي حُفرت له في نفوس القرويين. استطاع بجهده الدؤوب أن يحيل الصخر إلى أرضٍ زراعية، لكنه لم يستطع أن يجعل نبتة الاعتبار والقيمة تثمر في داره. كبر أبناؤه مثقلين بتلك النظرة

الظالمة، وجاهدوا للخروج من حفرة نقص الاعتبار، ولم يكن نجاحهم بقدر جهدهم. لكنّ ابنة سليم هي من دفع الثمن الأفدح لذلك الظلم الذي تكثّف على روحها كما تتكثّف أشعة الشمس بفعل عدسة مكبرة وتصبح قادرة على إشعال الحرائق.

كانت سميرة فتاة جميلة، بشعر أشقر مجعّد وعينين خضراوين. تجاور البشرة السمراء مع العينين الخضراوين أعطاها سحرًا خاصًا. كان يمكن لها أن تطير خارجة من جورة التمييز تلك كما تطير فراشة، كان ممكنًا أن يشكّل الجمال جناحًا وروح الأنثى اللطيفة جناحًا آخر، وأن تنهض بهذين الجناحين وتطير إلى حيث تستحقّ من تقدير واعتبار. كان ذلك ممكنًا لولا أنّ قدرًا قاسيًا كبّل جناحيها هذين قبل أن ينهضا بها.

وقعت سميرة في حبّ شاب من القرية، هامت به، لم يعد يخلو بيتهم من الماء الطازج، فقد باتت تعشق طريق النبع الذي يتيح لها رؤية ظافر الذي أعطاه حبّ «سميرة» سببًا إضافيًا للتباهي. صار حبّهما حديث القرية، لذلك وجد سليم نفسه مضطرًا لحبس سميرة في البيت. «أنت تعلمين أننا لا نستطيع تحمّل علاقات كهذه، إذا كان يريدك فليأت ويطلبك مني»، قال لها أبوها. وقال لها ظافر: «إذا كنت تحبّينني، لن يستطيع أحد أن يمنعك من الخروج لرؤيتي». تكرّر هروب سميرة من البيت للقاء ظافر، ولم يجد سليم أمامه، لكي يمنعها من لقاء ظافر، إلّا أن يربط ابنته ويقيّدها في البيت الذي صار ضيّقًا ببكاء الأم والابنة وصراخ الابن الأكبر والأب وغضبهما. حين عجزت سميرة عن الخروج للقاء ظافر، أدار هذا ظهره لها، لأنه ليس من الملائم أن يتقدّم للزواج من «ابنة العجّي».

فيما كان الحبل يقيّد جسد سميرة، كان عقلها يتفكّك. خفّ القيد عنها بعد أن تزوّج ظافر، وسمح لها الأب بالخروج، لكنها لم تعد تميّز طريق النبع عن غيره. كان طريق النبع يتميّز بوجود ظافر ولكنه الآن بات كغيره من الطرق، خالية مما يدفع القلب إلى الخفقان، وممّا يجعل الدم سعيدًا في جريانه المغلق.

صارت سميرة إذا خرجت لا تعرف أن تعود إلى البيت من دون مساعدة من أحد، وحين لا تجد من يساعدها، كانت تواصل سيرها إلى أن يهبط الليل فتطرق باب أيّ بيت لتأوي إليه، من دون أن تدري أهي في قريتها أم في قرية أخرى. تلك هي سميرة، إما أن تخرج لتقابل ظافر، أو تخرج لتتوه في القرى. يئس أهلها من البحث اليومي عنها، فتركوها وشأنها تتدحرج يومًا وراء يوم على سفح الجنون، لتصبح تلك الفتاة الجميلة التي كان يمكن لها أن تحرّر عائلتها من حفرة الظلم، ثقلًا إضافيًا لتعزيز قلّة الاعتبار الظالمة.

مع انحدار الابنة في هاوية ضياع العقل، انحدرت الأم في هاوية موازية، في عجز العقل عن التحكّم بالجسد. في الابنة عقل مشلول وجسد صاحٍ، وفي الأم جسد مشلول وعقل صاحٍ. الابنة تسير على غير هدى وتشتم بصوت عالٍ كلّ من تراه، وكأنّ كلّ من تراه ليس سوى صورة مكرورة من ظافر، والأم مرمية في زاوية البيت تشكو الإهمال بصوت عالٍ ينتهي دائمًا إلى بكاء عاجز يسمعه كلّ من يسير على الطريق المجاور لبيتهم.

كانت النكبة أكبر من قدرة الأب على النهوض بها، بعد محاولات

متكرّرة لإعادة ابنته إلى البيت تخلّى عن المحاولة، واستسلم لذاك السهم الذي استوطن جسده بعد أن يئس من انتزاعه، وقصر اهتمامه على الأم. بنى لها غرفة مستقلّة عن البيت الذي صار بيتًا لعائلات أولاده الذين ضاقوا ذرعًا بهذا الجسد المشلول والفم الذي لا يكفّ عن الشكوى. وزّع سليم وقته بين الاهتمام بزوجته والاهتمام بأرضه.

الرجل الذي لم يعرف المرض أو الكسل، اختار له القدر الموت بصدمة سيّارة بينما كان في اللاذقية يبحث عن صيدلية يحضر منها دواء لمعالجة البثور التي ملأت جسد زوجته. بوفاته خسرت زوجته القلب الأخير الذي يحنو عليها، خسرت الجانب الليّن الأخير الذي كان يمكن لها أن تتكىء عليه. وخسرت القرية أحد معالمها البارزة. وبعد أشهر قليلة وجدت الابنة متوفّية على ربوة صغيرة بجوار سكة القطار. ولم يمض وقت طويل، حتى استيقظ أحفاد الرجل على هدوء لم يتعوّدوه، فقد كانت المرأة التي دأبت على تبديد هدوء الصباح بصياحها وشكواها الدائمة، قد لحقت بزوجها وابنتها. ثلاثة أرواح كانت تعتاش على روح واحدة، روح رجل جاء إلى القرية لكي يكون علامة فارقة فيها.

ديمقراطية شيخ

جاء الشيخ وهيب لزيارتنا. لم يكن أبي من نمط الرجال الذين يروقون لرجال الدين، فهو ليس بمُلْحِدٍ فيتخلّص منه الشيوخ برميه بالكفر وينتهي الأمر، وليس بتابعٍ سهل فيريحهم من بعض التهكّم والتعليقات التي تطال بعض تصرّفاتهم وقناعاتهم. لكنّ الشيخ وهيب كان، مع ذلك، يخصّ أبي بزيارة حين يأتي إلى قريتنا.

مدّت أمي فراش النوم على أرض الغرفة لكي يجلس عليه الشيخ. هذا هو الحدّ الأقصى من التوجيب والتقدير للضيف في القرية. خلع الشيخ حذاءه الأبيض عند العتبة وجلس على الفراش بحركات رجل واع لقيمته ومطمئنّ لتقديره. كانت له هيئة مهيبة. وجه واسع وسيم يتناقض بياضه مع سواد لحيته ومع سواد عباءته الأنيقة التي يرميها على كتفيه وتبدو يداه من تحتها غضّتين نقيّتين يتوزّع عليهما شعر أسود فاحم وأطول من المعتاد بقليل ممّا يجعل لهما تأثيرًا خاصًا. فالأيدي في القرية لا تكون في العادة على هذه الدرجة من النعومة. وكان الشيخ يضع على رأسه لفّة شديدة البياض وشديدة الترتيب.

على الرغم من أناقة هذا الشيخ ومهابته إلّا أنه لم يكن متكلّفًا.

إنه رجل يحبّ المزاح ويرمي تعليقات ساخرة لا توفّر أحدًا بمن في ذلك هو نفسه. قال لأبي مرّة إنّ الناس يقبّلون يد الشيخ فيتعوّد هذا ويغتاظ لذلك ممن لا يقبّل يده. يمتلك الشيخ فضل، فضلًا عن النَسَب، المواصفات التي جعلته الشيخ الأبرز في كامل المنطقة، وأهمها ثقافته وسفره الذي كسر الانغلاق القروي المميّز. وكانت طبيعته الشخصية هذه مما ساعدني في ذلك اليوم على تخطّي الموقف الحرج الذي وجدت نفسي فيه أمامه.

كنت قد بلغتُ منذ وقت قصير، السادسة عشرة من عمري، وهي ليس فقط السنّ التي يبدأ معها حقّ الشخص في «استلام دينه»، بل هي السنّ المفضّلة لذلك، أي للدخول في علاقة تَبَعية دينية أو عمومة خاصة مع الرجل الذي تختاره لكي يلقّنك السرّ. ولكنني كنت قد اخترت طريقًا أخرى مضادة، أو كانت قد اختارتني تلك الطريق لأنها امتلكت قصب السبق إلى قلبي، لا أكثر.

صاح لي أبي، فدخلت إلى الغرفة التي يملؤها الشيخ بسحر شخصيته. نهض الشيخ ومدّ يده لمصافحتي، صافحته من دون أن أقوم بالحركة التلقائية التي ترافق في العادة مصافحة شيخ مثله، أي تقبيل اليد. لم يعلّق الشيخ على إهمالي ذاك بأيّ شكل، لم يبدُ عليه أيّ ارتكاس سلبي. لم يرفع يده باتجاه وجهي ليحرجني لكي أقبّل يده، كما يفعل شيوخ غيره، ولم يرمِ لأبي بعبارة معاتبة تتعلّق بسوء تربيتي مثلًا، كما يمكن أن يتخيّل المرء من الشيوخ. ولكي يُظهر للشيخ أنه انتبه إلى سلوكي، قال أبي: «ألا تريد تقبيل يد الشيخ وقد وقف لمصافحتك؟»، غير أنّ الشيخ أزاح ثقل السؤال عني على الفور قائلًا: «لا يزعجني هذا

الأمر، لا يجب أن نفرض على أولادنا ما لا يرغبون فيه. الأَوْلى أن يقبّل يدك». ردّ أبي ضاحكًا: «الحقيقة إنه لا يفعل».

في تلك السنّ كانت تسيطر عليّ، ربما ككلّ من يكونون في هذه السنّ، فكرة مستبدّة بقدر ما هي بسيطة، وهي أنّ جيل أهالينا هو جيل زائل، أو قلْ هو جيل حاول وفشل، وأنّ المستقبل لنا نحن أو أننا المستقبل، سوف نحاول وسوف ننجح، هكذا بيقينٍ أعمى. ليس في هذه الفكرة مضامين شخصية، فهي لا تقود مثلًا إلى قلّة احترام تجاه الكبار أو إلى نشوء نفور نفسيّ تجاه الأهل أو من هم في جيلهم، بل يتعلّق الأمر بالمعنى العام، بالنفور من نظرتهم إلى الأمور العامة، إلى الدين، إلى السياسة، إلى الموضة واللباس، إلى العلاقات الاجتماعية وما إلى هذا. يمنحك هذا شعورًا بالقيمة يخفّف أو يتغلّب على شعور الصغير بسطوة الكبير. لم أعد صغيرًا على أي حال!

جلس الشيخ مجددًا، وجلس أبي وبقيت أنا واقفًا كأنني أقول لأبي ماذا تريد مني، أريد أن أذهب. كان الشيخ يتأمّلني بعينين هادئتين بينما راح أبي يتكلّم بسرور عن تفوّقي الدراسي وآراء المعلّمين بي. علّق الشيخ مازحًا: «أليس هذا أفضل من أن يقبّل يد الشيخ ويفشل في الدراسة!».

ضحك أبي ثمّ اتخذ هيئةً أكثر جدّية وسألني مباشرة: «إنك لن تجد أفضل من الشيخ وهيب ليكون عمًّا لك، ألا تريد استلام دينك؟». أجبت بقطعية من سبق أن كوّن موقفًا نهائيًا من موضوع الدين: «لا». يبدو أنّ الرجلين لمسا قطعية إجابتي، فلم يكرّر أبي السؤال، فقط قال: «كان

يجب أن أسألك»، وأردف الشيخ بدماثة متوجهًا إلى أبي: «لعلّ قلبه بلا استلام الدين، أطهر من قلوبنا».

خرجتُ من الغرفة وأنا أشعر بالفخر، فقد واجهت أهم شيوخ المنطقة، ولم أقبّل يده، ورفضت التقليد الجاري بتلقين السرّ الديني لمن هم في سنّي. كنت سعيدًا بقناعتي المضادة لما هو سائد، ووفيًا لها أمام الشخصين اللذين يمثّلان السلطة المعنوية الأكبر، الأب والشيخ. والحقيقة أنّ انتصاري ذاك جاء محمولًا على سعة أفق الرجلين، على قبولهما لنزوعي الرافض. لقد كان انتصارًا لهما في الواقع أكثر مما هو انتصار لي. لكنني خرجت حينها أشعر بالانتصار، وفي داخلي دافع أقوى للقراءة التي تعزّز قناعاتي تلك التي انتصرت لها.

زينو الفرّان

رجلٌ قصيرٌ ضئيل الجسم شديد السمرة ذو وجه ضامر غير متناسق، يستعمره أنف باذنجاني مستبدّ يحيل باقي ملامح الوجه إلى الهامش على الرغم من مقاومة الشفتين الغليظتين. عينان صغيرتان مهزومتان أمام سطوة الأنف الذي أحالهما إلى مجرّد خرزتين ملحقتين بجذره. الحاجبان منقوصان بضياع نصفيهما الوحشيين، والوجنتان ضائعتان. الأذنان فقط نجتا من سطوة ذلك الأنف وراحتا تنافسانه في البروز. وقد كان لدى هذا الرجل، كما تبيّن، عضو آخر يتسلّط على كامل شخصيته، في موازاة تسلّط الأنف على كامل أعضاء وجهه.

حقّق هذا الرجل خطوة مهمة في القرية بتأسيسه فرنًا للخبز. سوف يندم الأهالي على هذا لاحقًا، لأنه يتضمّن تفويض ذلك الرجل باستلام حصّة الطحين المخصّصة للقرية من الدولة، فقد تبيّن للقرويين بعد وقت غير طويل أنّ ذلك الفرن هو سلطة أكثر مما هو خدمة.

بسبب الفرن تخلّت العائلة عن التنّور الذي تعوّدت صناعة الخبز فيه طوال تاريخها. هكذا انتقلت القرية، بخطوة واحدة، إلى مستوى

جديد من الحياة، مستوى الحياة بلا تنوّر. اختفى من القرية مشهد التنانير التي تملأ الجو بالدخان صباحًا قبل أن تتحوّل نارها إلى جمرٍ يشوي العجين الملزوق على الفخّار ويحيله إلى خبز ناضج. اختفى الصوت الصباحي لهسهسة النار وهي تلتهم الحطب الناعم في جوف التنّور. تلاشى حديث نساء القرية عن الاستعداد للخبز على التنّور، عن التشارك في الخبز للاستفادة من نار تنّور واحد بدلًا من هدر الجهد والحطب في تحمية تنّورين، عن العجن والخميرة، عن الشكوى من تأخّر اختمار العجين بسبب البرد، ومن عدم توافر الحطب اللازم، ومن برود التنّور قبل انتهاء الخبز... لم تعد ذات فائدة مهارة النساء الماهرات في رقّ العجين ولزقه على التنّور. خسرت القرية نكهة المرور على تنّور وأخذ رغيف ساخن والتلذّذ بطعمه الطازج المالح. بغياب التنّور غاب أحد مجالات المقارنة بين نساء القرية. أصبحت للذكرى ظاهرة الكرم التي كانت تجبر المرأة على إعادة العجن والخبز لأنها وزّعت خبزها الساخن على من صادفته في طريقها بين التنّور والبيت. خسرت الكلاب ذلك المكان الدافئ للقيلولة بجانب التنّور. أحيلت إلى التقاعد عدّة التنّور ودخلت أسماؤها في طور التلاشي من اللغة. صار القرويون يشترون الخبز كما يشترون السكّر والملح، صار سلعة يشتغلها غيرهم ويشترونها بمال جنوه من اشتغالهم بأشياء أخرى.

حين كان يأتي ضيف على غير توقّع في آخر النهار، كما هي الحال غالبًا في القرية، كان يمكن للعائلة إذا ما كان لديها نقص في الخبز، في أسوأ التقديرات، أن تشعل التنّور في غير موعده، وأن تخبز ما تحتاج، فينضج الخبز والطبخة في الوقت نفسه. أما في زمن الفرن، فإن الحلّ

الوحيد لإكرام ضيف المساء، هو البحث عند العائلات الأخرى عمّا تبقى لديهم من خبز الفرن.

بسبب الفرن فَقَدَ الخبز خصوصيته، تلك اللمسة الخاصة بكلّ عائلة، صار شيئًا عامًا يتشابه في كلّ البيوت. كانت صناعته أمرًا عسيرًا على النساء بشكل خاص، ولكنّ للخبز العام مرارته أيضًا. في حقبة التنّور كانت الصبية ترسل إشارة ودّ وتقرّب إلى أم الشاب الذي ترغب في الارتباط به، فتركض لمساعدتها في رقّ العجين ما إن تراها أشعلت التنّور، وبسبب الفرن خسرت الصبايا إشارة التودّد الدافئة تلك.

توقّف الفرن عن العمل لسبب ما، صار يعني فقدان الخبز في القرية. لكنّ الأخطر من هذا، هو أنّ صاحب الفرن صار يترجم مواقفه من العائلات تمييزًا في تعامله مع أبنائها أمام الفرن. يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، يعطي من وصل لتوّه ويمنع من انتظر لساعات. ابن العائلة التي لا تروق له سوف ينتظر ساعات أمام الفرن قبل أن يأخذ ما يريد أو أن يقال له إنّ الخبز انتهى. لم يعد من السهل الحصول على خبز الفرن على الرغم من طعمه الحلو ولونه الأبيض وملمسه الاسفنجي الذي صدم أهالي القرية حين كان ما يزال عهدهم قريبًا بخبز التنّور. أصبح الانتظار على باب الفرن السبب الأبرز في تأخّر التلاميذ عن المدرسة. صار الفرن سلطة، يرضى منها قسم من الأهالي ويستاء منها قسم آخر، فيعجزون عن التوحّد ضدها. وكان زينو من الذكاء بحيث لا يترك الخطّ الفاصل بين الراضين والناقمين ثابتًا، فعلى نحو غير مفهوم ينقل عائلة من جهة إلى أخرى، وهكذا.

كانت مهمة إحضار الخبز من الفرن شاقّة على نفس الطفل الذي كنته، أحيانًا كنت أنتظر طويلًا لأنّ عائلتنا «ضد الوضع»، كما كان يكرّر زينو، وأحيانًا كان يعطيني ما أريد من الخبز فور وصولي، قائلًا إنني أولى من الجميع لأنه لا يوجد في القرية من هو أرجل أو أصدق من أبي. وكان من شأن هذا أن يفرغ شحنة الغضب المتراكم في نفس أبي ضده.

ربما للتخفيف من وطأة الاستيقاظ المبكر للعمل في الفرن، أو لخلق جو نشاط بين عمّال الفرن، أو لمجرّد المتعة، كان زينو يشعل المسجّلة فيعلو صوت صالح رمضان أو عقيل قدور أو إبراهيم صقر في مواويل العتابا. ولم يطل الأمر قبل أن يقرّر زينو أن يشارك القرية كلها بمتعة الفجر أو ما قبل الفجر، فوَضَعَ على شجرة السرو العالية التي كُتب لها أن تكون أمام الفرن وأن تسهم لذلك في مأساة مقبلة، مكبّر صوت تكفّل بإيقاظ القرية أسوة بعمّال الفرن. ولأنّ الاحتجاج كان يعني زيادة الانتظار أمام الفرن، ولأنّ تصعيد الاحتجاج كان يحمل إمكانية الاصطدام بعمّال فرن زينو قبل الاصطدام به، فقد تعوّد الأهالي على صباحات الفرن هذه، ولم تعد تخرب عليهم نومهم.

في فجر أحد الأيام، أيقظ مكبّر الصوت الأهالي لأنه حمل أصواتًا غير مألوفة، كانت تلك أصوات لقاء حميم بين زينو وإحدى نساء القرية. الصدمة أذهلت الجميع. كانت الأحاديث تدور منذ زمن عن علاقة تجمع زينو بتلك المرأة، غير أنه لم يخطر في بال أحد أن يصل الأمر إلى حدّ أن يقدم «فرخ القرباط»، كما كان يسمّيه كارهوه، على مثل هذا الفعل.

واجهت القرية هذه المرّة تحديًا أقسى من ذاك التحدّي الذي واجهته حين أنجبت سكينة طفلها ربيع على صورة عشيقها. عائلات كثيرة قاطعت الفرن وسحبت تفويضها بحصّتها من الطحين وعادت إلى حياة التنّور. أُجبر زينو على إلغاء مكبّر الصوت على الرغم من تأكيداته بأنّ كلّ ما حصل هو مجرّد خطأ في وضع الكاسيت وليس لغرض آخر.

في الصباح، بكت لمياء كثيرًا، وهي المرأة التي قادها حظّها العاثر للوقوع في حبّ ذلك الرجل إلى درجة أفقدتها السيطرة على نفسها. بكت لأنها لن تستطيع الاستمرار معه بعد ذلك، ولأنها باتت في موقف يحرمها من الخروج من البيت، ولأنّ ما جرى سوف يثقل على أبنائها وبناتها، وكان زوجها آخر من تحسب له حساب. لكنها لم تكن تدرك إلى أيّ حدّ سيكون لهذا الفعل من تبعات.

لا أظنّ أنّ في القرية كلها من هي أكثر حشمة وخجلًا من لمياء. حلوة الملامح قليلة الكلام ولا تستطيع أن تطيل النظر في عيني أحد حتى لو كان طفلًا. امرأة حريصة على عائلتها، ولا يُعلم عنها أنها أساءت لأحد أو اغتابت أحدًا، سوى أنها وقعت تحت سطوة حبّ أقوى منها، صدف أنه حبّ لرجل لا قيمة عنده لأيّ قيمة. لم تكن لمياء بقوّة سكينة، ولم تستطع لذلك أن تحمي سقطتها تلك التي كان لها نتائج كارثية على عائلتها.

ابنها الوحيد، الذي كان في سن المراهقة، امتص الإهانة الأصعب على قلب الابن، تلك الإهانة الصريحة التي لا يمكن الالتفاف حولها، ولكنّ عقله ناء بحملها مع الوقت، وانكسر. في البداية التحق عماد

بمصدر الإهانة، بدلًا من الانتقام منه، أو معاداته على الأقل. صار يعمل في الفرن مع زينو الذي صار يهتم به ويداريه كما لو أنه أب غير شرعي له. علاقة ودّ غريبة بين رجل وطفل، تسبّبت وقاحة الأوّل في تحطيم ذات الثاني. كان يمكن الاعتقاد بأنّ عماد اتخذ من زينو أبًا نفسيًا بدلًا من أبيه البيولوجي الذي تحوم الشكوك أصلًا حول أبوّته. ربما شدّه إلى زينو تلك الصفات التي يفتقدها في أبيه: الجرأة، الثقة بالنفس، والتهتّك. ربما قاده جبنه «الموروث» إلى تفضيل السلامة باللجوء إلى حضن المعتدي والمكوث في حمايته، على مخاطرة الانتقام منه. غير أنّ هذه التفاسير تداعت مرّة واحدة عندما جاءت سيّارة جيب عسكرية تغري الشباب بالالتحاق بسرايا الدفاع.

قفز عماد بقميصه الداخلي الكحلي من داخل الفرن فرحًا وسجّل اسمه بحماسة. بعد شهور عاد عماد إلى القرية ببدلة عسكرية مموّهة وبارودة روسية. بهذه الهيئة راح يسير في القرية محاولًا استعادة ما لا يُستعاد أو ترميم زجاج تكسّر. لا البدلة المموّهة ولا السلاح الروسي ولا مظهر القوّة الذي تصنّعه عماد، كان قادرًا على إخفاء عطبه الداخلي المقيم. بهذه الهيئة استقبله زينو ووضع له كرسيًا وطربيزة أمام دكّانه المجاور للفرن، مع زجاجة بيرة وصحن من الفستق. الشاب المهان الذي عمل أجيرًا في الفرن، أصبح عسكريًا مهيوبًا يحترمه زينو ويقدّم له الضيافة ويكلّمه كرجل. لكنّ حفرة الذلّ في النفس كانت تتّسع مع الوقت بأكثر ممّا يمكن ردمها.

هل لو قام بفعل انتقام ما، كان أنقذ نفسه من مصيره التالي؟ أكان ذلك ممكنًا لو وضع الروسية في صدر زينو واستخرج من داخله الشخص

الجبان الخائف الذي لطالما أخفاه زينو وراء شخصيته المستهترة المسيطرة، لو جعل زينو يركع أمامه ويستغفر ويستجدي طالبًا أن لا يقتله، لو جاءت زوجة زينو وبناته يبكين ويطلبن منه الرحمة فيما زينو راكعًا أمام فوهة البندقية متوسّلًا، لو قتله، من دون انتظار، برصاصة في الرأس وبقي في مكانه واقفًا قرب جثته حتى يراه الجميع، لو أفرغ مشط الرصاص في واجهة دكّانه وأحالها إلى حطام؟ هل كان يمكن أن ينجو من مصيره التالي لو فعل شيئًا من هذا؟

بعد سنوات قليلة صار عماد الضحية الثانية للحبّ في قريتنا بعد سميرة. وإذا كانت سميرة قد ذاقت الحبّ وطارت روحها في نعيمه حينًا من الزمن قبل أن يتفكّك عقلها، فإنّ عماد انزلق من عالم العاقلين قبل أن يعرف ويتذوّق من الحبّ سوى حبّ أمه التي يقال إنها كانت تحبّه إلى حدّ العبادة، والتي أودت به من حيث لا تريد ولا تدري إلى هذه الهاوية، وكانت هي الضحية الأولى لسقوطه ذاك، فقد دشّن عماد دخوله عالم الجنون الذي له معاييره المختلفة التي لا يفهمها العاقلون، بأن بدأ بشتم أمه وضربها، قبل أن تتساوى في عينيه البيوت ويتشابه البشر، ويهيم على وجهه بين القرى.

أصبح الزواج حلمًا مستحيلًا لبنات لمياء. صارت الثقافة الشعبية والأمثلة المحفوظة مثابة جدار صلد يفصلهنّ عن الزواج. الصغرى اختارت الدخول في العالم السهل الذي سبقها إليه أخوها قبل أن تصبح في سنّ الزواج. بشعر متّسخ ومنفوش، صارت ميساء تعبر الطرقات وتمدّ لسانها لكلّ من تراه، ومن وجهها تطلّ عينان حائرتان معلّقتان على حبل مشدود بين الخوف والجرأة، تطلّان بنظرة فارغة تخيف

ملاقيها وتدفعهم إلى تجنّب التلاقي بها. هكذا كانت ميساء الضحية الثالثة للحبّ في قريتنا، فيما بقيت الأخريات الجريحات القلب، أمثلة حيّة عمّن تقع ضحية ذنب لا يد لها به.

عقول تجرم وأخرى تدفع ثمن هذا الإجرام. الغريب أنّ العقول التي تجرم تحافظ على تماسكها وتستمرّ، فيما تتفكّك العقول البريئة من الإجرام وتدخل في ذلك العالم الغريب الذي نراه ولا يمكن لنا نفهمه، عالم الجنون. ثلاثة من أبناء كفرية الشباب أوصلهم الحبّ إلى الجنون، سميرة لأنها أحبّت وخُذلت، وعماد لأنّ عقله لم يتحمّل العيش مع «فضيحة» تسبّب بها الحبّ، وأخته التي ساعدها صغر سنّها على تحمّل الفضيحة نفسها، لكنّ عقلها انهار مع الوقت تحت ثقل الحصار المعنوي الذي حرمها من الأمل بحياة طبيعية.

حمل الزمن التالي للمياء غشاوة على العينين تحوّلت مع الوقت إلى ستارة سوداء. عميت لمياء، هي التي كانت تقول إنها تتخيّل أي شيء لكنها لا تستطيع أن تتخيّل كيف يعيش الأعمى. أما زينو، فقد حملت له الأيام عزلة تامة، بعد وفاة زوجته، فلا يجد من يأنس إليه حتى بين بناته، هو الذي كان على الدوام مركزًا لتجمّع المتعطّلين الباحثين عن تمضية الوقت.

عزيز

ولد عزيز في وسط كفرية بخلقة كاملة، لكنّ القدر كان يخبّئ له في سيناريو حياته اللاحقة، إضافة ونقصًا، فقد أضاف له حدبة بقيت ملتصقة بكتفه الأيمن حتى نهاية عمره، وكان يقول في تفسيرها إنّ مرضًا مزمنًا ألزمه الفراش لوقت طويل، وكان يبقى ساعات ملتفًّا على نفسه لكي يرتاح من الألم، ممّا أدى إلى ظهور الحدبة. بعد ذلك توسّل القدر حادثًا أليمًا له في مقلع الأسفلت أدّى إلى بتر القضيب، وكان من قسوة هذه النتيجة أنّ أهالي القرية أطلقوا اسم عزيز على المقلع الذي شهد نكبته (مقلع عزيز)، من دون أن يعرف أحد أكان في هذا لفتة تعاطف أم إيماءة ساخرة. ومهما يكن الأمر، فقد استقلّ الاسم بذاته وصار على ألسنة الناس من دون أن يعرفوا من هو عزيز هذا، أو ما سبب هذه التسمية. هكذا أكمل عزيز حياته تحت ضغط الشعور بزيادة على الظهر ونقص بين الفخذين.

لم تكن حياة عزيز مأسوية كما قد يخال المرء. كان من أكثر الأطفال دلالًا عند أمه التي كانت تحمل لقب «العرجاء» على الرغم من أنها لم تكن تعرج في مشيتها. ربما عرجت فترة من الزمن لسبب ما والتصقت

بها هذه الصفة إلى الأبد. لم تتوقّف «العرجاء» عن إرضاع عزيز إلى أن صار فتى، وظل صدرها يجود بذاك السائل الأبيض الذي عشقه ابنها المدلّل إلى حدّ الإدمان، ولم تفرض أمه عليه الفطام. كثيرًا ما شوهد ذلك الطفل يعترض طريق أمه العائدة من النبع أو من عملها في الأرض لكي يأخذ نصيبًا من حليب صدرها، قبل أن يركض عائدًا لإكمال لعبه مع الأولاد. كانت أمه تضع ما تحمله جانبًا، بكل سعادة ورضى نفس، وتعطيه صدرها، أو تكتفي بأن تتوقّف وتدعه يأخذ نصيبه بعد أن أصبح طويلًا بما يكفي لفعل ذلك، ومن أجل هذه الغاية، كانت تجعل فستانها مناسبًا، فتزيد من طول الفتحة الأمامية له وتسمّيها «فتحة عزيز». إلى هذا، لم تكن أمه تسمح له أن يخرج من البيت من دون حذاء يحمي باطن قدميه، وطاقية تحمي رأسه من البرد والهواء. لهذا كله صار اسم عزيز يضاف إلى اسم أمه للدلالة على مدى ارتباطه بها ودلالها له فيقال له «عزيز العرجاء».

نُسب عزيز إلى أمه، ونُسب إليه المقلع وفتحة الفستان الأمامية الطويلة، لكن في حديث القرويين لم يُنسب إليه ما ينسب في العادة إلى الرجل، لم يدرج على ألسنة أهل القرية عبارة «زوجة عزيز»، بقيت تلك الزوجة في أحاديثهم، مستقلّة باسمها الموروث من زواج سابق «أم صبيحة».

الحظ الذي عبس في وجه عزيز وجعله يخسر قضيبه في حادث كان يمكن أن يخسر فيه أي شيء آخر سوى القضيب، ابتسم له بدفء حين تزوّج «أم صبيحة». لن يكون رجل أحدب بنقص حاد بين فخذيه، وفقير فوق هذا، مطمعًا لأيّ امرأة. سوى أنّ أرملة من قرية أخرى

وافقت برضى تام على الزواج منه، وقضت حياتها معه بسعادة في بيته البسيط المؤلّف من غرفتين متلاصقتين تطلّان على ساقية القرناص أمامهما فسحة دار صغيرة تغطيها عريشة عنب.

دعاء أمه وقلبها المكرّس له، لأنه وحيدها ولأنّ أباه توفي قبل أن يتقن ابنه الأوّل قول كلمة بابا، هو سبب توفيقه في الزواج من تلك الأرملة التي كانت مزيجًا فريدًا من الجمال والحكمة والعفة وحلاوة اللسان. مهّدت له بيتًا دافئًا وأكملت مع عزيز البالغ، المشوار الذي قطعته «العرجاء» مع عزيز الصغير.

دائمًا كانت أم صبيحة فوق صراعات العائلات التي لا تنتهي في القرية، ظلّت صديقة للجميع لأنها لا تتكلّم بسوء عن أحد وترفض بلطف أن تسمع كلامًا سيئًا بحق أحد، وحين يصرّ أحد ما على كسبها ضد شخص أو عائلة أخرى، كانت تستخدم ضعفها وسيلة لترتفع فوق تلك المشاحنات: «أنا فقيرة ومقطوعة ولا أحمل قدرة على معاداة أحد. أحبّكم جميعًا. لا أستطيع معاداة حتى من يسيء إليّ»، تنسب ترفّعها عن العداوات إلى فقرها وضعفها، لكي لا تقول إنّ قلبها لا يستطيع أن يحمل العداء لأحد لأنّ فيها خصلة من المسيح، وكانت دائمًا قوية بهذا الضعف وهذه الخصلة.

على الرغم من جمالها وصفاء ضحكتها، كان في وجه «أم صبيحة» وكلامها وسلوكها ما يخمد في نفس الرجل، مهما كان دنيئًا، أيّ نزعة لتعدّي حدود الاحترام معها. حتى زينو الفرّان كان يلتزم احترامها حين كانت تضطرّ للذهاب إلى الفرن. وكان تحت تأثير قوّة غير مدركة

يعطيها ما تريد من الخبز فور وصولها، وبكل احترام وكأنّ زينو ليس هو نفسه.

لم تبخل أم صبيحة في مساعدة أحد دخلت في عينه نثرة ما، فقد كانت تتقن تنظيف العين من الشوائب بطريقة فريدة، وتذهب إلى من يحتاجها من دون أن تضطرّه للمجيء إليها. تمسك الجفن العلوي للعين بأصابعها، وتدور بلسانها الناعم على كرة العين فيخرج اللسان حاملًا النثرة أو شعرة الرمش أو القشّة التي تؤلم العين وتدمعها وتعجز عن لفظها.

في الاهتمام بزوجها كما في الخبز على التنّور وفي زراعة الأرض وترتيب البيت والخياطة، لم يكن لها شبيه في القرية. لن تراها في عجلة من أمرها، تشعرك وهي تعمل بأنها تسيطر على الزمن كما يسيطر فارس قدير على حصانه. سوف تسعد كلّ امرأة في القرية، حين تجد أم صبيحة قادمة لزيارتها، على الرغم من أنّ النميمة لن تكون جزءًا من حديثهما. لكنها تسعد جليستها بهدوء روحها وحلاوة لسانها واستعدادها الدائم للمساعدة والمشورة.

وعلى خلاف زوجته، كان عزيز يحبّ الأعراس في القرية، ولا يتخلّف عن دعوة إلى عرس، ولا يراه أحد، مع ذلك، في حبل الدبكة. في العرس كان يمارس هوايته في مراقبة حركة الشباب والصبايا لمعرفة من يحبّ من، ومن يتقرّب ممّن، ومن يتنحّى جانبًا في العتمة لكي يأخذ قبلة ممّن. يُعقد عرس القرية في الليل في الهواء الطلق، في دار واسعة أو على بيدر يسمح بالتئام حبل للدبكة. يكون العرس، لذلك، فرصة مناسبة

للكشف عن المشاعر وإبداء الميول واللقاءات الغرامية، وهذا هو ما يشدّ عزيز إلى العرس، لكي يراقب ويكتشف ويغني مخزونه من الأسرار المكتشفة.

بعد سنوات من زواج أم صبيحة من عزيز، جاءت الأيام بامرأة لطيفة أخرى إلى كفرية. كانت هذه المرأة أرملة أيضًا وقادمة من القرية نفسها التي جاءت منها أم صبيحة. لا تجمع المرأتين أي قرابة لكنهما كانتا من طبيعة واحدة، سوى أنّ «أم صالح» كانت أكبر سنًا وترتدي زيًا تقليديًا على خلاف أم صبيحة التي كانت ترتدي زيًا شبيهًا بما ترتديه نساء القرية.

سكنت أم صالح عند بيت عمّي المجاور لنا لكي تعين زوجته في أعمال البيت كنوع من ردّ الجميل لعمّي الذي ساعدها، بوصفه رئيسًا للمقالع، في العمل. بطربوش منخفض على الرأس تغطيه لفحة بيضاء، وفستان طويل مشدود على الخصر بحزام قماشي عريض وعديد الطبقات، وجاكيت قماشية على الجذع، وحذاء بلاستيكي أسود، كانت أم صالح تدور في أرجاء دار عمّي بخطوات يتضافر فيها مفعول العمر والطبع في جعلها متّزنة وهادئة. أصبح ذلك الزي في ذهني رديفًا لمواصفات تلك المرأة، اللطف الزائد الذي يشوبه ظلّ خفيف من جناح مكسور، القناعة التي تملأ وجهها بالرضى، قدرتها الفريدة على عدم إزعاج أحد حتى لو أساء إليها، لغتها الناعمة وتعابيرها المميّزة: «يا موتي!» كانت تقولها بميم مفتوحة وياء ممطوطة بعد تاء ساكنة، لتدلّ على تعاطفها مع طفل يبكي، أو بالغ يروي ما تعرّض له من خطر، وتقولها أحيانًا ردًا على تهمة (باطلة بلا شك) توجّه إليها. لم أسمع هذا

التعبير من امرأة غيرها، يمكن لنساء القرية أن يقلن في هذه المواقف «تقبرني!» أو «يا دلّي» لكنّ ذاك التعبير خاص بتلك المرأة. لا أدري إن كان تعبيرها ذاك شائعًا في القرية التي جاءت منها، لكن أم صبيحة لم تكن تستخدم هذا التعبير على أيّ حال.

في المواقف النقيضة، وللتعبير عن استحسانها أو سعادتها لأمر أو خبر ما، كانت تقول «أخّيي»، بتشديد الخاء وتسكينها مع مطّ الياء. لم يكن اللفظ فقط هو ما يميّز تعابير أم صالح، بل الانطباع الذي تتركه، الشعور بالصدق ونقاء القلب تجاه الجميع. هذا ما جعل تعابيرها الخاصة المشفوعة بحركة لا إرادية من زاوية العين والفم، تبقى في الذاكرة. كانت تكرّر تلك الكلمة «أخّيي» كثيرًا حين كان يعزف عفيف على العود وتغنّي زوجته «سمعت عنين الناعورة» في السهرات الصيفية في بيت عمّي. كان عفيف عسكريًا متطوّعًا يعمل في الفرقة الموسيقية في الجيش، وكان هذا يثير استغرابي، لأنّ الجيش كان يعني لي القتال والأسلحة، أما أن يكون هناك عسكري موسيقي فقد كان هذا من المفارقات التي قبلتها كما هي بعد أن عجزت عن تفسيرها. وما لفتني في أم صالح أنه كان لديها قناعة شبيهة بقناعتي، فقد اعترفت ذات يوم، بعد أن قالت «أخّيي» ممطوطة، بأنها لم تكن تعتقد أنّ في الجيش عساكر اختصاصهم الموسيقا. وددت كثيرًا أن أسمع إجابة عفيف عن السؤال الذي كان يشغلني، غير أنّ الرجل اكتفى بالقول: «في الجيش يوجد كلّ شيء».

الصراعات والضغائن والحساسيات التي لا تنتهي بين العائلات ولاسيّما بين النساء، تضع الشخص الطيب في موقف عسير، فكيف إذا

كان هذا الشخص معتمدًا في حياته إلى حدّ كبير على إحدى العائلات الداخلة في الصراع والمشاحنات؟ كثيرًا ما وُضعت أم صالح في هذا الموقف: أن تبقى بعيدة عن أهواء العائلات وصراعاتها من دون أن تخسر أحدًا. ودائمًا كانت تتخطّى الصعوبة بأن تسكب من طبيعتها مزيدًا من الطيبة وصفاء القلب. لا تتوانى عن عون العائلة المحتاجة لمساعدة، حتى حين لا يروق سلوكها هذا لعائلة عمّي. تنهي مساعدتها وتعود لترضي من حمل في قلبه غيظًا ممّا فعلت. لا يسعها أن تمتنع عن مساعدة تستطيع تقديمها لمحتاج، كائنًا من يكن. هذه هي القناعة التي توصّل لها الجميع وتعوّدوها وقبلوها مع الزمن. وصفة أم صالح لتجاوز الضغائن هي المزيد من الحبّ والطيبة، لأنهما أرض غير صالحة لنمو الضغائن.

كطفل، كنت أجد في طيبة أم صالح تنويعًا جميلًا من الشعور تجاه الأم. الشعور بالأمان التام، أنت أمام إنسانة صافية القلب تجاهك ولا يمكن أن تؤذيك ولو بكلمة، تشعر أنّ لك قيمة وازنة في عينيها. الطفل يقدّر عاليًا نظرة المحبّة المشبّعة بالتقدير من الكبار، تلك نظرة خاصة لا يجود بها الكبار على الصغار في العادة. أما عينا أم صالح، فإنهما تلتمعان إلى جانب المحبّة، بنظرة تقدير للطفل وكأنها تراه في مستقبله، شابًا يحتلّ مكانه في محيطه العائلي والعام وهو ما يزال طفلًا بلا مكانة. جميل أن تكون في موضع محبّة، لكنّ الأجمل أن تكون في موضع تقدير ومحبّة معًا.

المحبّة شعور لا يُردّ، يدفع صاحبه لاحتضان طفل مثلًا، أو مداعبته أو محاولة إسعاده بطريقة ما، يلبّي ذلك حاجة لدى المحبّ ويرضي

شيئًا لدى المحبوب بلا شك، غير أنه في أساسه اندفاع من المحبّ تجاه موضوع ما، أي هو دافع ذاتي يحتاج المحبّ إلى تفريغه تجاه من يحبّ، لذلك ليس في هذا الشعور «فضيلة» كبيرة للمحبّ. الفضيلة للدافع أو للشعور أكثر ممّا هي للشخص. إنه، بلا شك، شعور خيّر يدفع صاحبه إلى تجاوز ذاته، ولكنّ في هذا ميلًا مكتومًا لحيازة المحبوب وإلحاقه بالذات المُحبّ، يبقى في هذا الشعور ثقل أناني على الرغم من كلّ شيء. أما أن يترافق التقدير مع المحبّة، ففي هذا مزج لفضيلة الشخص مع فضيلة الشعور، في هذه الحال تصبح الذات المحبوبة، أو موضوع المحبّة، في مأمن من «الاستيلاء»، مصونًا من الرغبة في الإلحاق، قائمًا بذاته، ومحبوبًا لذاته المستقلّة. التقدير يخلّص المحبّة من نزوعها الاستملاكي الأناني.

في صباح يوم خريفي كانت أم صالح تجلس على المصطبة الكائنة أمام البيت، واجمة وحزينة. كأنّ شيئًا ثقيلًا أغرق ابتسامتها التي تبقى طافية دائمًا على وجهها الوديع. افتقدتُ ابتسامتها المشجّعة ذلك الصباح، وأنا في طريقي إلى المدرسة. مع ذلك لم أجرؤ على سؤالها عن السبب، غير أنني طوال الدوام المدرسي شعرت بفراغ في نفسي كانت تملؤه ابتسامتها المحبّة والتي تشحن الطفل بالقيمة. وبقي في ذهني يتلجلج السؤال عن السبب. حين عدت من المدرسة علمت أنّ أم صالح عادت إلى قريتها بصورة نهائية. قالت أمي إنّ السبب هو مرض ابنتها المتزوّجة في قريتها الأصلية. لا شك أنّ هذا مؤلم، إذا كان هذا هو السبب الحقيقي، لكنه يبقى أقلّ ألمًا في نفسي من أن يكون السبب هو أنّ أحدًا ما قد أزعجها فوق قدرتها على التحمّل فاختارت أن

تهجر مكانًا لم تستطع أن تحافظ فيه على طبعها المسالم مع المحيط. اختارت أن تترك صورتها نقية، حتى لو كلّفها ذلك خسارة نمط حياة بَنَتْهُ بطيبتها وتعوّدته.

بقي أن أقول إنّ أم صالح وأم صبيحة جاءتا من قرية أقرب إلى مدينة اللاذقية من قريتنا، اسمها شريفة، غير أنّ القرويين، على عادتهم في اللعب بالاسم، يلفظونها براء مشدّدة. لقد كانتا أقحوانتين جميلتين مضافتين إلى مرج قريتنا.

أبو مسعود

نادرًا ما يمرّ يوم الجمعة، باعتباره يوم العطلة الرسمية، من دون أن تصل سيّارة غريبة إلى القرية باحثة عن بيت أبي مسعود. على طريق ترابي ضيق تصعد سيّارات مختلفة، منها اللامع الفخم ومنها العتيق الكالح، لتقف أمام منزل فقير يقطنه أبو مسعود. ولا شك أنّ هؤلاء الساعين إليه، سوف يفاجأون بفقر منزله وفقر حاله الذي لا يتوافق مع ما له من سمعه تجلب له الزوار الطالبين علاجه حتى من دمشق.

أبو مسعود ليس رجل دين أو شيخًا. لن تجده يومًا في موقع رئيس في الطقوس الدينية المرافقة للموت والزواج والأعياد مثلًا. ستجده دائمًا بين «العوام» وفي أبسط الأماكن. لا علاقة لطبّه وأدويته بالدين. إنه رجل يجيد الابتسامة الطيّبة وصناعة الدواء من الأعشاب، ولا شيء آخر. في الأعراس يمكن أن تجده في ذيل حبل الدبكة، هذا المكان الذي يشغله عادة الأولاد أو بعض أهل العريس لأنه موقع محرج فيحرص أهل العريس على أن لا يجد أحد من المدعوين نفسه في هذا الموقع. غير أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى أبي مسعود

الذي لا يهمّه أن يكون في ذيل الحبل، المهم أن يُظهر لأهل العرس مشاركته فرحهم.

سوف تظهر قيمة سلوكه هذا إذا علمنا أنّ شجارات تحدث في الأعراس لأنّ أحدًا ما استلم رأس حبل الدبكة من أحد آخر قبل أن يكمل هذا دورة كاملة.

يقدّم أبو مسعود علاجاته لشتّى أصناف المرضى، ويبرع بشكل خاص في الأمراض الجلدية. حين يقنط الناس من الطبّ الحديث، يتجهون إلى أمثاله، وبتأثير المنطقة السحرية الخصبة الكائنة بين لحظة القنوط ولحظة التمسّك بالأمل، كثيرًا ما يشفون على يد «الطبيب العربي»، التسمية التي لا يدري أحد كيف استقرّت على هذا النحو.

لدى أبي مسعود مبدآن ثابتان تتبخّر أمامهما كلّ ليونته وتساهله. الأوّل هو أنه لا يمكن أن يتقاضى أجرًا على خدمته الطبّية، والثاني أنه لا يمكن أن يبوح لأحد بسرّ علاجاته. إنه يجمع أعشابه ويركّب أدويته وحيدًا، ثمّ يصنّفها ويوزّعها على المرضى كلٌّ بحسب حالته.

جاءته ذات يوم سيّارة فاخرة، وترجّلت منها سيّدة تبدو عليها النعمة. ببساطته وابتسامته الدائمة، استقبل المرأة ومرافقيها. أصرّت المرأة على تقبيل يده، قبل أن تعرض عليه مشكلتها. قال إنه لا يحبّ ذلك، وإنّ كلّ قيمته تكمن في المعرفة التي ورثها عن أبيه، ثمّ طلب منها أن تعرض مشكلتها. كانت المرأة مصابة بداء الصدف، وقد لجأت إلى كلّ أطباء الجلدية المعروفين في دمشق وبيروت من دون جدوى. أعطاها الرجل كمّية كافية من دوائه الخاص بهذا

المرض. بعد فترة ليست طويلة، عادت المرأة إليه وقد تعافت من مرضها، وقدّمت له مبلغًا من المال قالت إنها خصّصته منذ زمن لمن يشفيها. كان المبلغ كبيرًا ولكنّ مبدأ أبي مسعود لا يتزعزع بمال. رفض أن يأخذ ولو قرشًا واحدًا، قائلًا لها إنّ «شفاءك هو أجري وقد وصلني سلفًا».

بعد سنوات طويلة، قاد ضعف النظر أبا مسعود إلى المستشفى الذي كنت فيه. الماء الأبيض في العين ليس في قائمة الأمراض التي تعالج بالأعشاب، ولا بدّ لها من الجراحة.

في المستشفى، كان أبو مسعود يراقب آلية طبّية مغايرة تمامًا للآلية التي يعتمدها. طبيب أعشاب يتأمّل آليات الطبّ الحديث. سألته، وهو موضوع للعلاج وليس سيّدًا له، عن رأيه في ما يرى. قال إنه يثير الإعجاب، ولكنه شديد الدنيوية. وشرح قائلًا: «أوّلًا، المريض روحٌ قبل أن يكون جسدًا، وإذا كان جسد الإنسان واحدًا فإنّ روحه تختلف كما تختلف البصمة عن البصمة. هذا الطبّ (طبّكم، كما قال بابتسامته العريضة) يغفل الفارق بين إنسان وإنسان، يصنف الناس بحسب المرض، ويجعل لهم علاجًا واحدًا. ثانيًا، ولأنّ (طبّكم) يغفل الروح، فإنه يغفل دور الخالق في شفاء خلقه. يتعامل مع الجسد كآلة بوظائف محدّدة تصح فيها المعادلات كما تصحّ على الجمادات».

كلامه ذكّرني بطبيب شاب كان يعمل معي في المستشفى، وكان يعلّق على أحد أساتذة الجراحة في المستشفى قائلًا إنه ضعيف الإيمان، وحين استوضحته شرح قائلًا: «ألا ترى كيف يستأصل اللّوزتين ثمّ يقوم بالإرقاء اللّازم ولكنه لا يسمح بإخراج المريض حتى

يتأكّد من انقطاع النزف مئة في المئة؟ إنّ على المرء أن يترك شيئًا من أمره للّه!».

تابع أبو مسعود حديثه وهو يتأمّل ملامح انشغالي بكلامه: «حين يشفى المريض على يديّ، أعلم أنني على الطريق الصحيح مع خالقي. شفاء المريض هو الثمن الذي أنتظره، أنتظر ثمن أتعابي من الخالق وليس من المريض، كما تفعلون أنتم». قال ذلك مع ضحكة أراد بها تخفيف وقع نقده ذاك.

حين سألته عن سرّ علاجاته العشبية، قال إنّ هذا سرّه الذي ائتمنه عليه أبوه ولا يعطيه لأحد، إلّا إذا وجد من هو جدير به. «وكيف يكون الشخص جديرًا به؟»، سألته. أن يكون قادرًا على صيانة المبدأين: حفظ السرّ، وعدم الاستفادة المادّية منه. وأبدى أسفه لأنه لم يعثر على هذا الشخص حتى بين أبنائه، وقال إنّ هذا الأمر حرمه من أن يكون له مساعد شاب في البحث عن الأعشاب في الطبيعة وفي تحضير الأدوية. ولكي يخفّف عني ثقل ما يتضمّنه كلامه من أنني أنا أيضًا من ضمن غير الموثوقين، أضاف، بابتسامته المعهودة، إنه يستثني الأطبّاء من إعطاء السرّ بصرف النظر عن ثقته بالشخص أو لا، لأنّ من طبيعة الأمور أن يعتاش الطبيب من علمه الطبّي، وهذا ينقض سلفًا مبدأ عدم الاستفادة الماديّة من السرّ.

في سنّ متقدّمة نسبيًا، تسلّل خيطٌ من الشرّ إلى نفس هذا الرجل الحكيم، فوجد نفسه في لحظة نافرة، مشدودًا إلى امرأة شابة جاءت تبحث عن علاج لديه. كان يمكن لتلك الهفوة الخفية أن تمرّ من دون

أن يلحظها أحد، لولا أنّ الرجل كشفها لصديق له، وكأنه يعترف أمام ذات نقية قادرة على امتصاص ظلّ الخطيئة من المعترِف وإراحة ضميره من ثقل الشعور بالذنب.

قال لصديقه بقلب منفتح وحرّ: «ربما لن تصدّق ما سأقول، ولكنها الحقيقة. في عمري هذا سيطرت عليّ الرغبة الخاطئة. هل تتصوّر؟ رغبة غريبة تجمع بين الشهوة والحبّ المفاجئ، خليط جذّاب من حاجات الجسد والروح، غيمة من الرغبة الآسرة محمولة على سرير من الحبّ الداهم الغامر. خانني عقلي وتركني ندفة من القطن في مهبّ الريح. صرت بلا وزن، كأنّ سنوات عمري تسرّبت من بين أصابعي حتى غدوت طفلًا تلهو به أهواؤه. للحظات لم أعد أنا أنا.

جاءتني امرأة شابّة تشتكي من حكّة شديدة وراء أذنها مع سيلان لسائل شفاف من مكان الحكّة. قالت إنّ هذه الحكّة تختفي وتعود وتنغّص عليها حياتها. أنت تعلم أنّ قلبي ليس رمية للنساء، ولست ذاك الرجل الذي تستعبده رغباته، غير أنّ في وجه تلك المرأة شيئًا مختلفًا تغلّب عليّ، وغيّرني في لحظة. كشفتْ لي المنطقة فرأيت الجلد وراء الأذن جافًا ومتقشّرًا. عرفت من نظرة واحدة إنها «حزازة» ولكنني مع ذلك تباطأت. تعثّر عقلي قليلًا وتهت في تأمل عنقها وشعرها، ووجدت في نفسي رغبة شديدة في أن أضمّ رأسها إلى صدري وأشمّ رائحتها وأعبث بيدي في شعرها. لم أعرف في نفسي مثل هذه الرغبة من قبل. سبحان اللّه، تلك هي الملامح المخصّصة لفتح روحي، وجهها كان مثابة كلمة السرّ التي تبعثر حيادي وتتجاوز دفاعاتي. لاحظتْ سكوتي وتباطؤي في فحصها، فالتفتت إليّ مستوضحة، لكنها رأت في عينيّ ما

لم تكن تنتظره من رجل في هذا العمر، وطبيب فوق هذا، ما جعلها تنهض وتطلب الإذن بالمضي من دون أن تنتظر دوائي أو نصائحي وتعليماتي. واللّه، شعرت بالخزي يا ابن عمّي. خجلت من نفسي إلى حدّ أنني لم أجد لديّ من القوّة ما يكفي لأن أطلب منها أن تتوقّف، لأن أشرح لها أو أعتذر منها. ولكن أعتذر عن ماذا؟ لا أدري. لم يبدر مني شيء يسيء لها، لم ألمسها ولم أُسمعها كلمة خارج ضرورة العمل الذي أقوم به. هل أعتذر عن رغبة غريبة شفّت عنها عيناي؟ عن طول تأمّلي لها؟ عن ضعفي؟ عن خروجي الخفي عن محتوى عملي؟ ما أزال أسأل نفسي كيف استطاعت أن تتبيّن خطيئتي قبل أن أستطيع استرداد نفسي من ذاك المنزلق الغريب».

لم يكن هذا الصديق، أو «ابن العم» كما يحبّ أبو مسعود مخاطبة الناس، رجلًا نقيًا وأمينًا بالقَدْر الذي كان يفترضه أبو مسعود، فقد أفشى هذا الرجل بالسرّ وأذاع هذا الاعتراف النبيل للطبيب العربي، ربما بدافع إدهاش مستمعيه أو بدافع الرغبة في تحطيم صورة أبي مسعود، الصورة التي طالما بهتت أمامها صورته الخاصة. غير أنّ سكوت أبي مسعود عن التعليق على استيضاحات الناس وأسئلتهم، وابتسامته الدائمة وسيرته الطيبة، كانت كلها مثابة المطر الخفيف الذي يغسل مع الوقت لطخة وحل عالقة على زجاج شفاف.

الشيء الوحيد الذي تغيّر بعد ذلك هو أنّ أبا مسعود صار يرفض استقبال امرأة إلى غرفة العلاج من دون وجود أحد من مرافقيها على الأقل معها، لكي يحمي نفسه من لحظات التخلّي تلك أو من اندفاعات عميقة الأصل يمكن أن تخون العقل وتنقلب عليه في لحظات.

مفاجأة سميعة

ستكون كفرية أقل غنى وتميّزًا لولا سميعة. امرأة بقلبين، قلب رجل وقلب طفل. تقاتل وتقف في وجه الخصم بقلب رجل، وتضحك وتمرح بقلب طفل. شجاعتها في القتال لا تقلّ عن شجاعتها في قول كلمة الحقّ، وكما يمكن للقلب الشجاع أن يرتجف أمام أعداء أشداء ومتفوّقين، كذلك يمكن لقلب سميعة أن يراوغ في الحقّ قليلًا أمام ثقل الحقّ على من تحب، ولكن كما أنّ القلب الشجاع لا يهرب من المواجهة الواجبة، كذلك لا يدوم قلب سميعة على مراوغة الحقّ ولو كان في غير صالح من تحبّ وتهوى. الثابت في قلبها أنه يرقّ للمظلومين والضعفاء والمنكوبين، وينهض لمعونتهم بالحماسة والقوّة نفسها التي تدفع بهما الظلم عن نفسها.

في حالة الحياد التام، يحمل وجه الإنسان تعبيرًا أساسيًا، هو تعبير الوجه من دون أن يكون على الوجه أيّ تعبير. تعبير يختلف عن كلّ التعابير الأخرى، كالفرح والحزن والقرف والتعاسة... لأنه خارج سيطرة الشخص وبدون إرادة منه، مثل بصمته ونبرة صوته. التعبير الأساسي أو الرسالة المباشرة التي يقولها وجه سميعة هي النقطة التي يتقاطع فيها

الاستسلام مع التحدّي، أو هو تحدّي المستسلم: «هذا أنا، سيّان عندي إعجابكم أو نفوركم أو لا مبالاتكم»، مستسلمة لما لا يمكنها تغييره، ولكنه استسلام الرضى الذي يشكّل أرضية ما يميّزها من ثباتٍ وتحدٍّ.

زوج سميعة رجل يعاكسها في الطبع. يناديه القرويون باسمه (غالب) ولكنهم يأخذونه، دائمًا، على أنه مغلوب لزوجته، فهم يعرّفون أبناءه باسم أمهم، يقولون هذا ابن سميعة، حتى أنّ الأبناء صاروا إذا سألت أحدهم ابن من أنت يقول «ابن سميعة». غالب رجل طيب وليّن يميل إلى السلامة والوداعة، ويترك أمور عائلته، مستسلمًا، لزوجته المقتدرة. لكنه في تصوّره عن نفسه رجل آخر. فهو يظن نفسه صاحب رأي وأفكار وحلّال للمشكلات، ولا أحد يدري لماذا يختار إصبع الخنصر، بدلًا من السبابة، للإشارة إلى رأسه حين يقول «يوجد هنا عقل يفكّر»، ومع الوقت صار يكنّي عن عقله بأداة الإشارة نفسها، فبدل أن يقول «العقل» صار يقول «الخنصر». يقول له جاره: «جيد أنك زرعت الفول في أرضك، هذا يقوّي التربة»، فيجيب غالب: «طبعًا، إنه الخنصر يا جار»، وسيفهم جاره، بسبب العشرة، أنّ الخنصر اسم ثانٍ للعقل عند غالب. أحد جيرانه الظرفاء قال له مرة: «أخشى ما أخشاه أن يأتي يوم وتستبدل الخنصر بجاره».

ساكو، الرجل الأرمني الذي يعمل في شركة الأسفلت كمساعد حدّاد، لا يرتاح إلّا في بيت غالب الذي يسمّونه في القرية «بيت سميعة»، وهكذا صار يسمّيه ساكو أيضًا. جاء ساكو من قرية بعيدة لكي يعيل نفسه من العمل في شركة الأسفلت في كفرية. منحته الشركة غرفة باقية من العهد الفرنسي، يسكن فيها مع صديقه الحدّاد الذي جاء

من القرية البعيدة نفسها. بعد العمل يعود ساكو إلى غرفته ليستحمّ ويرتدي ملابس نظيفة ويتناول طعامه، ثمّ يتوجّه إلى بيت سميعة وفي يده غالبًا المنجل أو القدّوم أو السكّين التي طلبت منه سميعة أن يجلخها. وفي بعض الأحيان كانت سميعة تعطيه علبة السمنة الفارغة فيعيدها وقد سوّى حوافها فلا تبقى جارحة، ووضع لها مسكة نصف دائرية على الجانب. أما علبة السمنة الكبيرة، فكان ساكو يصنع منها لسميعة رشّاشة تسقي بها مساكب التبغ والبندورة والفليفلة والباذنجان. كان ساكو معروفًا بحبّه للنظافة والمرح، وكان يتمتّع بجاذبية خاصة نابعة من عفويته واستعداده الدائم للمزاح، وكان هذا يروق لسميعة التي تشاركه هذا الطبع، وهذا ما جعله يميل إلى رفقتها أيضًا.

يجلس على كرسي القشّ أمام بيت سميعة يشرب الشاي، فيما تجلس سميعة على الجرن الحجري المقلوب وهي تقوم بعمل بسيط ما من أعمال المنزل، مثل تنقية العدس أو تقطيع قرون الفاصولياء، يتحادثان كصديقين أليفين. أما غالب، فكان يجلس دائمًا على المقعد الخشبي مسندًا ظهره إلى الحائط، سارحًا في عالم آخر. ومن حين إلى حين كان يحبّ ساكو أن يكسر سرحان غالب فيتوجّه إليه بالقول: «ماذا يقول لك الخنصر اليوم؟»، في معظم المرّات يضحك غالب ولا يجيب، وحين يُلحّ ساكو في تكرار السؤال، كانت سميعة تتدخّل بطريقتها البذيئة: «يقول له الخنصر ماذا يفعل .. أمّك اليوم يا ساكو؟»، أو «يقول له ماذا يرغمني على الجلوس مع شخص مسيحي غير مطهّر؟»، وتُتبِع قولها بضحكة عالية يشاركها فيها الرجلان قبل أن يعود غالب إلى عالمه وتعود سميعة إلى أحاديثها الأليفة مع ساكو.

كان ساكو يقول إنه تعلّم من المدرسة أنّ أهم نقطة في الدائرة هي المركز، وبالقياس فإنّ بيت سميعة هو مركز كفرية. لم تكن شخصية سميعة من النوع الذي يلائم التشكيك بعلاقتها مع ساكو. وبالفعل كان الأهالي يتقبّلون تردّد ساكو إلى بيتها وقضاءهما وقتًا طويلًا معًا بروح طيبة، يأخذهما الناس كصديقين. كانت تبدو سميعة محايدة جنسيًا بقدر ما كانت مفرطة في بذاءة اللسان.

القلب النقي لسميعة دفعها، مرّات غير قليلة، لمساعدة أم وليد في شغل أرضها المجاورة للأرض الوحيدة التي ورثتها سميعة. وفي مرّات غير قليلة أيضًا، كانت تتحوّل سميعة إلى مقاتلة لا ترحم دفاعًا عن تخوم أرضها التي تعتدي عليها أم وليد بشكل متكرّر.

في المرّة الأولى، رأت سميعة صف الحجارة الفاصل بين الأرضين منزاحًا حوالى نصف متر داخل أرضها، وقد زرعت أم وليد في هذه المسافة صفين من شتلات البندورة. حينها اكتفت سميعة بقلع شتلات البندورة «الإضافية» وإعادة الحجارة إلى مكانها وهي توجّه بصوتها، الذي يغدو مخيفًا حين تغضب، شتائم مبتكرة إلى أم وليد يكون لذكور الحيوانات وبشكل خاص الكلاب والحمير دور البطولة فيها.

في مرّات تالية تطوّر ردّ فعل سميعة على محاولات أم وليد المستمرّة لسرقة الأرض وتغيير التخوم، إلى العراك بالأيدي. كانت سميعة أقوى وأقدر على القتال، وكانت تستطيع، من الجولات الأولى، رمي أم وليد أرضًا، غير أنّ هذه كانت تستفيد من طول شعر سميعة، فما إن تتاح لها فرصة مناسبة للإمساك بشعر سميعة حتى تقتنصها ولا

تترك أمام هذه إلّا أن تمسك هي الأخرى بشعر أم وليد، فينتهي العراك بالتعادل.

وكمدمن على السرقة، لم تكفّ أم وليد عن محاولات التعدّي على أرض سميعة التي عرفت أخيرًا كيف تضع حدًا لهذا الإدمان العنيد. ذات يوم هيّأت سميعة نفسها وتوجّهت إلى أرضها وهي تدعو اللّه أن تكون أم وليد قد غيّرت التخم. هناك ضبطت أم وليد في فعلها المشين. كانت أم وليد قد طوّرت هذه المرّة علامات الحدود بين الأرضين، بدلًا من الحجارة، كانت تزرع الأوتاد في مسافة تزيد عن المتر داخل أرض سميعة. عندئذ انطلق صوت زوجة غالب بالشتائم التي أخذت فيها الأوتاد، هذه المرّة، دور ذكور الحيوانات في المرّات الماضية. وقبل أن تنقضّ على أم وليد في تلك المعركة الفاصلة، خلعت الغطاء عن رأسها وصاحت بأم وليد: اليوم سوف أجعل من هذه الأوتاد خوازيق لك يا حقيرة. انهارت أم وليد دفعة واحدة حين رأت رأس سميعة حليقًا تلمع فروته تحت الشمس، كيف لها أن تواجه سميعة بلا شعر؟ فرفعت يديها مستسلمة، وتعهّدت أن لا تعود إلى هذا الأمر مرّة أخرى. لكنّ نوبة غضب سميعة كانت أقوى من أن تهدأ بهذه البساطة، فما كان منها إلّا أن ألقت بأم وليد أرضًا وراحت تعفّر وجهها بالتراب وتصفعها بأحد الأوتاد على مؤخرتها، حتى هدأ غضبها. وفي حين كانت سميعة تعيد وضع الإيشارب على رأسها بعد هذه المعركة الفاصلة، كانت أم وليد تنزع الأوتاد وتعيد دقّها على التخم العادل بين الأرضين خاضعة لاجتماع القوّة والعدل معًا. هكذا شفيت أم وليد من إدمانها وحافظت سميعة على تخوم أرضها.

توجد قوّة غير منظورة، تشبه اليد الخفية للسوق، تحافظ على تخوم الأراضي في القرى. يتناقل القرويون قصّة رجلين اختلفا على حدود أرضيهما. قال المعتدي بغضب وهو يمسك بخنجره في وجه الرجل الضعيف: «إذا أعدت التخم كما كان سوف أقتلك هنا وأرميك في هذا الوادي، إننا هنا وحيدان كما ترى ولا يوجد من يشهد». أجاب الرجل الضعيف: «إنني لن أقبل أن تتعدّى على الأرض التي تعيش منها عائلتي، يمكن أن تقتلني الآن، ولكننا لسنا وحيدين، هل ترى زهرة الأقحوان هذه، إنها سوف تشهد عليك». سخر المعتدي وقتل خصمه ورماه في الوادي كما قال، ثمّ عاد غانمًا إلى بيته. بعد زمن طويل وفي المكان الذي قتل فيه خصمه، كان الرجل يتناول الزوّادة التي أحضرتها له زوجته. ضحك الرجل وهو يأكل. سألته الزوجة عن سبب الضحكة، فقال: «ضحكت حين رأيت زهرة الأقحوان». «وما المضحك في زهرة الأقحوان؟»، استغربت الزوجة. فقصّ لها ما جرى معه منذ زمن بعيد. وفي أوّل خلاف لهذا الرجل مع زوجته ذهبت هذه وأخبرت عائلة الرجل المغدور. هكذا شهدت زهرة الأقحوان على الرجل المعتدي وسوّيت التخوم واستعيد الحق ولو بعد حين.

سميعة، المعتدى على أرضها، كانت قادرة. أم وليد المعتدية أقرّت بالحق. هذا ما جعل قصتهما أقلّ مأسوية من هذه الحكاية الشائعة التي يتداولها القرويون.

سورية

منذ أن بدأتُ أعي ما أسمع، عرفت أنّ هناك صبيّة من قريتنا هجرت أهلها وذهبت إلى بيروت، وأنّ اسمها سورية. لا أعلم لماذا اختار أهلها أن يسمّوها سورية، على الرغم من أنه لم يكن لأهلها أيّ اهتمام بالسياسة ولا بسوريا الكبرى ولا الصغرى ولا بالأمّة العربية ولا بشيء من هذا الكلام كله. ربما كان الاسم من اختيار موظف النفوس في مركز منطقة الحفّة.

من القرية التي لا يصلها بعالم المدينة سوى «بوسطة» تنزل صباحًا إلى اللاذقية وتعود بعد الظهر، خرجت صبيّة إلى بؤرة النور ومركز المدنية غير المنازع: بيروت. تحوّلت سورية إلى أسطورة في ذهني من دون أن أعرفها. لم يؤثّر كلّ كلام الأهالي المسيء عنها في إنزالها عن عرشها الأسطوري في مخيلتي. كما لم يؤثّر بي بكاء أمّها وتبرؤ أبيها منها وشعور عائلتها بالعار. بدا لي ذلك أشبه بمأثرة أعلى من أن يطالها شيء. صار يسعدني أن أسمع سيرتها لكي أرسم لها صورة في ذهني تملأ المكان أو العرش الأسطوري الذي أنشأته لها.

عرفت أنها كانت جميلة وكسولة في أعمال البيت، وأنها لم تعترض

على قرار أهلها في منعها من الدراسة لأنها تحبّ المدرسة بل لأن ذلك يعني أن تساعدهم في أعمال البيت والأرض. لم يكن لها صديقات في القرية، كانت مثل فرخ للطائر الحرّ بين أفراخ الحجل، حين نمت أجنحته طار إلى عالمه الشاهق تاركًا السفح للحجال الوديعة. قيل إنها ذهبت إلى بيروت للعمل في التمثيل، وقيل إنها غيّرت اسمها هناك فحذفت أوّل حرفين من اسمها الحقيقي، لكي يصبح اسمها صالحًا لإعلانات الأفلام.

نسج الأهالي حولها حكايات تنطوي على رغبة مضمرة في بناء صورة باهرة لامرأة ولدت بينهم ومنهم، على رغبة في بناء صنم من قريتهم يفاخرون به، على الرغم من كلّ شيء. حين جاء غريب داوود الذي كان يعمل في بيروت لسنوات، لكي يزور عائلته قبل أن يختفي في بيروت إلى الأبد، قال إنه رأى، إذا لم تخطئ عيناه، سورية تمشي في شارع الحمرا مثل الأميرة وحولها مرافقون. وأقسم يوسف، الشاب الذي يذهب لقضاء عطلة الصيف عند أمّه اللبنانية، بأنه شاهدها في فيلم من الأفلام الممنوعة من الدخول إلى سوريا. وأقسم مرارًا بأنها كانت تتكلّم في الفيلم باللغة الأميركية، وقال مؤكّدًا (قبل أن يعود في يوم حزين إلى كفرية في تابوت، بعد أن سحب الكتائبيون دمه إلى آخر نقطة، كما قيل) إنها هي بطولها ومشيتها ووجهها وتلك الغمزة الخفيفة في الخدّ التي تميّز كلّ عائلتها.

كان يسعدني سماع أي حديث يتناول هذه الفراشة التي شقّت الشرنقة وطارت إلى عالم ملوّن بالأضواء والإثارة. سميعة مثلًا لم تكن تحبّ الحديث عنها: «يقطعها ويقطع سيرتها»، سمعتها تقول أكثر من

مرّة، ربما بدافع التعاطف مع العائلة التي نكبت بفرار ابنتها. لم يكن يروق لي كلام سميعة على الرغم من مكانتها العالية في نفسي.

«الخنصر» كان أكثر واقعية ومباشرة في حديثه عنها: «أي أميرة وأي تمثيل يا عمي! بائعة هوى لا أكثر ولا أقل. تبيع جمالها. تعاشر الرجال وتعتاش ممّا يدفعون لها. لا يحتاج الأمر لجدال». من جهته زينو رأى أنّ امرأة شابّة مثلها من الطبيعي أن تترك هذه القرية إلى الأبد حين لا يكون فيها سوى الفقر ورجال مخصيين مثل النساء.

تكفّلت الأيام بطي صفحة سورية وتهدئة قلب عائلتها وإخماد التعليقات والتحاليل بشأنها، إلى أن جاء يوم ظهرت فيه سورية في اللاذقية وقد اشترت بيتًا جميلًا قرّرت أن تكمل حياتها فيه. تركت بيروت وعادت إلى اللاذقية ميسورة وراضية بما قسمه لها القدر، أو بما انتزعته منه انتزاعًا. تأمّلتها طويلًا حين صادفتها لأوّل مرة، كمن يتأمّل نيزكًا خامدًا سقط على الأرض من سماء ساحرة في غموضها. لم أعثر فيها على ما تخيّلته من جمال، ولم تلسعني التماعة تخيّلتها في العيون، ولا غمزة ساحرة في الخدّ. توقّعت أنها تفيض سحرًا غامضًا وأنّ أشعة آسرة تصدر من عينيها وأنّ جمالًا بهيًا يحيط بها كالهالة. توقّعتها فاتنة الكلام والسلوك، آسرة الحضور، لكنها كانت خامدة وخاملة كصخرة النيزك وخالية من أسباب الدهشة ومثيرات الفضول.

كانت في حضورها وكلامها شبيهة بأيّ امرأة خسرت نضارة الروح تحت أكداس من الغبار اليومي ومن ثقل الاعتبارات والأعراف. شعرت بالإحباط، ولكنني قلت في نفسي إنني بهذا كمن يقيّم كتابًا من صورة

الغلاف. حاولت لذلك أن أقرأ ولو مقدّمة الكتاب فلم أجد المتعة الكافية للمتابعة. أغلقت الكتاب وألقيت نظرة أخيرة على صورة الغلاف الخاملة، ومضيت.

حين توافرت لي الصورة الفعلية التي كنت أبحث عنها لأملأ بها عرش الأسطورة في ذهني، كان كرسي العرش قد تداعى، وكانت الصورة التي ملأتْه طوال هذا الوقت منسوجة من مادّة الكرسي نفسها، الخيال والتصوّر ولهيب الذهن.

درويش

قضى أبو عفيف (درويش) ما يزيد على تسعين عامًا من عمره مريضًا. كان في سلوكه وحركته عجوزًا منذ شبابه. ومنذ شبابه كان مرجعًا للقرية في الشؤون التي يفترض أنها شؤون العجائز. يحفظ الأمثال القديمة، ويعطيك التاريخ الهجري المقابل للتاريخ الميلادي، ويعرف جيدًا مواعيد الأعياد وقصّة وخصائص كلّ عيد، ويساعد أصحاب العيد في العمل والمشورة. كما أنه يحدّثك من دون تلكؤ عن مواعيد أربعينية الشتاء وخمسينية الشتاء، وعن السعود الأربعة وسقوط الجمرات الثلاث، ثمّ عن المستقرضات والحسوم وعن الأيام التي تآمر فيها شباط/فبراير مع آذار/مارس للتخلّص من العجائز.

يعرف التقاليد وينتقدها ويسعى إلى تعديلها مستخدمًا سلطته المعرفية هذه، وحضوره الدائم والفاعل في المناسبات العامّة. كان له الفضل مثلًا في تخليص القرية من تقليد ثقيل كان يقضي بأن يقوم أهل المتوفّى بذبح عجل وطبخ البرغل يوم الوفاة، لإطعام المعزّين الذين كانوا، في الواقع، لا يأكلون من هذا الطعام الذي يسمّونه اسمًا منفّرًا: «أكل الميت»، وكانوا يعيّرون من يأكل منه، ومع ذلك كانوا يتمسّكون بهذا العبء الذي يضيف ثقلًا إلى مصاب أهل المتوفّى.

تأخر درويش في الزواج ثمّ تزوّج صبية اسمها بربهان تصغره كثيرًا، وظنّ الجميع أنها سوف تترمّل قريبًا، ولكنها توفّيت، مع ذلك، قبله بسنوات بعد أن أنجبت له دزّينة من الأولاد.

اعتبرت بربهان أنّ حظّها قليل بزواجها من رجل يكبرها كثيرًا وهو، فوق ذلك، يبدو عجوزًا وهو في بداية الأربعينيات من عمره. «واللّه حين يجلس ليلفّ السيجارة ويدخّن يبدو أكبر من أبي» تقول بربهان. ظلّت أمّها محزونة عليها لأنّ زواج المرأة من رجل لا ترتاح له روحها، هو العقوبة الأكبر في نظر الأم.

بعد زواجها بفترة قصيرة جاءت بربهان راكضة إلى بيت أهلها وهي تصيح بلهفة: «دخيلك يا أمّي درويش مريض». وبدل أن تسرع أمها للمساعدة في مرض درويش، ضحكت بسرور وراحت تقلّد حركات ابنتها الملهوفة، ثمّ سألت ابنتها بصوت ممطوط كالغناء، وهي تتمايل راقصة: «وعم تقولي إنك ما بتحبيه؟!» ثمّ أردفت: «الآن ارتاح قلبي لأني عرفت أنّ قلبك انفتح له».

درويش من طبيعة باردة وذو ضمير لا ينام ولا يخشى في الحق اللوم من أحد. كان ماهرًا في تطعيم الشجر ولا مثيل له في هذا الشأن، ويُحكى أنه ذات يوم من أيام شهر أيار/مايو كان يعمل في أرض أبي طاهر صاحب الأملاك الواسعة، فجاءت زوجة المالك وطلبت منه أن يتلف كلّ الثمار الغضّة في شجرات التين المجاورة لبيتها. وحين استفسر عن سبب هذا الطلب الغريب، لم تتردّد في القول إنها سوف تقضي

كلّ الصيف في بيروت هذا العام ولا تريد أن ينضج التين وهي بعيدة، فيأكله الفلّاحون.

عقدت الدهشة لسان أبي عفيف، وما كان منه إلّا أن وضع المنجل الذي كان في يده، على حافة الأرض، وارتدى سترته على مهل، ثمّ وضع يديه خلف ظهره كعادته، وغادر الأرض من دون أن يلتفت إلى المرأة، رافضًا الاستمرار في العمل لدى هذه العائلة التي لا يجد اللّه له مكانًا في قلبها. في البيت قصّ ما جرى معه إلى بربهان التي ساءها أن يخسر درويش عمله وأوشكت أن تقول إنّ هذا رزقهم وهم أحرار فيه، غير أنّ ذكاءها ومعرفتها بطبيعة زوجها جعلتها تحجم عن ذلك وتقول: «قاتلها اللّه! إنّ في مثل ذاك الطلب نوعًا من الكفر»، فاستطاعت بذلك أن ترسّخ حبها أكثر في قلب الرجل الذي لم يعرف قلبه سوى الخير.

حين قيل لأبي أحمد، الرجل التقي وصديق جدّي، إنّ أبا طاهر يملك كثيرًا من المال حتى أنه يضع النقود في الأكياس التي يملأ الناس فيها الحبوب، قال إنّ هذا لن يدوم له، وسترونه في يوم آتٍ، يحرث أرضه بنفسه على حمار أعور. وعن زوجته التي يعرف الجميع بأنها تعامل الأهالي الفقراء ببخل شديد واحتقار، قال أبو أحمد إنها سوف تدفع من جسمها ثمن سواد قلبها.

ظلّت تلك النبوءة حاضرة في ذهن أبي عفيف، بعد زمن طويل من وفاة أبي أحمد، وكأنه يتعقّبها. وحين تحقّقت، قال أبو عفيف: «سبحان اللّه، كما لو أنّ أبا أحمد كان يرى بعينيه ما تكلّم عنه منذ سنوات طويلة. الحقيقة، لم يرتجف قلبي لرؤية أبي طاهر وهو يحرث

الأرض على حمار عجوز وأعور، هذا طبيعي وعلى الإنسان أن يتعب للحصول على لقمة عيشه، ولكن حين كانت أصوات استغاثات زوجته تملأ القرية لمرضٍ ابتُليت به لم يعرف له الحكماء دواءً، تأثّرت كثيرًا، وتمنّيت لو بمقدوري مساعدتها. توجّهت إلى بيتهم الذي صار بائسًا كبؤسهم. كان أبو طاهر جالسًا أمام البيت يضع رأسه بين يديه بعجز كامل، وكانت زوجته على سرير الموت تتناهبها نوبات الألم فتجعلها تعضّ بأسنانها على الإطار الخشبي للنافذة المجاورة للسرير. سبحان اللّه، إنّ وراء هذه الحياة معنى لا نعرفه، ولكنني دائمًا أقول لبربهان إنّ الدواء الأوّل والأخير لروح الإنسان هو محبّة الناس وتمني الخير لهم».

العيد

ليوم العيد اعتبار خاص (ديني غالبًا) يجعل معظم العائلات تحتفل به، بإعداد أنواع خاصة من الطعام، أو بالتزاور وقضاء الوقت معًا، أو بالتسامح والصفح عمّا مضى من زعل وخلافات بينهم... إنه احتفال معمّم في المجتمع. في قريتنا يوجد مثل هذه الأعياد، لكنني هنا أتكلّم عن عيد مختلف.

العيد الذي أقصده هنا هو نوع من الالتزام الديني الذي تأخذه على عاتقها عائلة أو أكثر، لأسباب إيمانية خاصة بهذه العائلة، وتعمل بموجبه على تقديم طعام محدّد للمعيّدين، أي الناس الذين يأتون إلى عيد هذه العائلة. والطعام المحدّد هو البرغل المطبوخ بلحم خروف أو عجل، والذي يسمّى لذلك: برغل العيد.

في العيد يصلّي شيخ رئيسي مع مجموعة من رجال القرية في بيت صاحب العيد، وهؤلاء المصلّون هم أوّل من يأكل، بعد صلاتهم، من برغل العيد الساخن والمشبّع باللحم، ثمّ يغادرون إلى عيد آخر، ليبدأ بعد ذلك الجانب الشعبي من العيد. أبطال هذا الجانب هم الأطفال الذين لا ينتظرون أن يقدَّم لهم برغل العيد باللّحم فقط، بل

يأتون مزوّدين أيضًا «بجاطات» وطناجر لكي يأخذوا فيها من برغل العيد إلى عائلاتهم. على خلفية ضجيج الأطفال وصوت ارتطام الطناجر، يمكن أن تجد من طناجر الأطفال ما يمتلئ بالبرغل الحار واللّحم، أو ما يمتلئ بالبرغل المجموع ممّا تبقى في صحون المصلّين مع قليل من اللحم، وذلك تبعًا لموقف أصحاب العيد من أسرة الطفل. على أنّ هناك أصحاب أعياد صارمون كالسيف، لا يحابون أحدًا، فلا يُفرحون طفلًا أكثر من غيره، ولا يحزنون طفلًا أكثر من غيره، يعاملون الجميع بالتساوي. سمعت أحد هؤلاء يقول مرّة لأبي: «العيد الصحيح، إذا جئت للحقيقة والأصل، هو أن تعطي من لا تحبّه أفضل ما لديك».

كان هذا قديمًا، تطوّر العيد بعد ذلك بخطوات ثابتة، في البداية لم يعد من الملزِم أن يذبح أهل الأعياد خرافًا أو عجولًا، صار يمكن لهم استبدالها بالدجاج، ذلك أسهل وأرخص لهم. ثمّ صار هناك صحون كرتونية يُحضرها أهل العيد، تعفي الأطفال من التزوّد بالطناجر والجاطات من بيوتهم. ثمّ حدث تطوّر آخر أعفى الأطفال حتى من الذهاب إلى العيد. يقوم بضعة مساعدين بنقل برغل العيد الموزّع في صحون كرتونية إلى العائلات التي يريد صاحب العيد أن يوزّع لها. أصبح العيد، على هذه الحال، مجرّد طبخة كبيرة من البرغل بالدجاج، يسبقها صلاة لمجموعة من الرجال يؤمّهم شيخ، ثمّ توزيع الوجبة تاليًا على العائلات المجاورة والصديقة. لكنّ تطوُّر العيد لم يتوقّف هنا. الخطوة الأحدث في التطوّر كانت الاستغناء عن «برغل العيد» بالكامل وإحلال صفائح من اللحم بعجين محلّها يشتريها صاحب العيد من محلّات مختصّة في المدينة ثمّ يوزّعها كما كان يوزّع البرغل. هذا يريح

العائلة التي تلزم العيد من لبكة تأمين الذبيحة أو الدجاج وأتعاب الطبخ والتنظيف. وبما أنّ الصلاة تبقى الركن الثابت في العيد، فإنّ صاحب العيد يخصّ المصلّين بطاسات لبن تقدَّم مع صفائح اللحم. وكأنّ رضى اللّه من إرضاء المصلّين.

يبدو واضحًا أكثر مع الزمن أنّ العيد، بالنسبة إلى العائلات التي تلتزمه، يصبح عبئًا يتخفّفون منه ما استطاعوا. هناك عائلات تخلّت عن التزامها هذا مع انتقال العائلة للسكن في المدينة أو مع وفاة الأب الذي التزم العيد أو «مَسَكَ» العيد. يقولون في القرية إنّ شخصًا ما «مَسَكَ» العيد، أو «رَسَمَ» العيد على نفسه. التزام العيد هو «مَسْك» أو قبض على الجمر، أو هو ملمح جديد يُرسم على الشخص ويضاف إلى ملامحه لأنه ملمح ثابت لا ينبغي تركه. لكنّ العيد بالنسبة إلى باقي العائلات، لا يعني سوى احتمال تناول «برغل العيد»، وبالتالي التخفّف من الطبخ ذاك اليوم.

وكما هي الحال دائمًا، هناك عائلات شديدة التمسّك بحذافير العيد. هؤلاء لم تطرأ «تطوّرات» على أعيادهم. ذبائح ولحم وفير وبرغل يلمع بزيت الزيتون. وهؤلاء «الأوفياء» يتوزّعون بين أشخاص يأخذهم عمق الإيمان إلى مشقّة الوفاء بمعايير العيد على فقرهم، وبين أشخاص ميسورين يجعلون من «تقليدية» عيدهم وغناه مصدرًا للتباهي والتميّز.

كان لعيد رمضان نكهة خاصة، أوّلًا لأنه مسائي، فالطعام يجب أن يكون جاهزًا في موعد الإفطار الأخير من شهر رمضان، أي في موعد أذان المغرب. وثانيًا لأنّ عائلة عمّتي كانت «تمسك» هذا العيد. وثالثًا، لأنّ هذا العيد كان يتميّز عن غيره بأنّ أهل العيد يوزّعون إلى جانب

البرغل الفواكه والنبيذ الأحمر. غير أنّ هذه النكهة الخاصة تحوّلت إلى ندبة وعلامة فارقة في حياتي، كان فيه انتقال حاد من أجواء عيد إلى أجواء زنزانة. فبعد استمتاعي بطقوس العيد في بيت عمّتي حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كان موعدي مع الاعتقال الذي حرمني حريتي لستة عشر عامًا وثلاثة أيام متواصلة.

في أحد الأعياد القديمة، كنت أمسك جاطي بين مجموعة الأطفال الآخرين، ننتظر أن ينتهي المصلّون من أكلهم حتى نبدأ نحن بأكل برغل العيد، ثمّ باستلام حصّة لعائلاتنا. كنت أتأمّل، بغيرة، الرجال الجالسين على طاولة طويلة يتناولون أكلهم وإلى جوار كلّ منهم كأس من العرق المميّز ببياضه الحليبي المشوب بزرقة رجراجة خفيفة. فجأة دخل مسرعًا رجل من القرية، ورأيت الرجال يخفون كاسات العرق في كلّ مكان. كان سلوكهم غريبًا. بعد قليل وصل رجل لا أعرفه، نهض الجميع يستقبلونه بمودّة وحفاوة. علمت أنّ الرجل تاجر بقر من قرية مجاورة، ولكنه من مذهب ديني مختلف يحرّم على أتباعه شرب العرق. ولكن حين جلس الرجل ووضعوا أمامه «برغل العيد»، ضحك ضحكة صافية وقال لصاحب العيد: «أريد كأسًا من العرق وليس صحنًا من البرغل، إنني أتناول البرغل كلّ يوم!». عندها تململ الموجودون ثمّ أخرجوا كاسات العرق من مخابئها وهم يضحكون، فيما صاحب العيد يضع كأسًا من العرق للرجل وهو يقول: «كان هذا من باب الاحترام لك يا أخي». أجاب الرجل بمرح: «أنتم تحترمونني بإخفاء كاسات العرق، وأنا أحترمكم بمشاركتم في الشرب!».

الحرب

عدت من المدرسة واخترت أن أبقى مع ابن عمّي، على سطح بيتنا الذي كان على مستوى الطريق الواصل إلى النبع. هناك جلسنا نكتب وظائفنا الدراسية للتخلّص منها باكرًا والتفرّغ للعب، ولكي نستمتع بكلام البالغ الذي يمكن أن يمرّ ويرانا منشغلين بوظائفنا قبل أن نتناول الغداء، فيمتدح اجتهادنا. في لحظة انشغالنا تلك، اهتزّت القرية بهدير طيران هائل كأنّ أصوات الرعد الشتوية اجتمعت في صوت واحد، التفتنا، لمحنا في السماء طائرتين منخفضتين جدًا حتى شعرنا أنهما قد تصطدمان بالجبل المجاور لقريتنا.

اختفت الطائرتان وبقي هديرهما في أذني وانطباع صورتهما في عيني. الهدير الهائل، أعجوبة الطيران، سرعة الطائرتين وتجاورهما في السماء، اقترابهما من الأرض، كلّ هذه كانت عناصر للمتعة والدهشة، لكنها اجتمعت في ذهني في مشهد مخيف بل مرعب، حين قيل بعد ذلك إنهما طائرتان إسرائيليتان معاديتان، كانتا في مهمّة قصف خزّانات النفط القريبة من الميناء. تلك العظمة كانت مُعادية إذن!

بعد ذلك تدفّق إلى القرية كثير من أهالي المدينة المذعورين

من القصف المُعادي. استقبلنا في بيتنا عائلة مدنية كان أخوتي الذين يدرسون في المدينة يستأجرون غرفة عندهم. وفيما كان البالغون من الضيوف مهمومين وقلقين دائمًا، كان الصغار يجدون في تلك الأيام فرصة للاندهاش بكلّ شيء في القرية.

كانت تلك الحرب في شهر تشرين الأول/أكتوبر 1973. وكان بسبب هذه الحرب أن غاب أخي الكبير نديم الذي كان في خدمته العسكرية الإلزامية، فترة طويلة عن البيت. نضج العنب في الدالية المعرّشة أمام بيتنا، وأوشكت العناقيد أن تنتهي، ولم يستطع نديم الحصول على إجازة ولو 24 ساعة. حزنت أمي، وكررّت أمام أبي السؤال: «هل ستكون هذه هي السنة الأولى التي لا يأكل فيها «الغالي» من عنب الدالية؟». وكان أبي لا يكفّ عن سكب ماءه البارد على أسئلتها الحارّة، فيقول: «هذه حرب وليست لعبة، حرب بين دول كثيرة، ماذا تعتقدين؟ وهذه حال كلّ من هم في سنّ ابنك».

صار موسم العنب في أفول، وزادت حلاوة العنب المتبقّي وزادت جاذبيته للزنابير. قبل أن نأتي على آخر عنقود في الدالية، اختارت أمي أربعة عناقيد كبيرة وطلبت من أبي أن يلبسها أكياس ورق لكي يحميها من الزنابير، لعل نديم يأتي ويأكل من عناقيد الدالية. نفّذ أبي رغبة أمّي، واجتهد بفتح ثقوب صغيرة عدّة في الكيس الورقي لتهوئة العنقود. أثارت هذه العناقيد المعبّأة في أكياس قبل قطافها أسئلة كثيرة من الضيوف الذين كانوا يتلقّون التوضيح نفسه دائمًا ويردّون بكلام موحّد: «اللّه يرجعه سالمًا». كان هذا الجواب يخزّني كمسلّة، لأنه يذكّرني بأن أخي قد لا يعود سالمًا، لكنّ أمي لم تُبدِ قلقًا، وكأنها كانت

على يقين من أنه سيعود سالمًا، وأنّ همها الأوّل هو أن لا يأكل من عنب الدالية في هذه السنة.

بعد أسابيع قليلة عاد «الغالي» سالمًا. كان مرهقًا حين وصل إلى البيت، وكانت عينه اليسرى حمراء بالكامل. جلس تحت الدالية التي تظلّل أمام البيت، وصعد أبي يقطف له عناقيده المحفوظة في الأكياس، فيما كانت أمي تجلس بجواره وتتحسّسه بيديها، تطمئنّ على وجوده وسلامته. أما أنا، فكنت أتأمّل لباسه العسكري ولاسيّما الحذاء الضخم والبنطلون المزموم فوقه بمطّاطة، وكنت أصغي إلى كلّ كلمة يقولها عن الحرب التي انتهت ليس كما نحبّ. قال إنّ مصر خانتنا. وقال إنه كان يعمل في الحرب على سلاح مضاد للطيران اسمه «شيلكا» وعليه أن يضع عينه على شاشة الرادار طوال الوقت وهذا سبب احمرار عينه. وقال إنه نال وسامًا لأنه أسقط طائرة، ثمّ أردف، أنه لا يظنّ بأنه هو من أسقط الطائرة، فسلاحه متخلف قياسًا على تطوّر سلاح العدو، على الرغم من أنه قال إنّ سلاحه يلاحق الطائرة بشكل آلي ما إن تدخل الطائرة المُعادية في مجال فعله. في كلّ حال، سجّل إسقاط الطائرة باسمه ونال الوسام. طوال الوقت كنت أتخيّله في المعركة، متوقّعًا الموت في أيّ لحظة. فسألته حين نظر إليّ وابتسم: هل كنت تخاف الموت؟ جفلت أمي من سؤالي. أما هو، فضحك ضحكة قصيرة وقال إنّ الخوف من الموت يتبدّد ما إن تدخل المعركة. لا تزال جملته هذه محفوظة في ذهني، رأيتها غريبة، كيف تنسى الموت وأنت في أقرب مكان منه؟ ولكنني لم أدخل معركة حتى أتحقّق من ذلك.

في تلك الحرب اختفى عاطف. كانت أمه مطمئنّة إلى سلامته فهو

يخدم في البحرية ليس بعيدًا من البيت، وتُبدي قلقًا مضاعفًا على أخيه برهان الذي يخدم على الجبهة في سعسع (ارتبط هذا الاسم بذهني بالحرب فلم يعد يعني لي سوى الجبهة ويبدو لي الكلام عن قرية بهذا الاسم غريبًا). لكنّ برهان عاد سالمًا بعد الحرب، فيما اختفى عاطف، واعتبره الجيش مفقودًا. الجميع يعتقدون أنه أصبح طعامًا للسمك، غير أنّ الأم بقيت تأمل أن يكون أسيرًا في إسرائيل وأن يعود ذات يوم.

ومن تلك الحرب عاد أديب إلى القرية بعينين مطفأتين بعد إصابته بمادّة حارقة في الوجه، فاستعاض عن الجمال الذي تنقله العين بالجمال الذي تنقله الأذن، وتعلّم العزف على العود. أما علي، فقد عاد بروح محطّمة. حكى علي، حين زارنا، عمّا شاهد في تلك الحرب. كانت عيناي معلّقتين في شفتيه وهو يتكلّم فيما كانت عيناه معلّقتين في سماء الخريف الصافية، هربت عيناه من العيون المحدّقة فيه، وكأنه خجل من شيء ما. قال إنه ذات مرّة هدأ القصف، فذهب ليشرب الماء من بيدون موضوع جانبًا، وبعد ثوانٍ من عودته سقطت قذيفة على البيدون، وراح يتصوّر افتراضيًا أشلاءه مبعثرة في المكان لو تأخّر ثواني بجانب البيدون، وقال إنه شعر بسعادة عميقة لأنه ما يزال حيًا. وقال إنه شاهد زميله يمشي بضعة أمتار بلا رأس، بعد أن اقتلعت شظية رأسه وهو يمشي متجهًا إلى دبابته. كان المشهد ثقيلًا على مخيّلتي، وكان علي يختم كلّ مشهد بصوت يشبه ضحكة تموت ما إن تولد، صوت مفتوح يخرج من الحنجرة ويسارع علي إلى خنقه بإطباق شفتيه بقوّة. حكى عن جنود جفّت علاقتهم العاطفية بأهاليهم، وعن جنود يبكون بمجرّد ذكرهم أهاليهم، وتحدّث عن بطولات فردية كثيرة في

المعركة. وقال إنه بعد هذه الحرب، لم يعد يصلح إلّا للعمل كبائع في دكّان، وهكذا كان.

صارت تلك الحرب، التي سُمّيت «حرب تشرين»، هي صورة الحرب في ذاكرتي: طائرات تعبر مسرعة بعلوّ منخفض وبصوت هائل، وعناقيد عنب موضوعة في أكياس ورقية قبل القطاف، وحذاء ثقيل تعلوه ساقا بنطلون مزمومتان بالمطّاط، لكنّ الصورة الأبرز للحرب بقيت في خيالي هي صورة الجندي الذي يسير بدون رأس، كما روى علي.

العرس

في طفولتي كنت أقف بين المتفرّجين أراقب الدبكة ولكنني كنت في الواقع أنتظر متى يتقدّم زينو أو سميعة لاستلام رأس الدبكة. زينو وسميعة هما زينة العرس. لكنهما لا يستلمان رأس الدبكة إلّا في ذروة العرس. حين تكون السهرة قد اختمرت، ولكنني كنت أنتظرهما مع ذلك. كان ذلك قبل حادثة مكبّر الصوت التي تغيّر تقييم زينو بعدها بشكل حاد في قوقعتي النفسية ولم يعد في نظري زينة لشيء.

لزينو لباس مميّز عن كلّ أهالي القرية. بدلة كتّان سوداء وجزمة تشبه جزمة شرطة المرور ولكنها ذات عنق أضيق ولها أشرطة جلدية ومشابك معدنية على طول الساق. يتقدّم زينو بشيء يشبه اللامبالاة أو الثقة، ويقف في طريق الدبكة. تتوقّف الدبكة ويقترب منه ضارب الطبل. يعطيه زينو بعض المال ويطلب منه أن يحيي أهل العريس، ثمّ يهمس في إذنه شيئًا ما.

يمسك زينو رأس الدبكة ويبدأ الزمّار والطبّال، لكنّ زينو يثبت في مكانه من دون حركة سوى حركة المحرمة القماشية المعقودة التي يلوّح بها بحركة دورانية عاليًا في يده. يضطرّ الطبّال إلى النقر

السريع بالعصا الصغيرة على قفا الطبل إلى أن يُنزل زينو يده بحركة خاطفة إلى أسفل، وعلى الطبّال أن يواكب هذه الحركة بضربة مدوّية من العصا الغليظة. غير أنّ زينو سرعان ما يرفع يده ثانية بالمحرمة ويبدأ بتدويرها من جديد، فيجبر الطبّال على النقر السريع مرّة أخرى بالعصا الصغيرة على قفا الطبل. يكرّر زينو ذلك، ويواكبه الطبّال بالنقر السريع ثمّ بالضربة المدوّية حين يُنزل يده خطفًا. بعد قليل يلوّح زينو بالمحرمة أمام وجهه بدلًا من أن يرفعها عاليًا، وهذا يدلّ على أنه اقترب من مرحلة تحريك القدمين. وحين يهمّ زينو بنقل قدمه يمتلئ الجو بالزغاريد من أهل العرس ترحيبًا باستلام زينو للدبكة، لأنّ ذلك يعطي للعرس نكهة وقيمة أكبر. ينتشي زينو بالزغاريد، وسرعان ما يصبح مع الطبّال والزمّار جملة رقص واحدة. لا تعلم وأنت تشاهد، هل تواكب العصا الغليظة للطبّال قدم زينو أم أنّ قدم زينو تواكب العصا الغليظة؟ من يمشي على وتيرة من؟ من يدوزن من؟ من يتبع من؟ اتساق وانسجام وتوافق تام في التوقيت، كأنّ روحًا واحدة تتحكّم بيد الطبّال وبقدمي زينو.

مهارة زينو تفرض نفسها على الطبّال الذي يجب أن تكون عصاه الغليظة جاهزة لمواكبة ليونة الحركة، أن تعطي لكل انعطافة في الجسم أهمية وأن تحتفي بها بالصوت المدوّي للطبل. انحناءة الجذع، انثناء الركبتين، انحناءة الرأس إلى الأمام قليلًا، خطف اليد إلى أسفل، الانعطافة الخفيفة في الخصر...

حين يكون زينو على رأس الدبكة ينبغي أن يكون وسط حبل الدبكة أمهر الطبّالين. وحين يدخل زينو في بحر الدبكة بروح واحدة

مع الطبّال، يسلطن الزمّار، ويتلوّى في عزفه مطروبًا، ينحني صوب الأرض ثمّ ينتصب رافعًا الزمر بيديه باتجاه السماء، ما يجعل صوت الزمر ممطوطًا يتلوّى مع الحركة ويحيل اللحظة إلى موسيقا محضة كنت أنسى نفسي وأنا أتأمّل هذا الانسجام المذهل المغمور بصوت الزمر، بين الطبّال وزينو. كان يسحرني زينو حين يضرب الأرض بقدميه بالتناوب وكأنه يعجن جبلة كبيرة من الطين، يرفع رجله عاليًا ثمّ يضربها بالأرض ويرفع الثانية ويضربها بالأرض بالطريقة نفسها واضعًا يديه على خصره بحركة مليئة بالتحدّي، حركة تلزم الطبّال مواكبتها بالضربات المدوّية حتى يبدو كأنّ صوت الطبل المتقطّع يتواصل ويغطي صوت المزمار. ويصبح المشهد أكثر سحرًا حين يضاف إلى مزيج الموسيقا والحركة ذاك صوت الزغاريد التي تحتفي برقصة التحدّي تلك التي تجعل العرق يتصبّب من وجه زينو، غير أنّ هذا لا يمسح عرقه أبدًا في أثناء الدبكة، وحين ينتهي ويغادر حبل الدبكة، سوف يجد كثيرًا من المحارم القماشية الممدودة له لكي يجفّف عرقه.

يكون زينو على رأس الدبكة أو خارجها، لن تجده يومًا في حبل الدبكة ما لم يكن على رأسه. لا يدبك زينو تحت قيادة من أحد.

قدما زينو مقياس الدقّة في الدبكة، إذا ظهر فارق بين خبطة قدم زينو والضربة المدوّية للطبل، فعلى الطبّال أن ينتبه ويصحّح الفارق، وإذا تكرّر الخطأ فإنك سوف تجد زينو يترك الدبكة ويسحب الطبل من حامله ليصبح هو الطبّال وليتابع الشخص الذي يليه، وغالبًا ما يكون أحد الماهرين في الدبكة أيضًا، قيادة حبل الدبكة. في هذا تقليل من شأن الطبّال الذي يضطر إلى ترك زينو حتى ينتهي من نزوته، ثمّ يستلم

الطبل منه مع الشكر. لا يحدث هذا حين يكون ضاربو الطبل من القرباط. حينها يكون العرس أكثر بهجة وفرحًا. هؤلاء لا يتقنون عملهم فقط بل يستمتعون به، يرقصون وهم يؤدّون عملهم، يستعرضون مهاراتهم في الضرب على الطبل، وفي دقّة الإيقاع، وفي رفع حرارة الدبكة بأصوات يطلقونها بنبرة حماسية وبتوقيت دقيق يتوافق مع ضربات الطبل.

لاستلام سميعة رأس الدبكة تشبه نكهة زينو وتختلف عنها في آن. في الحالتين يوجد انسجام في التحدّي، أو تحدّ في الانسجام. زينو يتحدّى الطبّال في الدقّة وقوّة الحركة والقيادة، أما سميعة فالتحدّي هو مع الطبيعة، كأنها تقول أنا امرأة ولكنني أجيد التحدّي في ميادين الرجال. سميعة ليست بمهارة زينو، ولكنها بقوّة شخصيتها وقوّة حركتها تحفر للمرأة الريفية مكانًا في عالم الدبكة الذي يكاد يقتصر على الرجال.

سميعة تختار نوعًا واحدًا من الدبكة يسمّى «اللوحة». إنها لا تمهّد أبدًا لانطلاقة قدميها، على العكس من زينو، فهي تنطلق على الفور وتجرّ حبل الدبكة خلفها ثلاث خطوات قبل أن ترتدّ لتضرب الأرض بقدمها مرّتين متتاليتين كلّ ضربة تواكبها ضربة مدوّية من الطبل، ومن ثمّ تكمل ثلاث خطوات أخرى وهكذا. بعد فترة من هذا، تتوقّف سميعة وتومئ إلى الطبّال لكي يقترب منها، فتهمس له شيئًا، وحين تستأنف ندرك أنها طلبت منه أن يجعل الضربتين ثلاثًا. فتجدها تخطو الخطوات الثلاث ثمّ ترتدّ لتضرب قدمها في الأرض ثلاث مرّات متتالية، وتكمل من جديد فيما ينهض نهداها البارزان

ويرتجّان مع الحركة الرجولية المتحدّية في مزيجٍ لاذع وجذاب من الرجولة والأنوثة.

ينتهي العرس بالنسبة إليّ حين لا يبقى احتمال لأن يمسك زينو أو سميعة رأس الدبكة. سوى أنّ أحد رجال القرية من الذين قليلًا ما يحضرون العرس، فاجأ الجميع في أحد الأعراس حين غيّر كلّ قواعد الدبكة وأدهش الحضور برشاقته وحركاته البهلوانية وقدرته على مواكبة إيقاع الطبل وهو واقف على يديه.

العقيد والصياد

منذ طفولتي كنت أسمع باسمه بوصفه ضابطًا مهمًا وذا سلطة. يفتخر به أهل القرية لمجرّد أنه من قريتهم من دون أن ينالهم منه شيء، اللهم إلّا السوء. سمعت أنّ خدمته كانت في حلب وأنه تعرّض لمحاولة اغتيال من الإخوان المسلمين هناك لأنه كان شديد البطش بهم، وأنه بعد تلك المحاولة صار يتنقّل بحذر، فيقطع الطريق بين حلب واللاذقية ليس في سيّارته بل مستلقيًا في المقعد الخلفي لسيّارة المرافقة، وما إن يصل إلى مفرق القرية حتى يترجّل من سيّارة المرافقة ويستقل سيّارته ويتحوّل إلى شخص لا يخاف.

يدخل القرية بسيّارته متوجّهًا إلى بيته الكائن في أعلى السفح، ويطيب له أحيانًا أن يتوقّف قليلًا، في طريقه، عند دكّان زينو بجانب الفرن. يبدو زينو مسحورًا بسلطة ضيفه وجاهزًا لإبداء ما يرغب العقيد في رؤيته من أهالي القرية من إعجاب وتفخيم. وكان العقيد بالمقابل يحبّ في زينو «رجولته» ومغامراته النسائية سواء منها الخفية أو تلك المعلنة بمكبّر الصوت أمام الفرن. «ليس خطأ الرجل أن يستمتع بامرأة تسمح له، ولا غرابة في أن يتباهى بذلك»، يقول العقيد معقّبًا على حادثة زينو مع لمياء.

غير أنّ الأهالي لم يكن يروق لهم ما يبديه «ابنهم» من غطرسة وتعالٍ يزداد يومًا وراء يوم. «إنّ هذا أصبح ابن السلطة وليس ابن القرية». قال أحد أهالي القرية الكبار حين تلقّى ردًا وقحًا من العقيد لأنه حاول مرّة أن يمازحه بمودّة كأنه أحد أولاده.

في سهرة صيفية في بيتنا، قال راغب، وهو ألطف رجال القرية وأكثرهم كرمًا وظرافة: «واللّه يا عمّي خربت هالضيعة. سيادة العقيد قرّر إنو يستولي على تلّة الحوراني. يعني ما عاد فينا نصيد». قال ذلك وهو يزرع بين الجملة والأخرى ضحكته القصيرة الساخرة الملوّنة، ملوّنة بالخسارة والاستسلام حينًا وبالتحدّي حينًا وبالتحبيذ أو الإعجاب حينًا. إنها ضحكة واحدة ولكنها تتلوّن بحسب السياق وتعطي لحديثه جاذبية وجمالًا خاصًا. حين استفسر أبي، شرح راغب:

«المعلّم منيف، اللّه يرزقنا رضاه، أحضر جرّافات ويريد تحويل التلّة إلى أرض زراعية له، إلى مزرعة يعني. هل نستطيع منعه؟ ربما ورث هذه التلّة عن أبيه، من يعلم! هل تستطيع أن تقول له إنّ هذه الأرض ملك عام للدولة ولا يحقّ لك أن تستصلحها؟ واللّه يا عمّي لا أنا ولا أنت ولا أحد في القرية يستطيع. خسارة! أجمل أيام الصيد كانت هناك. سبحان اللّه، كانت تلك التلّة مليئة بالطيور والأرانب والحجال، كأنها مخلوقة لتكون محلًا للصيد. أن تصيد هناك يعني أن تكون سعيدًا وأن تعود بصيد جيد. الآن يريد الآغا أن يستولي عليها. ماذا نقول؟ لا أستطيع أن أشتم والده لأنه كان رجلًا طيبًا».

بسرعة قياسية، تحوّلت التلّة إلى أرض زراعية، وبنى فيها العقيد بيتًا للعائلة التي سوف تعتني بالمزروعات. أحضر العائلة من قرية

أخرى ومن مذهب ديني مغاير. «هؤلاء سوف يخافونني وينظرون إليّ كإله يحميهم ويؤمّن لهم العيش. أما أبناء قريتي، فلن يكفّوا عن النظر إليّ على أنني منهم وأنني ابن رجل فقير مثلهم». «ولكن لماذا من مذهب آخر؟»، سأل زينو. «صدّقني إنهم أكثر أمانةً». أجاب العقيد، وتابع: «أهل القرية هنا يطلبون مني أن أتدخّل لمساعدتهم في أشياء كثيرة، وحين أستجيب أحصل من أحدهم على سلّة عنب أو تفّاح، وقد يساعد أحدهم في حراثة الأرض أو في نقل الماء، وهذا هو رأسمالهم. أما حين ألبّي طلبًا لأولئك فإنني أحصل على مال وذهب، فإلى من تميل في الخدمة بحقّ اللّه؟ وهنا يعتب الأهالي لأنني لا أستجيب لطلباتهم، كما تسمع». «أفهمك جيدًا»، قال زينو وهو يهزّ برأسه، «المهم خدمة الدولة والحفاظ عليها، فهي سندنا».

مع الأيام انتصب جدار غير مرئي بين الأهالي والعقيد الذي لم يحاول يومًا أن يكسر هذا الجدار، وربما كان سعيدًا به، فهو لا يشبه هؤلاء الناس البائسين القابعين على الجهة الأخرى من الجدار.

تقاعد العقيد واحتفظ بسيّارته المرسيدس التي صارت محاطة بغلاف سميك من الغربة عن الأهالي. لكنّ الزمن أدار ظهره للعقيد، لم تكن أرضه «المحتلّة» منتِجة بالقدْر الذي توقّع، ولم يعثر على الماء اللازم للزراعة في باطنها، ولم يحقّق الثروة التي أراد. ربما لاحقته لعنات الصيّادين المحرومين، كما قال راغب مازحًا.

تأخّر ذلك اليوم، ولكنه أتى، حين رأى الأهالي العقيد في المشهد الذي أثلج صدورهم، وكأنه حلم يقظة يتحقّق. فبعد أن صدر مرسوم

باستعادة السيّارات المفروزة كافة للضبّاط المتقاعدين، اختفت سيّارة المرسيدس تلك، وخسر العقيد آخر مصدر من مصادر تفاخره وتميُّزه عن الأهالي، حتى شاهده الأهالي، ذات يوم، راكبًا، بهيئة مهزومة، على رفراف جرّار زراعي بجوار السائق ليوصله بطريقه إلى «النهر»، أي إلى الطريق العام الذي يصل اللاذقية بحلب.

في ذلك اليوم وقف الأهالي دقيقة صمت سعيدة على تهاوي الهيبة الثقيلة للعقيد. انتظرَ الجلي والغسيل وكنس الدار، وانتظرتْ أشغال الأرض، واستقامت الظهور المحنية على العمل، فعيون الجميع سعت إلى أن تلتقي بعينين مكسورتين لعقيد يأتي من حلب مستلقيًا في سيّارة المرافقة، ويصبح سيدًا لا يهاب أحدًا ما إن يصل إلى القرية.

مقلع الأسفلت

اكتشفت فرنسا في ثلاثينيات القرن الماضي، حين كانت تحتلّ بلادنا، أنّ حجارة قريتنا ثمينة، فباشرت بالكشف عنها والاستيلاء عليها. حفرت الأرض وفجّرت الصخور وراحت تبتكر الوسائل لنقل هذه الحجارة السوداء الثمينة ومعالجتها. عرف الأهالي أنّ هذه الحجارة اسمها «الأسفلت» وأنّ استخراجها من باطن الأرض يصدر رائحة واخزة تعوّدها الأهالي مع الوقت وأحبّوها.

لم تكن فرنسا لتسأل أحدًا عن إذن في التنقيب والتفجير، ولم يكن الأهالي يعرفون هل من حسن حظّهم أنّ حجارتهم «كريمة» أم لا. استسلم الأهالي لمشيئة اللّه التي راحت تتكشّف أمامهم يومًا وراء يوم.

بَنَت فرنسا بيتًا جميلًا لرجل فرنسي اسمه رينيه وأوكلت له أعمال مطاردة الحجارة السوداء في جوف الأرض. كان البيت نسقًا من الغرف أمامها ممرّ تصل إليه عبر درج واسع من ثلاث عشرة درجة يحفّ بها من الجهتين درابزين عريض ذو سطح أملس (صار لعبة تزحلق مسلّية للأولاد حين تحوّل هذا البيت إلى مدرسة ابتدائية بعد زمن طويل من قرار فرنسا الخروج من سوريا) وعلى كلّ جانب من الدرج ترتفع

شجرة سرو عالية، أما أشجار الرمّان، فكانت تصطفّ على جانبي الطريق المرصوف بالحجارة الذي يوصل إلى البيت، الشيء الذي يجعل هذا البيت شبيهًا برسمة طفل لبيت جميل، ومن ثمّ لمدرسة نظامية في ما بعد.

أمام هذا البيت الفرنسي وقفت أم أحمد التي كانت قد دفنت منذ مدّة زوجها الثاني، تنتظر زوجة رينيه التي كانت مغرمة بصحبة أم أحمد وأحاديثها، وحين حاول كلب رينيه أن يداعب سروال أم أحمد الأحمر الفضفاض المضبوب على ساقها بإسوارة مطّاطية، انتحت جانبًا ورفعت سبابتها في وجه الكلب قائلة: «إحذر! ما من ذَكر أمسك هذا السروال وبقي على قيد الحياة».

أما بالنسبة إليّ، فإنّ هذا البناء هو المدرسة، وهو الصورة التي حملتها في ذهني عن المدرسة الابتدائية التي تبقى صورتها ناقصة في ذهني بدون شجرتَي سرو عاليتين على جانبي درج عريض يشكّل مدخل المدرسة.

وفي هذا البيت/المدرسة عرف قلبي نوعًا طفوليًا من التعلّق بطفلة معي في الصفّ الأوّل. في قوقعتي النفسية التي كانت تتشكّل منذئذ، كانت لهذه الطفلة مكانة فريدة، كان يهمّني أن تكون لائقة أمام الجميع، ويهمّني أن أكون لائقًا أمامها. كان يحرجني إذا تصرّفتْ بحماقة، ويسقط قلبي إذا تعثّرت، وأشعر بالخجل حين تغنّي لفيروز أمام الصفّ كما كانت تفعل، ويسعدني أن تستعير قلمي، وإذا ما استعرتُ قلمها أشعر بالحرج وكأنني أقف بلا ملابس أمام عيون متلصّصة. كنت أكتئب

إذا جاءت بفستانها الزيتي، فيما يفرح قلبي لرؤيتها في فستانها الذي كان بلون زهر التفّاح. أسبوع من انكماش القلب كان يوازي أسبوع ارتدائها الفستان الزيتي، وأسبوع من انشراح القلب كان يوازي أسبوع الفستان الزهري. في المدرسة حين كنت أراقب الباحة في الفرصة من تحت أشجار الرمّان، لم أكن أرى في باحة اللعب سواها، وحين ألعب فإنني أكون مقيّدًا بنظرتها المفترضة، فأتصرّف ما أظنه يرضيها أو يعجبها.

أما خارج المدرسة، فإنني كنت أهرب من طريق تلك الطفلة حين أراها قادمة إلى النبع القريب من بيتنا، مفضّلًا أن أراقبها من بعيد، أن أراها لكن من دون أن تراني، من دون أن أدري ما هي القوّة التي تدفعني لفعل ذلك. ربما كنت أخشى أن أبدو في نظرها عاديًا، مجرّد ولد تعرفه في الطريق، أما في المدرسة فمديح الأستاذ وشعوري بالتفوّق الدراسي يعطيني دعمًا أفتقده في الطريق. أو ربما كنت أخشى أن أتصرّف شيئًا أخرق أمامها فأعاني بعده من ألم نفسي مرير، أو لعلني كنت أخشى أن تتصرّف هي أمامي بطريقة تسيء إلى صورتها في ذهني. في كلّ الحالات، كان هروبي نوعًا من ضمان السلامة من كلّ الاحتمالات السلبية الممكنة، مع الاحتفاظ بمتعةِ أن أراها من بعيد في طريقها إلى النبع.

وإلى ذلك البيت/المدرسة جاء يونس الطالب الجامعي ذو الروح المرحة، صديق أخي، لكي يفاجئني ويقدّم لي ظرفًا يحوي بطاقة بريدية عليها صورة جميلة لأشجار خريفية واقعة تحت تأثير ريح قوية تبدو كأنها تجتهد بوظيفة اقتلاع الأوراق عن غصون الشجر، وكتب يونس على

الجهة المقابلة: «إلى صديقي راتب... سنوات العمر تتساقط كأوراق الشجر في الخريف. كن سعيدًا»، لم يوقّع باسمه تحت العبارة بل وقّع باللقب الذي اختاره لنفسه: «أبو فريد» لشدّة ولعه بفريد الأطرش. هذا الاعتراف المفاجئ بي من جانب يونس كان مثابة منارة لي في بحر عمري. شملتني سعادة لا توصف، قرأت العبارة مئات المرّات، أشبعت نفسي بكلمة «صديقي»، هل هناك ما هو أجمل من أن يخاطبني يونس، أنا الطفل في الثالث الابتدائي، بكلمة «صديقي»، وأن يكتب لي كلمات ليست كالكلمات الموجّهة إلى الأطفال، وأن يأتي إلى المدرسة بغرض أن يقدم لي بطاقة بدت لي كأنها بطاقة اعتراف بوجودي من الجهة التي كنت أتوق لاعترافها بي، أصدقاء أخي الكبار الذين طالما سُحرت بكلامهم ومزاحهم وضحكهم وجدّهم. كان ذلك تقديرًا رفعني إلى سماء عالية. مع ذلك لم أتفاخر به، فقط أريت البطاقة لمن كنت أحرص على أن أبدو في نظرها كبيرًا، ومن ثمّ احتفظت بها في الدرج الخاص بي في البيت، وكنت أشبع نظري من الصورة ومن العبارة كلّ يوم أكثر من عدد الصلوات اليومية. كانت مكانة يونس عالية عندي، ولكن منذ ذلك اليوم رفعت مكانة يونس في «قوقعتي النفسية» إلى درجة تقترب من درجة أخي. هل كان يتنبّأ بالريح القوية التي سوف تعصف بسنوات عمري لاحقًا حين أُصبح في عمره؟ هل كانت روحه مرحة كتعويض مسبق عن مآس آتية حدس بها مبكرًا، سوف تطال بلده وتكسر قلبه على أحد أبنائه؟

خلال سنوات سَجْني، بينما كنت أستحضر في ذهني تلك المنارة باستمرار من دون أن أرويها لأحد خشية أن أفشل في نقل قيمة ذلك

الحدث في روايتي، فيبدو ذلك الحدث عاديًا أو أقلّ قيمة ممّا هو في نفسي؛ وبينما كانت أمي تواظب على تذكير اللّه وأوليائه الصالحين بي، وتوزّع صوري القليلة على المزارات، ضاعت تلك البطاقة، فقد عاملتها أمي كأنها واحدة من صوري تلك، واستقرّت في مزار ما مثل مئات محاولات التذكير المشابهة، بجانب الأقمشة الخضراء ورائحة البخور الثقيلة.

وفي محيط ذلك البيت «القرنسي» قال كثيرون إنّ هذا المعمل (هكذا وعلى نحو غريب تعارف الأهالي على منجم الأسفلت) سوف يؤمّن العمل لأهالي القرية. أن يكون لك دخل شهري ثابت خير من أن تنتظر عطاء الأرض الشحيح وغير الثابت. ولكن في قريتنا من رَفَضَ بلا تردّد هذا الدخل الثابت مع ذلك. قال أبو جمال: «أن أعمل تحت أمرة أحد، وأن ألتزم دوامًا، وأن أكون لطيفًا مع من يقسو عليّ، من أجل الدخل الثابت، هذا ما لا أريده ولن أفعله». عددٌ غير قليل من رجال القرية كان لهم الموقف نفسه، منهم زينو ووديع.

احتاج «المعمل»، بالفعل، إلى كثير من اليد العاملة. غالبية أهالي القرية أصبحوا «عمّالًا»، وعدد لا بأس به من أهالي القرى المجاورة أصبحوا أيضًا في عداد الناس المشتغلين في ملاحقة تلك الحجارة أينما كانت تحت الأرض، والقبض عليها وإرسالها إلى الحرق في فرن كبير أُعدّ لهذا الغرض قريبًا من النهر الكبير.

استمرّت المعارك اليومية مع الحجارة السوداء العميقة، معارك ملأت القرية بآثارها وحاجاتها ومستلزماتها. حفرة كبيرة لا تني تتّسع

وتزداد عمقًا. أرتال العمّال في ذهابهم إلى تلك المعارك اليومية وإيابهم منها. الأطفال الذاهبون بصرر طعام بسيطة إلى آبائهم المنهمكين في المعركة، ومن ثمّ العائدون إلى بيوتهم بصرر فارغة. صوت «الكومبريصة» التي لا تهدأ والتي جعلت من شاكر، العامل المسؤول عنها، أصمَّ مع الزمن، وأحالت أذنيه المليئتين بالشعر إلى شكل بلا وظيفة. نساء ينقلن الماء من «نبع جبر» على أكتافهنّ إلى العمّال، قبل أن يحلّ محلهنّ رجل بلفحة بيضاء على رأسه ينقل الماء على حمار بسرج يتّسع لأربعة بيدونات. حجارة سوداء متناثرة في كلّ مكان من القرية. أصوات انفجارات تختار لنفسها وقت الظهيرة، لكي تتيح للعمال تناول الغداء بعد ذلك. رائحة نفّاذة ثقيلة تملأ الفضاء عقب أصوات الانفجارات. مطر من الحجارة المختلفة الحجوم، حجارة لا تكفّ عن الفشل في محاولة الصعود إلى السماء فتتساقط يائسة على كلّ شيء، على أغصان الشجر وعلى سطوح المنازل وعلى الطرقات وفي السواقي وفي الأراضي الزراعية الضيّقة، وأحيانًا على رؤوس الأفاعي، (ذات مرّة بينما كانت أمي تجمع أغمار القمح المحصود لتجعلها في شدّات كبيرة، تفاجأت بما كانت تخشاه دائمًا، حين رفعت الغمر بين يديها اكتشفت أنها ترفع مع الغمر أفعى كانت غافية تحت الغمر، ولم تَدْرِ كيف رمت الغمر وعادت راكضة ومرعوبة إلى البيت. عندما عاد أبي من عمله أخبرتْه فتوجّها معًا إلى الأرض وهناك رأت أمي الأفعى مقتولة بحجر من تلك الحجارة التي سعت للصعود إلى السماء وعادت يائسة لتفجّر يأسها في رأس أفعى كانت يد الإنسان قد أقلقت راحتها وأيقظتها من غفوتها تحت الغمر).

إذا كانت الحجارة الصاعدة إلى السماء تفشل في مسعاها السماوي، فإنها لا تفشل في النجاة من «النار» الدنيوية التي تنتظر أبناء جلدتها في الفرن. الحجارة والصخور الباقية، المستسلمة لقدرها، تتحطّم بالمطارق وتُملأ في عربات حديدية يجرها «بغل الكَبّانة»، (هكذا تتعرّب الكلمة الفرنسية التي تعني «شركة»)، على السكّة الحديدية إلى محطّة صغيرة يعرفها العمّال والأهالي باللفظة الفرنسية «ستَسيون»، مضافًا إليها أداة التعريف العربية «الستَسيون»، وهناك تفرّغ في سطول حمر تسير في الهواء معلّقة على حبل معدني غليظ كأنها مشنوقة من رقابها حتى تصل إلى «النهر»، إلى مكان يعج بالقضبان الحديدية السميكة والمتصالبة، والتي لطالما تأملتها بما يشبه التعجّب أو الرهبة، في فترات الاستراحة بين الحصص الدراسية في مدرستنا الواقعة بجوار «المعمل»، وهناك تُرمى الحجارة في نار شديدة حتى تلفظ ما في جوفها وتنكر ذاتها تحت قسوة النار، وتتحوّل إلى سائل أسود شديد الكثافة. ثمّ يعود السطل مشنوقًا وفارغًا من جديد لكي ينقل حجارة منكوبة أخرى إلى مصيرها «الأسود» ذاك.

استخراج الصخور السوداء أدخل إلى حياة القرية عنصرًا غريبًا. لم تعد القرية بقعة معزولة للسكن والزراعة والأعمال الحقلية، بل مكانًا لسكّان يعملون في «الشركة» وينتظرون الراتب في آخر كلّ شهر بدلًا من انتظار المواسم. لم يعد الأهالي فلّاحين يعيشون من أرضهم، بل عمّالًا يعتمدون أساسًا على رواتبهم. تراجعت خلافات الفلّاحين على تخوم الأرض وموارد المياه لتتقدّم خلافات «حديثة» تتعلّق بظروف العمل وتوزيع المهام والمناصب والفوائد والولاءات.

علاقات معقّدة غريبة اقتحمت أجواء القرية البسيطة وقسّمت الناس إلى أحلاف متصارعة، يبحث كلّ حلف عن مصدر قوّة له في مراكز السلطة. أصبح مدير الشركة الشخصية الأولى في السهرات، بين من يمتدحه ومن يذمّه. كَثُر الحديث عن مكره وخبثه وتلاعبه بالعمّال. قال الناقمون عليه إنّ زوجته تلعب به على إصبعها الصغير، وتتكرّم بموهبتها الجسدية الفائقة على من يروق لها من الرجال، وفي الواقع يروق لها كلّ رجل قادر، فيما يتظاهر «هذا القزم» بأنه لا يعرف.

طالب العمّال بإعطائهم زيادة في الراتب تغطّي ثمن المنظّفات التي يستهلكونها لغسل بدلاتهم التي يلوّثها الأسفلت ويصعب تنظيفها. لكنّ المدير لم يستجب. وفي إحدى زياراته إلى الشركة تقدّم منه أحد العمّال وخلع سترته الملطّخة بالزيت وقال له: «أنا لا أريد بدل منظّفات، فقط أريد أن تقوم زوجتك بغسل سترتي هذه». ارتفع صوت ضحك العمّال، لكنّ المدير لم يضطرب، حافظ على هدوئه وقال للعامل ببرود أسكت الضحك: «أن تتلوّث سترتك في العمل هنا، خير من أن تبقى نظيفة في أرضك». هذا التهديد المبطّن بالفصل من العمل أخاف العامل، حين لم يجد مؤازرة من العمّال الآخرين، ما جعله يتراجع مكسورًا إلى خلف وهو يرتدي سترته.

دخلت إلى لغة السهرات مفردات جديدة: حقوق العمّال، الحوافز، بدل السفر، ظروف عمّال المناجم، النقابات والانتخابات النقابية... كثيرًا ما تسمع أبي يردّد في أحاديثه الكلام عن حقّ عمّال المناجم بنسبة 30 % من الراتب، وأنّ المدير يسرق هذه الزيادة لجيبه، وأنه عن طريق النضال النقابي سوف يستردّها للعمّال.

مع الوقت، تحوّلت أسمى، زوجة عمّي، إلى خبيرة في شؤون الشركة والنقابات والقوانين، وهي أمّية لا تقرأ ولا تكتب. تعرف أخبار المقالع بالتفصيل من زوجها، مدير المقالع. تعرف أسباب احتجاجات العمال، والنكايات المتبادلة بينهم، وتعرف مواقف كلّ منهم من زوجها: المحبّ والناقم والمحايد. تعرف من هو الملتزم عمله ومن هو المتسيّب من العمّال. وباتت تعرف شؤون النقابات و«حقوق العمّال» من أحاديث أبي الذي كان بعد كلّ سفرة نقابية، يجد متعة ظاهرة في قصّ تفاصيل لقاءاته، وكانت أسمى هي المستمع الأفضل والمتفاعل الأكثر حماسًا، تحفظ هذه المسرودات وتستوعبها، وتحلّل الأحاديث وتدرك خلفياتها، وقد أظهرت موهبة في حلّ أحاجي المدير ومناوراته، حتى صارت تقترح الحلول وكيفية مواجهة مراوغات المدير. تقترح التراجع في جانب ما، والإصرار على جانب آخر، وتنتظر ومن ثمّ عودة أبي من الجولة التالية لكي تسمع ما جرى وتعيد تقييم الأمور وتقترح من جديد. كانت تطلب من أبي أن يقرأ لها ما يتعلّق بأمر ما، من كتبه تلك التي يحتفظ بها ويملأها بخطوط التشديد بالقلم الأحمر تحت الجمل التي يراها مهمّة. كانت تعرف أنّ الشركة تأسست بامتياز فرنسي في عهد الانتداب، وكان اسمها الشركة الصناعية للأسفلت والزيوت في اللاذقية، وتغيّر اسمها حين أصبحت ملكيتها للدولة في 1970، فأصبح الشركة العامة للأسفلت. وكثيرًا ما قالت إنّ هذه الشركة نعمة من حيث أنها توفّر لأهل القرية والقرى المجاورة مصدرًا للرّزق، ولكنها نقمة من حيث أنها تجتاح الأراضي الزراعية بحفرياتها، وتجتاح حقول القرية بحجارتها السود المتناثرة، وتملأ الهواء بالغبار، وكانت تضيف

إنّ أسوأ ما في هذه الشركة أنها أفسدت قلوب أهالي القرية بعضهم تجاه بعض، فضلًا عن أنها جعلت القرويين فلّاحين كسالى طالما أنهم ينتظرون دخلا ثابتًا في نهاية الشهر.

كنت أرى حماسها في معالجة أمور النقابة والمقالع، وأقرأ في عيني أبي تقديرًا لموهبتها في حفظ الترتيب الزمني للأحداث وتقدير نوايا المدير ومساعديه. حين كان يعود من لقاء نقابي لم يكن يجد متعة في الحديث والسرد ما لم تكن أسمى موجودة، تصغي باهتمام، وتنظر إلى المتحدّث بعينين شغوفتين تجعلانه لا يحيد عنهما، وتعطي بين وقت وآخر تعليقًا صغيرًا يضفي على القصّة حيوية. حين تعجبها ردود أبي في حديثه مع المدير، كانت تقول «ينصر دينك» أو «فلتحيا»، بطريقة من يقود معركة ويتقدّم خطوة باتجاه النصر، وكان هذا التشجيع كافيًا ليمحو التعب واليأس ويدفع إلى المواصلة.

بالنسبة إليّ كان يسعدني حضورها وإصغاؤها وتعليقاتها، وكنت أرى «الجلسة النقابية» ناقصة ما لم تكن أسمى موجودة. وكان أكثر ما يسعدني حين تنبري للردّ الافتراضي على كلام المدير الذي تبتكر له الصفات والأسماء التحقيرية في كلّ مرّة. ذات يوم نقل أبي إجابة المدير على المطالبة بزيادة على رواتب العمّال تغطّي كلفة المنظّفات: «ما رأيك يا جبر أن تشتري الشركة لكم خزنًا وعلّاقات وأن تدفع لزوجاتكم أتعابهنّ في غسل ملابسكم أيضًا؟». فردّت على الفور، وكأنها أمام المدير: «نحن نغسل ملابس أزواجنا بكل فخر ولا ننتظر أجرًا منك يا نتن! العجيب أنك قادر على السخرية بعد أن جعلتك زوجتك مسخرة على كلّ لسان». وتختم بعبارتها الدائمة: «روح، يلعن أبو شرفك!»، ثمّ

تطلب من أبي أن يكمل سرد حديثه «الواقعي» مع المدير النتن والقزم والديّوث والشرشوح... إلى ما هناك من أسماء وصفات سيئة.

الخلافات المتعلّقة بالشركة صارت خلافات عائلية أدّت إلى قطع العلاقات بين عائلات من القرية نفسها، وتطوّر الأمر إلى شجارات بالأيدي. تكرّست الأحلاف والاصطفافات وصار في النفوس من الضغينة ما يمنع السلام المتبادل على طرقات القرية. الأبناء تبنّوا بصورة تلقائية مواقف أهاليهم وانتقلت الضغائن، كما لو بالوراثة، من جيل إلى جيل.

في مساء يومٍ صيفي، زارنا رجل لا أذكر أنني رأيته من قبل، يبدو أصغر سنًا من أبي، كما يبدو من ثيابه وسلوكه أنه مديني. جلس طويلًا مع أبي يتحدّثان بجدّية، ثمّ انضمّ إليهما عمّي. غادر الرجل ولاحظت أنّ وداعه مختصر وكأنه سيعود حالًا. تابع أبي وعمّي حديثهما وبدا لي أنهما يتشاوران استعدادًا لعودة الرجل. بعد قليل عاد الرجل بصحبة رجلين من القرية هما الأكثر عداء لأهل الدولود، أو لعائلتنا الكبيرة، بسبب مشكلات تتعلّق بالشركة نفسها. كنت أسمع أحاديث العائلة عنهما، ولذلك فإنّ الطفل الذي كنته، لم يكن يحبّ أن يلتقي بأيّ منهما في الطريق، وإذا حدث فإنني كنت أطرق في الأرض لكي أتجاوز حَرَجَ عدم إلقاء التحية. رحّب أبي وعمّي بالرجلين وجلسوا جميعًا يشربون القهوة ويتحدّثون بودّ. لم يكن مألوفًا لنا أن نشاهد هذين الرجلين في بيتنا، كان لوجودهما وللحديث الودّي مع أبي وعمّي أثر مريح. عداوة أبي مع أيّ يكن كانت مثل حمل ثقيل على قلبي الصغير، أما صداقاته، وكانت لحسن الحظّ أكثر بكثير من عداواته، فكانت مصدر طمأنينة وقوّة لي.

غادر الرجلان بعد ذلك، وتأخّر عنهما الرجل الأوّل الذي احتضن أبي وعمّي وقبّل رأسيهما وقد بدت عليه السعادة بنجاح مسعاه في إصلاح الحال بين هذه العائلات.

عرفتُ لاحقًا أنّ هذا الرجل هو، في الأصل، من أبناء القرية، ويعيش منذ فترة طويلة في المدينة ويعمل مدرّسًا في مدارسها، وهو شيوعي، كما قال أبي. جاء إلى القرية بمبادرة مصالحة بين العائلات المتخاصمة لأسباب تتعلّق بالشركة، بعد أن تحوّلت الخلافات والمواقف المتباينة إلى مصادر صراع وشجارات سمّمت أجواء القرية. لم يرفض أحد من الأطراف المتخاصمة الصلح، واستجاب الجميع لمبادرة «الشيوعي» الذي قال إنّ هذه الخصومة تضعف الأهالي وتخرب حياتهم وتسيء للأجيال المقبلة، وإنها في صالح المدير الذي هو مثابة ربّ العمل ويجب أن يتّحد العمال في وجهه لتحقيق مطالبهم.

لم يكن أبي جزءًا من المعارك اليومية مع الحجارة، كان موظّفًا في «المعمل»، ليس كمقاتل يقارع الحجارة ويكسرها، بل كرجل له خبرة في صيانة «المقاتلين» حين يتعرّضون للإصابة، فهو «ممرّض الشركة» كما سمعته يعرّف عن نفسه مرارًا ولاسيّما على الهاتف ذي الغرفة المجاور للدولاب المعدّل الذي يضبط حركة السطول المعلّقة. لأبي غرفة إلى جانب غرفة ورشة الحدّاد يعقوب ومساعده ساكو الذي كان الصديق المقرّب من سميعة. كان في غرفة أبي تلك والتي كان يسميها العمّال «المستوصف»، معدّات طبية وسرير حديدي ومكتب صغير

وخزانة معدنية بيضاء تقوم مقام صيدلية، إضافة إلى السرير المرتفع الذي يفترض أن يستلقي عليه المصاب، ولكنني لم أجد في أيّ يوم مصابًا على ذلك السرير، على أنّ أبي كان يرفض، مع ذلك، تحويل هذا السرير إلى طاولة، ويحتجّ بإصرار على كلّ من يستخدمه كذلك، فالسرير المرتفع يجب أن يبقى جاهزًا لاستقبال مصاب ما. ما كنت أكره رؤيته في غرفة أبي هو النقّالة التي كانت مسنودة إلى الحائط بجوار الباب، وهي قماش متين يشبه قماش الخيم، بلون زيتي غامق، يمتدّ بين عمودين خشبيين. وطالما سألت أبي بتردّد غير الواثق: «ألا يجب أن تكون النقالة في المقلع قريبة من العمّال، لكي ينقل العامل المصاب عليها إلى هنا؟»، فيكتفي بالقول: «هذه من مستلزمات المستوصف، هنا أفضل».

لا أدري سبب نفوري من تلك النقّالة، فهي لنقل المصابين وليس الموتى، غير أنه شيء ربما يتّصل بالحدس، فهذه النقّالة هي التي نقلت أختي إلى قبرها بعد بضع سنوات. ولونها ذاك هو الذي حرمني لسنوات طويلة من تقبّل أكل الزيتون المرصوص، كما ذكرت من قبل.

الحقيقة هي أنّ الإصابات التي تحتاج إلى نقّالة، كانت تنقل على الفور إلى المدينة، ويبقى للمستوصف الانشغال بالإصابات التي لا تحتاج إلى نقّالة. أما الانشغالات الأهم للمستوصف، فكانت الشكايات التي تقع خارج مجال الإصابات، ولاسيّما الصداع والإسهال، إلى حدّ أنني حفظت مبكرًا اسم الدواء الذي كان يقدّمه أبي لأصحاب شكوى الصداع، «الأسبيرين»، وحفظت اسم دواء الإسهال على الرغم من صعوبته، «إنترفيوفروم»، وكان على شكل أقراص مرصوفة فوق

بعضها في أسطوانة زجاجية رقيقة، وكثيرًا ما كان يُشيد العمّال بفاعلية هذا الدواء. كان العمّال يتخلّصون من حفظ اسم الدواء بنَسبِه إلى المرض، فيقولون «دوا الإسهال»، و«دوا الصداع». أما أبي، فكان يتفاخر بلفظ اسم الدواء كدليل على تميّزه. على الرغم من صعوبة اسم «دوا الإسهال»، لم يكن هو مصدر الفخر الأكبر لأبي، فقد كنت ألاحظ أنّ تباهي أبي يصل إلى ذروته بلفظ اسم دواء آخر كان يُستخدم لتطهير الجروح والآفات الجلدية الخفيفة، ففي حين كان الناس يعرفون هذا الدواء باسم «الدوا الأحمر» لأنه سائل أحمر اللون، كان أبي يسمّيه «ميركوركروم». في البيت حين كان يصاب أحد منّا، كان أبي يطلب من أمي أن تضع على مكان الإصابة قليلًا من «الميركوركروم»، فتنظر إليه أمي بذهول من دون أن تقول شيئًا، عندها يفضّل أن يقوم ويعالج الأمر بنفسه على أن يقول أقصد «الدوا الأحمر». كان يحبّ هذا الدواء «الساحر» كما كان يقول. ولاحظت أنه حين جرى حظر استخدامه، في ما بعد، على أنه دواء غير آمن، حزن أبي وكأنه ينال شيئًا من أرباح مبيعات هذا الدواء.

حين كنت أُحضر له الزوادة، كنت أراه غالبًا في ورشة الحدّاد يشرب الشاي الأحمر المعدّ على موقد الحدادة، لأنّ «المقاتلين» يكونون غالبًا في حالة جيدة ولا يحتاجون إلى صيانته الطبية. سوى أنّ أبي ملأ الفراغ الطبّي ذاك بعمل سياسي ونقابي لا يهدأ صبغ تاريخه الشخصي بالكامل.

كانت ورشة الحدّاد عالمًا بذاته، الدخول إليها يعادل خروجًا من عالم المألوفات إلى عالم مدهش. كور الحدادة والسندان بسطحه

المنبسط ونهايته المدبّبة، والمطرقة الثقيلة بذراعها الحديدية، على خلاف المطارق ذات الذراع الخشبية التي يستخدمها العمّال في تكسير الحجارة، وحوض الماء الحجري الضخم الذي يطفئ الحديد الملتهب، والملزمة المثبّتة على الكونتوار جاثمة بثبات مثل قضاء ينتظر، وآلة الجلخ، والطاولة الخشبية السميكة المحفّرة القابعة في وسط الورشة، وقطع الحديد التي تملأ المكان. بين هذه العناصر التي أصبح لها لون واحد هو لون الحديد، يتحرّك يعقوب بمئزره المتّسخ إلى حدّ السواد المناقض لبياض وجهه، وهو يشارك بالحديث الدائر بين أبي وساكو من دون أن يلتفت إلى أيّ منهما، فهو منهمك في أشياء لا تَحتمل أن يبعد نظره عنها.

إذا رأيت يعقوب خارج ورشة الحدادة، في البيت أو في الشارع، فإنّ آخر مهنة يمكن أن تتوقعها له هي مهنة الحدادة. لا يتّسق وجهه الأبيض الواسع وملامحه الناعمة ولطفه الطاغي مع هذه المهنة، تمامًا كما لا يتخيّل المرء أن يكون مارادونا بجسمه الملتفّ كالبرميل وساقيه القصيرتين فضلًا عن قصر قامته ورقبته، لاعب كرة قدم. وكما كان مارادونا، مع ذلك، لاعبًا مدهشًا في كرة القدم، كان يعقوب حدّادًا ماهرًا.

كان شيئًا لا ينسى حين أتيح لي أن أراقب يعقوب ينجز عملين للاستخدام المنزلي، على هامش عمله. راقبته وهو يصنع سكّينًا للمطبخ، تلبية لطلب من أحد العمّال. قطعة الحديد تتحوّل في الكور إلى عجينة حمراء، يلتقطها بملاقط عملاقة ويعطيها الشكل الذي يريد باستخدام المطرقة والمقصّ الكبير بحركات سريعة ومتقنة، ثمّ يسقيها

في الحوض قبل أن ينكبّ عليها بالجلخ، وفي النهاية يثبّت على ذيلها الدقيق قبضة أسطوانية خشبية فتتحوّل إلى سكّين كبيرة غير قابلة للطيّ كالتي عندنا في المطبخ. لا أحد يعرف لماذا يسمّي أهل قريتي هذا النوع من السكاكين «كزلك». والعمل الثاني الذي أتيح لي مراقبة يعقوب وهو يصنعه كان حين صنع علبة لسكب الماء (سقرق) انطلاقًا من علبة سمنة أسطوانية فارغة، جاءه بها عامل آخر. كان هذا العمل أسهل من صناعة السكّين، فهو لا يحتاج إلى استخدام الكور. يقتصر الأمر على تحويل أحد قاعدتي الأسطوانة إلى قبضة بشكل نصف دائرة، من خلال طيّها على بعضها بالسندان والمطرقة، ثمّ لحم هذه القبضة على جسم الأسطوانة، ثمّ طرق حوافّ فوهة الأسطوانة المعدنية لقتل النهايات الجارحة.

في يدي صرّة الطعام المرسَلة إلى أبي، أمرّ بجانب الملجأ، وهو سقف يقوم على أعمدة يقف تحته العمّال حين تحاول الحجارة الصعود إلى السماء كلّ يوم، لكي لا تعود وتفجّر يأسها في رؤوسهم. وهو السقف الذي لم تختر الحجارة السماوية المتمرّدة تلك أن تهبط عليه يومًا، ومردّ ذلك ربما إلى أنه مخصّص للحماية منها. وتحت ذلك السقف وعلى طوله، توجد منصّة أسمنتية كبيرة على جانبيها مقعدان طويلان يستخدمها العمّال كطاولة طعام. ولكن يبقى هناك عمّال لهم مذاق شخصي خاص، لا يأكلون على تلك الطاولة الأسمنتية، بل يختارون لأنفسهم أمكنة مرتجلة أقلّ رسمية، فيجلسون ويتناولون طعامهم على الأرض في ظل شجرة أو في انخماص واسع يتيحه

الجرف الصخري أو ببساطة بجانب الصخرة السوداء التي يعملون على كسرها.

تحت ذلك السقف، بعد أن انتهت الانفجارات، وفي فترة الانتظار للاطمئنان إلى أنه لم يتبقّ «ضرب ديناميت» لم ينفجر، قال أحد العمّال متوجّهًا إلى راغب: «سمعنا أنك تصيد الأرانب وتأكلها وتطعم عائلتك يا أبا مسرور، هل هذا صحيح؟». قال أبو مسرور ببرود: «هذا صحيح». «ولكنك تعلم أنّ أكل الأرنب محرّم في الدين»، أضاف العامل. سأل راغب: «وكيف هو محرّم؟ هل ورد هذا في القرآن؟»، علت أصوات كثيرة مستنكرة قول راغب. قال العامل بكل جدّية وهو يشعر بنشوة مناصرة الآخرين: «نعم ورد في القرآن، يا راغب. ألم تسمع قوله تعالى: وحرّم عليكم الدّم والخنزير ولحم الأرنب؟»، فرد راغب بسخريته الجميلة: «الحقيقة أنني لم أسمع هذا القول، وها أنا أقول لك: نعم، أنا أصيد الأرانب وآكل من لحمها وأطعم عائلتي، لأنني لا أريد أن أكون بينكم يوم القيامة، حين تحفّ بكم الملائكة من الجانبين مصفّقة تقول: أهلًا بالبهائم!». أمام ضحك الجميع أُحرج «حافظ القرآن» واختار السكوت.

في كلّ مكان مناسب في أرجاء «المعمل»، سوف تجد فراشًا لقيلولة عامل. أغصان ريحان مصفوفة على طول قامة العامل، وحجر عليه لفحة أو جاكيت مطوية أو بضعة أغصان غضّة يقوم بوظيفة الوسادة. بعد الغداء سوف تجد الفرشات مشغولة بالكامل. وضعية القيلولة كانت واحدة، جميعهم يستلقون على الظهر ويعقدون اليدين على الصدر. بين هؤلاء المستلقين في فترة القيلولة، كان يمكن بسهولة تمييز راغب الصيّاد، لأنه يغطّي وجهه بقبعة القشّ

الواسعة التي يضعها دائمًا على رأسه في طرقات القرية كما في جولات الصيد.

بعد أيام تصبح أغصان الريحان المصفوفة يابسة، ويأخذ فراش القيلولة النباتي هذا شكلًا يذكّر بالقبر الفقير المهجور، حيث للوسادة الحجرية فيه دور الشاهدة. على هذا، بعد الغداء يتوجّه هؤلاء العمّال كلّ إلى قبره الذي أعدّه بيديه، ويستعير من نومه الأبدي زمنًا قصيرًا قبل أن ينهض إلى عمله الشاق في تكسير الحجارة.

أتجاوز المكان الذي تُقتلع منه الحجارة وأسير على خطى «بغل الكبّانة»، أمشي بسعادة بين سكّتي الحديد وأستمتع بتجاوز العوارض الحديدية المثقبة التي تفصل بين السكّتين، في كلّ خطوة أتجاوز عارضة، وأنا مطمئنّ إلى أنّ العربات الحديدية لن تمرّ، لأنّ البغل يرتاح ويتناول وجبته هو الآخر في هذا الوقت. أصل إلى «الستّسيون»، يزهر فرحي حين أرى أبي بين العمّال. يأخذ أبي منّي الزوّادة، يداعب شعري بيده ويقبّلني، فترتوي مساكب طفولتي النهمة، وأشعر أنني صرت خفيفًا كفراشة، ثمّ يتركني وينضم إلى العمّال المتجمّعين في فيء أشجار السرو الضخمة، وهم يفتحون الصرر ويخرجون ما أرسلت لهم زوجاتهم من طعام. يبدأون الأكل بنهم، يتبادلون التعليقات، ويتبادلون الخبز (كان ذلك قبل أن يوحّد الفرن طعوم خبز القرية في طعم واحد خال من الملح)، يكسرون البصل على الأرض بقبضاتهم، ويقضمون حبّات البندورة بأسنانهم بعد أن يرشّوا عليها القليل من الملح. كنت أستمتع بمراقبتهم. كان شحادة، أحد أصدقاء أبي المقرّبين، يأكل حبّات العنب ملفوفة بالخبز، ويعلن أنّ لطعم العنب مع الخبز نكهة طيبة لا مثيل

لها. فيعلّق أبي: «نعم، إنها نكهة الفقر!». وكنت لا أشبع من تأمّل محمد القليل الكلام الذي قيل إنه تجرّأ ذات يوم وجلس في أحد السطول المشنوقة بدلًا من الحجارة السوداء ووصل عبر الهواء إلى «النهر».

بعد الغداء ينشغل المدخّنون بلفّ السجائر ويدخّنون بانغماس واستمتاع ويبدون كأنهم يستغنون بهذه المتعة عن كلّ شيء، وكأنهم يقولون لكلّ من لا يشاركهم متعتهم: «لكم دينكم ولي ديني».

في ذلك الوقت كانت متعتي كبيرة في تأمّل السطول المشنوقة، وفي الاقتراب من المروحة الضخمة التي تتحكّم بحركتها، ومن الفتحات ذات العتلات التي تنزل منها الحجارة في السطل حين يرفع العامل العتلة. لكنّ الإثارة الأكبر كانت حين يصيح أحد العمّال قائلًا «إنهم يلوّحون بالرّاية»، فأنظر إلى الجهة التي تشخص إليها الأبصار، وأرى راية برتقالية تلوح من بعيد، حيث يقف أحد عمّال الفرن الذي يبعد عن موقعنا حوالى ثلاثة كيلومترات خط نظر ويلوّح بالرّاية. هذه الإشارة تعني أنّ هناك أمرًا طارئًا وينبغي إيقاف حركة السطول. كانت تسحرني لغة الإشارة تلك وجدّية العمّال الظاهرة في التجاوب معها. لم تكن تضاهي هذه المتعة سوى متعة محاولة أبي الاتصال بالهاتف مع عمّال الفرن.

كان للهاتف غرفة خاصة ذات نافذة صغيرة مقضّبة تطلّ على الغرب، على الفجوة الجبلية التي تمرّ منها السطول. يدخل أبي إلى غرفة الهاتف الصغيرة، فأتبعه. أخال أنني أدخل إلى عالم آخر بقوانين أخرى، عالم فيه تواصل غير مألوف. هنا يمكن لأبي أن يتكلم مع شخص بعيد من خلال سمّاعة. أتابع أبي وهو يرفع السمّاعة بيده اليسرى ويمسك الجهاز الصغير

باليد نفسها ويبدأ بتدوير «المانويل» الصغير بسرعة باليد الأخرى، ثمّ يترك الجهاز ويضع السمّاعة على أذنه ويصرخ «أللووو»، ويكمل الحديث مع الطرف الآخر، بصوت مرتفع كاف لقطع نصف المسافة بينهما. ولكن حين لا يأتيه الردّ، يكرّر التدوير والصراخ «أللوووو». كان يزداد المشهد غرابة حين يضيف: «أللووو يا وطى الخاااان»، يبدو لي الأمر غريبًا ومؤثّرًا أن يخاطب أبي القرية المجاورة بهذا الشكل وكأنها شخص عاقل. وحين لا يتلقّى إجابة تظهر عليه بداية التعصيب: «لك ردّوا يا أخي!»، قبل أن يثنيه اليأس فيضع السمّاعة ويخرج من الغرفة شاتمًا الهاتف وساعته متّهمًا البطاريات كسبب لفشل المكالمة.

يمرّ الزمن مثل ريح عنيدة ظالمة تجرف كلّ شيء. تقدّمَ العمر «ببغل الكبّانة» ولم يعد قادرًا على جرّ العربات الحديدية، فقتلته الشركة بطلقة في الرأس، لتحلّ محلّه قاطرة آلية صغيرة يقودها زوج لمياء. (أي شريط من الصور والانطباعات كان يعبر ذلك الرأس المسالم وهو يراقب قضبان الحديد المتوازية التي تنزلق إلى خلف تحت القاطرة في ذهابها وإيابها إلى الستسيون؟). «لماذا قتلوا البغل؟»، «لأنّ الشركة أوقفت مخصّصاته، من سيطعمه إذا بقي؟» استقرّت هذه الإجابة في ذهن الطفل الذي كنته كأنه وشم كريه.

ثمّ هبّت الرّيح الظالمة، فاقتلعت السكّة الحديدية، واستصلح مكانها ليكون طريقًا للشاحنات. ثمّ هبّت الرّيح وصار «الستسيون» مكانًا نافلًا، صار مكانًا مقفرًا بلا حركة، وتوقّفت السطول وظلّت معلّقة في الهواء كبقايا من زمن أصبح جميلًا لأنه مضى. صارت الحجارة السوداء تصل إلى الفرن بالشاحنات من دون حاجة إلى السطول

المشنوقة. تحوّلت ورشة الحدّاد يعقوب وغرفة أبي إلى مكان لرمي الخردوات، قبل أن يحوّلها أحد العمّال السابقين إلى سكن له ولعائلته. الدجاجات «تبحش» التراب بحثًا عمّا يؤكل في المكان الذي كان يتناول فيه العمّال الغداء، والكلب يتّخذ من غرفة الهاتف مقيلًا له، وبين العوارض الحديدية يمتدّ حبل غسيل، وعلى الحبل المعدني الصدئ الذي كان يلتمع بالزيت حين كان يحمل السطول، يتدلّى كيس لتصفية اللبن.

حياة عائلية قروية تكيّف ما كان يومًا من مستلزمات «المعمل» ليصبح ملائمًا لمستلزمات العائلة. لكنّ ملامح المعمل على الرغم من موته تبقى مسيطرة على أرجاء المكان الذي فقد سحره القديم وتواضع حتى صار أليفًا كحياة عائلة ريفية بسيطة.

وهبّت الرّيح أيضًا وتطوّرت وسائل مطاردة الحجارة في باطن الأرض، فاتّسعت تلك الهوّة السوداء وابتلعت طريق القرية ثمّ ابتلعت بيتنا وأشجارنا، ثمّ توقّفت فجأة حين بدأت تتشكّل هوّة من نوع آخر، راحت تتّسع وتبتلع أهالي سوريا في كلّ مكان، وتهدّد بابتلاع البلاد. وحين راح عمّال الحجارة السود يتركون أماكن عملهم ليتحوّلوا مقاتلين بالبوارید هذه المرّة وليس بالمطارق، يطاردون رجالًا آخرين بدلًا من مطاردة الحجارة السود ويطاردهم رجال آخرون بما تيسّر لهم من وسائل للقتل. هكذا تحوّلت فُرُش القيلولة الفقيرة تلك إلى قبورٍ حقيقية، وكأنّ الحجارة السود تنتقم لنفسها.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- رامي السهام (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پيدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- فيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيبّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تحبّه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

سردار أوزكان

- حبٌّ عَرَفَه الرومي (رواية)
- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

♦ ♦ ♦

- «الأصولي» المتردِّد – محسن حامد
- ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) – بيون لي
- اعترافات غايشا – آرثر غولدن
- امرأة من ماريوپول – ناتاشا فودين
- بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني – نيلوفر بازير
- بومبي – روبرت هاريس
- بيل كانتو – الرهينة – آن باتشيت
- حكاية الشتاء – پول أوستر
- حياة – دافيد فاغنر
- الخجل والكرامة – داغ سولستاد
- دماء الأرهار – أنيتا أمير سقاني
- عند تلاشي الضّوء – أويغن روغه
- فتاة من بلغراد – لويس دو برنيير

- اللعنة على نهر الوقت – بير بيترسون
- متتالية فرنسية – إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين – كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما – جيروم فيراري
- الناس والآخرون – قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

جان ماري غوستاف لو كليزيو

- بِنا تحت سماء سيول
- العاصفة

يوكيو ميشيما

- حبٌّ محرَّم – (تخلّى عن الجائزة مرّتين)
- المعبد الذهبي

كنزابورو أوي

- اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد
- الموت غرقًا

♦ ♦ ♦

- الضفادع – مو يان

♦ روايات وقصص قصيرة ♦

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شبعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- الرواية العمياء (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الحرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيربس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

د. نعمة اللّه إبراهيم

- السِّيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز – ألف يوم ويوم (قصة)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) – د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- الحريم اللُّغوي
- صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر

♦ ♦ ♦

- أرملة مهندس – صالح ابن عايض
- إعصار بالتيمور – حسين عبد الرسول سبيتي
- إمرأة... وظلّان – خلود عبدالله الخميس
- ابن الحزب – فيصل فرحات
- احتضار الفَرَس – خليل صويلح
- بائع الفستق – سمير عطا الله
- حقيبة حذر – عاطف البلوي
- رقص تحت أشجار الكستناء – عباس جعفر الحسيني
- الرؤيَوان (قصص قصيرة) – عمرو عبد الكريم
- سأعطيك الحلوى شرط أن تموت – وائل ردّاد
- سوريّو جسر الكولا – ياسين رفاعية
- صورة على هاتفٍ جوّال – إلهام منصور
- العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة) – اسماعيل الأمين
- عشّاق أمي (قصص قصيرة) – هاجر عبد السلام
- الغشوة – راضي شحادة
- في وسط العاصمة حانة مسحورة – ساندرا تربونيّة
- في حديقة الملك – ميّادة العسكري
- قصة مشربية – قصة يوطوبيا – حسن فتحي
- كأجراسٍ بعيدة... – راتب شعبو
- محاولاتٌ اغتيال علي (قصص قصيرة) – محمد بركات
- محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة) – زينة حموي
- مولود وثلاثة آباء – نائل ماجد مجذوب
- نهاية جيل – محمد سعيد طالب
- هل يفرّقنا الدين؟ – حسن السيد أسعد فضل الله
- همنغواي الأديب العاشق – أ. إ. هوتشنر
- يونس بحري وموانئ الليل – سامي البدري
- ١٨ يوماً في ميدان التحرير – قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

♦شعر♦

سليم حيدر

- آفاق
- أشواق
- إشراق
- ألوان
- ألحان
- أشجان
- لبنان
- يا نافخ الثورة البيضاء
- ألسنة الزمان
- مهرجان العدالة

طلال حيدر

- آن الأوان (شعر)
- سرّ الزمان (شعر)

مهدي منصور

- أخاف الله والحب والوطن
- الأرض حذاء مُستَعمَل
- الظلُّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

هادي مراد

- حرب الجسد
- كما يقع التفاح

♦ ♦ ♦

- **أثواب الحزن** – هدى السراري
- **أنظر إليك** – مرام المصري
- **خريف من ذهب** – جوزيف طوبيًا
- **خطوات أنثى** – ردينة مصطفى الفيلالي
- **خفيفًا كزيتٍ يُضيء** – بلال المصري
- **ما يفعله الغريب في الليل** – محمد دياب
- **متْل السَّكْت** – سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** – جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** – هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** – إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** – ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** – غسّان علم الدين

♦دراسات ♦

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتَتِ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

محمد توفيق أبو علي

- ضوع الياسمين (شعر – حكايات – خواطر)
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية – (دراسات)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

♦ ♦ ♦

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو** – د. بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** – د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** – ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** – تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية**- د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** – د. عادل كامل الآلوسي
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** – نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** – د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** – هادي يحيى الخفاجي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** – عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** – د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** – نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** – إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة)** – هارالد هارمان
- **فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر)** – د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية)** – نافتج سارنا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** – منتهى العزة
- **باب للخروج (رواية)** – طارق فرّاج
- **حبيبتي الحقيقة (شعر)** – أحمد طقش
- **الخامدون (قصص قصيرة)** – ربى عنباوي

○ نسرين ستموت الليلة (رواية) – خديجة نمري

د. شكري نصرالله

○ الثالث (رواية)

○ قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)

○ كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

كما ترتاح الشجرة من حِملها عند قطافها، استراحت ذاكرة راتب شعبو على الورق وأحيت زمنًا ما يزال رنين أجراسه البعيدة يتردّد ترنيمة جذلة في فضاءات الروح والذهن.

ترتحل بنا هذه الرواية إلى طفولة الكاتب القروية وما انطبع في ذاكرته، بمادّتها الأوّلية، من أحداث وأشخاص ومواقف وانفعالات نطمئنّ إليها، ونتفاعل معها، ونحياها في إطار سردي متين جمع بين الوجودية والحتمية تعبيرًا عن واقع اجتماعي أُسَري، وبين النقد المباشر لحقبة اتّسمت بالقمع الفكري. وصفٌ مبهرٌ نابضٌ يضعنا في قلب الحدث حيث الطبيعة تتنفّس، تلتقط مشاعر من تحضنهم، ترعاهم ويرعونها، ويأبون الانفصال عنها، إلى أن أفقدت الحداثة خبزَ التّنور نكهتَه وشوّهت الآلات خدَّ الأرض الأسودَ وفقأت السياسةُ حناجرَ الحرية، «فاتّسعت تلك الهوّة السوداء وابتلعت طريق القرية ثمّ ابتلعت بيتنا وأشجارنا....وحين راح عمّال الحجارة السود يتركون أماكن عملهم ليتحوّلوا مقاتلين بالبواريد هذه المرّة وليس بالمطارق، يطاردون رجالًا آخرين... هكذا تحوّلت فُرُش القيلولة الفقيرة تلك، قبورًا حقيقية، كأنّ الحجارة تنتقم لنفسها».

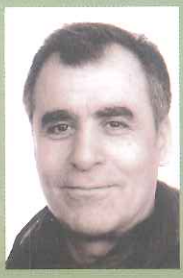

راتب شعبو، مواليد اللاذقية، سوريا 1963. مقيم في فرنسا منذ العام 2014. صدر له: «دنيا الدين الإسلامي الأول» (2013)، «ماذا وراء هذه الجدران» (2015)، و«قصة حزب العمل الشيوعي في سورية» (2020).

ISBN 978-6144-58-575-7

www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر